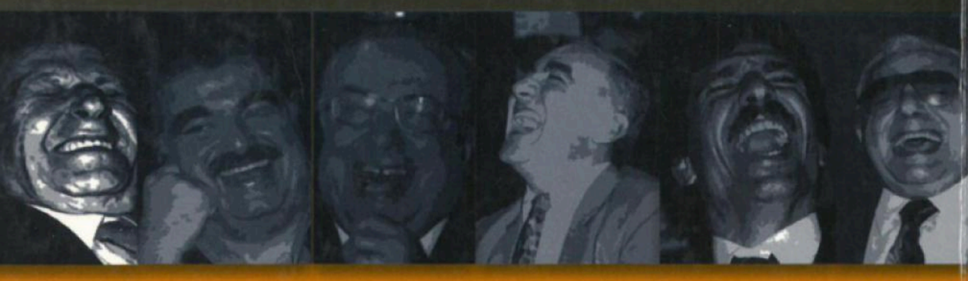


النكتة السياسية عند العرب

بين السخرية البريئة والحرب النفسية

هشام جابر

هشــام جابــر

النكتـة السياسيـة عنـد العـرب

بين السـخرية البريئة والحرب النفسية



الشركة العالمية للكتاب

النكتة السياسية عند العرب

إخراج: أكرم جمال الدين
غلاف: الشركة العالمية للكتاب
طبع في لبنان

النكتة السياسية عند العرب، الطبعة الأولى
العميد الركن د. هشام جابر

الناشر: الشركة العالمية للكتاب
ص.ب. 3176 بيروت لبنان
فاكس: 351226 (1-961)
www.wbpbooks.com
E-mail: info@wbpbooks.com

ISBN 978-9953-14-098-8
سياسة / ترفيه وتسلية

Arabs and Political Sarcastic Humor
By General Hisham Jaber PhD

نبذة عن المؤلف

هو جنوبي أصيل سليل إحدى كبريات العائلات الجنوبية المتميِّزة بالعلم والثقافة، والده مفيد جابر كان حقوقياً وأديباً مرموقاً، ووالدته جوليا الطيار، عُرفت بإنسانيتها وتميّزت بطيبة أهل صافيتا السورية، وجد والده العلامة الشيخ أحمد رضا مؤلف كتاب «متن اللغة» كان عضواً في المجمع العلمي العربي وكذا جده المؤرخ محمد جابر آل صفا.

انتسب هشام جابر إلى المدرسة الحربية في لبنان، تخرّج منها ضابطاً في العام 1964 ليلتحق بالمدرسة العسكرية التطبيقية في فرنسا في العام 1965. بعدها عمل قائداً ميدانياً في وحدات الجيش على مختلف الأراضي اللبنانية، وفي العام 1974 اختير لرئاسة قسم الإعلام في قيادة الجيش إضافة إلى انتدابه لمهام ميدانية ودراسية مختلفة، وخلال الحرب اللبنانية عمل ضابط ارتباط بين المتقاتلين مستفيداً من خلفيته العائلية والاجتماعية وصداقاته وحياديته، وفي العام 1979 اتّبع دورة مكثّفة في الحرب النفسية في قاعدة فورت براغ العسكرية بكارولينا الشمالية في أميركا، وفي العامين 1981 ـ 1982 تابع دراسة عليا في كلية القيادة والأركان وفي ميدان الإعلام والاتصال الجماهيري بولاية كنساس الأميركية، وفي العام 1985 نال دبلوماً في الإدارة من كلية (NPS) في مونتري ـ كاليفورنيا ـ أميركا، وفي العام 1993 حصل على شهادة الـ (DEA) في التاريخ المعاصر من جامعة السوربون بفرنسا ثم دكتوراه دولة في العلوم الإنسانية من جامعة السوربون بفرنسا في العام 1997، بعدها شغل عدة مناصب منها ملحق الدفاع (بر ـ بحر ـ جو) لدى السفارة اللبنانية في باريس للأعوام 1991 ـ 1993. وقائد منطقة بيروت العسكرية حتى عام 2000. وحالياً رئيس مركز الشرق الأوسط للدراسات والعلاقات العامة.

متأهل من ندى حسين الحسيني، ولديه ثلاثة أولاد: دانا وزينة ومفيد.

له عدة مؤلفات قيد الإنجاز:

ـ المارينز في لبنان «لماذا أتوا وكيف رحلوا»

(Why they came how they left) بالإنكليزية.

ـ الإرهاب والعنف السياسي في الشرق الأوسط.

ـ «سنوات النار والنور» مذكرات.

المحاضرات والمقابلات:

مقابلات على شاشات التلفزة العربية والأجنبية والصحف.

محاضرات عن الإرهاب والعنف السياسي: موسكو، باريس، القاهرة، بيروت.

شكر خاص للأستاذ مصباح
لمساعدته القيّمة في توثيق
هذا الكتاب.

المحتويات

تقديم

السخرية السياسية في المشرق العربي موضوع طريف ولكنه أيضاً يحمل من المعاني ما لا يمكن تجاهله.

فالظرف السياسي هو وسيلة للتعبير الاعتراضي يلجأ إليها المواطن أحياناً كثيرة عندما لا يجد للنقد المباشر متسعاً في الحياة العامة. فحيث الديمقراطية ناشطة وفعّالة، أي حيث للاعتراض دور محترم في الحياة العامة، تعبّر عنه الصحافة وسائر وسائل الإعلام في تعليقاتها وافتتاحياتها، كما يعبّر عنه ساسة البلد في أحاديثهم وتصريحاتهم وكتاباتهم، فإن النقد السياسي يشكّل جزءاً لا يتجزأ من السجال الذي يشغل الحياة العامة. وكثيراً ما يجد النقد السياسي المباشر رافداً له في الرسوم الكاريكاتورية حتى في البيئات التي تتميز بفيض من الحرية والديمقراطية.

أما في البلدان التي تفتقر إلى شيء من الحرية أو الديمقراطية في الحياة العامة فكثيراً ما لا يجد المواطن متنفساً له في انتقاد ممارسات السلطة أو سلوك ومواقف أهل السياسة سوى الطرفة أو النادرة، هنا يصبح الظرف السياسي بمثابة البدل عن ضائع أو في منزلة الرديف للممارسة السياسية. كذلك هو الأمر في بلادنا العربية، حيث تسيطر السلطة على أجواء الإعلام السياسي عموماً فلا تسمح للنقد الحر بالتسرب إلى التعليقات أو الأحاديث بالقدر الشافي، فإن الظرف السياسي يكاد يحل محل النقد المباشر. فالظرف نقد يبقى مجهول المصدر عملياً. فهو يطرح بالتداول وكثيراً ما يكون لاذعاً جداً أين منه النقد الإعلامي المباشر.

وقد اشتهرت الشقيقة مصر وتميّزت بهذا الضرب من النقد، ثم انتشر في بلدان عربية أخرى، ومنها لبنان. وقد أصبح للنكتة السياسية حيّز مرموق في

السجال السياسي الدائر في لبنان. وتتميّز النكتة السياسية عن النقد السياسي المباشر بأن الأخير كثيراً ما يُقابل بالامتعاض كما كثيراً ما يستدرج ردوداً مقابلة تتّسم أحياناً بالعنف، هذا فيما تمرّ الطرفة السياسية مرور الكرام مهما كانت لاذعة.

وفي الآونة الأخيرة، مع اشتداد الأجواء الفئوية، الطائفية والمذهبية في لبنان، كثرت النكات المتداولة حول آفة العصبية الفئوية. وإنك إذ تسمع هذه الطرائف تشعر وكأن راويها يريد الانتقاد من دون الإساءة.

كتاب العميد الركن الدكتور هشام جابر متميّز في طرافته كما في تعبيره عن واقع قائم في بلادنا التي تفتقر إلى الديمقراطية الحقيقية إلى حد بعيد.

سليم الحص

مقدمة

خلال عام 1979، كنت في الولايات المتحدة الأميركية، أتابع دراسات في الحرب النفسية في قاعدة فورت براغ ـ كارولينا الشمالية. وقد درجت العادة في نهاية الدورة الدراسية، أن يقدم الطالب دراسة عملية، للقيام بعمليات نفسية، أو حرب نفسية، في بلد يختاره وتوافق عليه إدارة الكلية، أو تختاره هذه الإدارة بالتوافق معه إذا اقتضت الضرورة. والفرق بين عبارتي الحرب النفسية، والعمليات النفسية، طبقًا للمنطق الأميركي، أن الأولى تنفذ عادة في بلاد نظامه معادٍ للولايات المتحدة الأميركية، والثانية لدعم نظام حليف.

وشاءت الصدف أن تكون مصر إحدى الدول «الهدف» (Target Country)، ونظام السادات في حينه، نظام اعتبره الأميركيون نظامًا حليفًا، فكان أحد المواضيع المطلوبة القيام بعمليات نفسية، لدعم النظام في مصر وإضعاف خصومه.

في الحرب النفسية تُستخدم كل الوسائل المتاحة، للتأثير على نفسية الجماهير ومعنوياتها، واتجاهها السياسي، ومن هذه الوسائل: أدوات الإعلام المقروء والمرئي والمسموع. بالإضافة إلى الشائعات التي تنتشر «انتشار النار في الهشيم» كما قال صلاح نصر.

لم أفاجأ بأن القيمين على الدراسة الأكاديمية، قد أعطوا النكتة السياسية في مصر مكانًا متقدمًا في العمليات النفسية على الشائعة وبعض الوسائل الأخرى، معتبرين أن النكتة في بلد كمصر تنتقل بسرعة البرق، وكلما ازدادت حدَّة وطرافة، كلما زادت مساحة انتشارها. فهي تتسلل ضاحكة إلى كل بيت ومكتب، لا يقف أمامها حاجز، يسمعها الحاكم موضوع «السخرية»، بعد أن تدور على ألسنة الناس، يضحك لها أو يتضاحك، ولا يتجرأ على منعها

علنًا. والنكتة السياسية دائمًا مجهولة المصدر، فلا أحد يعرف من أطلقها، مع أن الأصابع تشير دائمًا إلى الخصم الواقف وراءها، ومن له غاية في تسويقها.

من هم من جيلنا يذكرون حتمًا خطابًا لجمال عبد الناصر في أوائل الستينات، أكّد به أن في السفارة الأميركية في القاهرة فريقاً مختصاً يعمل على إنتاج النكات السياسية المعادية له ولنظامه، وبثّها في أوساط الجماهير المصرية.

والظرف السياسي لا يقتصر على النكتة السياسية بل يتعداها إلى الأدب الساخر، مرورًا بالمسرح السياسي الهزلي، والشعر الفكاهي، والكاريكاتور السياسي اللاذع، الذي كثيرًا ما يعبّر عن واقع معين، ويغني بالتالي عن مقال.

إلّا أن الكتابة في موضوع الظرف السياسي في الشرق العربي، ليست بالمهمة السهلة لأن الحس الدعابي هو موهبة حباها الله لبعض الناس، وحجبها عن البعض الآخر. أما كون الإنسان حاكمًا وموضوع دعابة أو انتقاد، ويتقبل هذه الدعابة مهما قست، فتلك لعمري من الحالات النادرة، إذا لم نضعها في خانة الغول والعنقاء والخلّ الوفي، أي رابع المستحيلات الثلاثة.

في الولايات المتحدة الأميركية، شاهدت أكثر من سيارة ألصقت بمؤخرتها عبارة «Carter Kiss My Gas»، ومعناها الحرفي «سيد كارتر... قبِّل البنزين». أما تورية، فإنها تعني عبارة نعتبرها نحن الشرقيين بذيئة ومعيبة، إذا استبدلت كلمة «Gas» بـ Ass. أما في فرنسا، فإن أنجح برنامج تلفزيوني يشاهده الملايين، هو بابت شو (Puppet Show) الذي يسخر من الحكام، بِمَنْ فيهم رئيس الدولة.

ليست الغاية من وضع هذا الكتاب، التسلية أو استدرار الضحك للقارئ والمتاعب للكاتب. فالنكات السياسية الواردة به ليست جديدة، وهي ليست بالتالي من تأليفنا، والنكتة تفقد الكثير من رونقها، إذا سُمعت للمرة الثانية، وتصبح تافهة في المرة الثالثة... ثم إن قراءة النكتة هي غير سماعها، ففي النكتة تعابير ولهجة وطريقة إلقاء، تحدد مجتمعة قوتها وصنفها إلى حد بعيد.

والنكتة كالخبر، اليوم بمليون، وغدًا بمليم، كما يقول إخواننا المصريون.

إن الغاية من وضع هذا الكتاب هي الدخول إلى عالم السخرية السياسية، من باب علمي وتحديد الأساليب دون إغفال الدوافع والأهداف والنتائج. ونادرًا ما عولج هذا الموضوع في العالم العربي، ربما خشية من انتقام مَن بيدهم سلطة والذين لا يقبلون المزاح، أو انسجامًا مع نصيحة الإمام علي بن أبي طالب، الذي قال: «لا تمازح الكريم فيحقد عليك، ولا الدنيء فيتجرأ عليك».

ونحن هنا لا نمازح أحدًا، إنما نحاول أن ننقل بكل أمانة ما تردّد على ألسنة الناس، محاولين تبويب الدعابة السياسية بأنواعها، من خلال تحليل أساليبها ودوافعها، ومدى انتشارها وتأثيرها. وإذا تركّز اهتمامنا على بعض دول المشرق العربي، دون غيرها، فلا يعني بالضرورة حصرها بها إلا أن سائر بلدان العرب، لا سيما الخليجية منها ودول المغرب العربي، كانت هزيلة الإنتاج في هذا الحقل... ولأن ما ترامى إلينا، وما عثرنا عليه من مصادر، كان أكثر غزارة في مناطق منها في مناطق أخرى. بالإضافة إلى أن الثقافة الشعبية في دول الهلال الخصيب، تختلف عنها في باقي أمصار العرب، رغم الفارق الواضح في كل دولة من ضمن المجموعة الواحدة، فيما يتعلق بنفسية الجماهير ومفهومها للنكتة وطريقة تعامل هذه الجماهير مع حكامها. ومصر التي تمثل حالة فريدة في حدّ ذاتها في مضمار الظرف، وبالتالي السياسي منه، لأسباب تتعلق بالتاريخ والبيئة، وطبيعة الشعب، فإنها تستأهل وحدها مجلدات تبحث في ظرف أهلها، وحبهم للنكتة والهزل.

لذلك نعتذر ممن أغفلنا ذكره من شعوب العرب، ومن الشعب المصري لكثرة ما تمّ التركيز عليه، ومن الحكّام الذين ورد ذكرهم، فناقل الكفر ليس بكافر في أي حال.

هشام جابر

بيروت في آب/ أغسطس 2008

لماذا هذا الكتاب؟

يقول الغربيون إن العرب لا يتصفون بروح النكتة وليس لهم أدب فكاهي أو ساخر أو مسرح كوميدي. لهذا هم يضعوننا في إطار سياسي كريه.

وفي هذا يقول الكاتب الغربي «مرديث» إن انعدام الكوميديا في الأدب العربي إنما يعكسه فصل المرأة واحتقار مكانتها عند العرب.. وعليه فإن إبراز الغرب لهذا الجانب من الشخصية العربية والتراث العربي بهذا الشكل المسيء إنما الهدف منه تشويه شخصية العربي، وإظهاره على أنه إنسان ذو شخصية مريضة معقدة ومتشائمة سمتها الخوف من كل شيء.

وفي ردٍ مبدئي على ادعاء كهذا أقول ـ إن إقدام صاحب قلم مثقف ومؤهل علميًا بأعلى درجات الاختصاص ويتمتع بشخصية قيادية قوية ذات خبرات عسكرية ودبلوماسية على الخوض في هذا الاختصاص القديم الجديد من الأدب الساخر و«النكتة المضحكة المنتقدة» إنما هو إقدام الفارس الجريء الواثق من نفسه.

وقد سبقه في ميدان الروح المرحة والنكتة والنقد الساخر شخصيات عسكرية عظيمة أمثال ـ الجنرال مونتغمري ونابليون ـ إنه العميد الركن الدكتور هشام جابر..

والسؤال الذي لا بد أن يطرح نفسه هنا هو: لماذا هذه الدراسة أو هذا النوع من الأدب؟ أو ما هي الغاية من وضع هذا الكتاب؟

إجابة نقول:

أولاً: تعريف الغربيين المهتمين بثروتنا الأدبية في ميدان الفكاهة والظرف بأننا أصحاب روح مرحة ونفسية خالية من العُقد. مع ما لهذا الجانب من فائدة في الميدان السياسي والإعلامي.

ثانيًا: تصحيح نظرة البعض منا الذي يعتبر الفكاهة والتندُّر والتعليق الساخر اللاذع مجرد مزاح وعبث ومضيعة للوقت. وهذه نظرة خاطئة... لماذا؟...

لأن الغربيين يعتبرون الفكاهة وروح النكتة جزءًا أساسيًا من الحضارة والفن والأدب، ودليلاً على النضوج وسماحة الخُلق والميل إلى السلام والقدرة على التفاهم العقلاني وبرهانًا على الثقة بالنفس.

ثالثًا: إن إبراز روح الفكاهة والنكتة السياسية الساخرة «قبل الاجتماعية» هو عمل مهم بسبب نظرة الاحتقار التي أخذ الغربيون ينظرون بها إلى أوضاعنا السائدة، والتصرفات البشعة والمزرية التي وقع فيها الكثير من ساستنا وقادة حركاتنا السياسية.

وبالإضافة إلى ما سبق فإنه من الضروري إشهاد العالم بأن هذه الأوضاع والتصرفات تلقى من الجماهير العربية نفس الاحتقار والتسخيف، وأن جماهير مجتمعاتنا تشارك جماهير العالم في إدانتها لها...

فهل هناك طريقة أفضل من التنكيت الذي مارسه أبناء هذه الأمة وأحرارها للدلالة على السخرية من هذه الأوضاع ومن المسؤولين عنها؟

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن مدى التضييق على التفكير والكتابة والقول الحر تحت طائلة الملاحقة القانونية (بأشكالها القمعية المختلفة) دفع بالكثير من الكتّاب إما إلى الابتعاد عن هذا الميدان «خوفًا» أو إلى كتابة ما يريدون بلغة أجنبية.. (وفي هذا تحايل والتفاف على القوانين الجائرة التي تطارد الكتّاب).. ومن جهة ثانية فبينما العالم كلّه يعمل على تجديد آلاته في كل الميادين، وآلة المثقف (الكاتب) «اللغة»، وللأسباب التي أشرنا إليها وغيرها نجد المثقف العربي من أصحاب القلم (إلّا القلّة) يعمل بالعكس. أي يعمل على تجميد هذه الآلة وتقليص قدراتها وإمكاناتها.

إننا نفهم منع استعمال الكلمات الأجنبية المستوردة «حفاظًا على لغتنا وثقافتنا وتراثنا».

أما ما لا نفهمه فهو منع استعمال كلمات عربية أصيلة استعملها أجدادنا في كل كتبهم القيّمة. فمثلاً ما العيب أو المانع من استعمال الكلمات الخاصة

بالأعضاء التناسلية أو النشاط الجنسي أو فضلات الجسم ونحو ذلك. . .

وقد أشار إلى ذلك «ابن قتيبة» فاستهجن مثل هذا التزمُّت وقال: «إن العيب ليس في ذكر هذه الأعضاء ـ التي ذُكر بعضها في القرآن ـ وإنما في أكل حقوق الناس والكذب عليهم» وإذا جاز لنا إضافة رأينا. . نقول:

«إن العيب في كبت الحريات وفي المتاجرة بالأوطان وقمع حرية الناس بأساليب وصيغ مختلفة».

هذا هو العيب. والسؤال هل أصبحت الصحف الرقيقة المليئة بالخيانة والدجل أشرف من القرآن الذي ذكر الأعضاء التي خلقها الله وذكرها مرارًا في كتابه الشريف؟ حاشا لله. .

إنما العيب والخطر يكمن في هذه القيود والسدود التي ستقتل لغتنا وتقتل الرغبة في الجمهور للقراءة. .

وقد حرصنا خلال دراستنا للأدب الساخر على أن نحصر بحثنا بالسياسي منه بالدرجة الأولى ثم الهزل أو التهكم وهما من أدوات السياسة والإدارة والقضاء على اعتبار أنهما من أدوات النظام الأكثر تماسًا مع الشعب واحتكاكًا به، أما الهزل غير الانتقادي الذي لا غاية له سوى الترفيه والإضحاك دون غاية اجتماعية أو سياسية كنوادر الشعراء والظرفاء والمغفلين الخ. . . فرغم أنه يشكِّل حيزًا كبيرًا في الأدب العربي إلّا أنه ليس من صلب دراستنا.

لذلك لن يستوقفنا إلّا لفترات وجيزة وسنمر عليه مرور الكرام بحيث إن التوقف عنده يتوقف على مغزى النادرة وتأثيرها على الرأي العام أو على اهتمامه بها في أضعف الإيمان.

إن عالم الأدب السياسي الساخر هو عالم واسع بلا ريب ففيه المقال الصحافي وفيه الخطاب السياسي وبه القصيدة الكلاسيكية العصماء والزجلية النادرة والمسرح الناقد الخ. . .

وهذا ما حاول المؤلف إلقاء الضوء عليه في هذا الكتاب.

والله ولي التوفيق

بيروت في آب/ أغسطس 2009

مصباح محجوب

الفصل الأول

الضحك بين الدعابة البريئة والسخرية المؤذية

مدخل إلى فلسفة الضحك

يمثِّل الهزل السياسي مرحلة راقية من المزاح، وهو ظاهرة حديثة النشوء في تاريخ الإنسان، ذلك أن الظُّرف بالذات إنما هو أدب متأخر النشأة سواء على مستواه الفردي أو على صعيده الجماعي. فالطفل يولد باكيًا ويستمر باكيًا لأتفه الأسباب وينبغي لوالديه أن ينتظرا طويلاً قبل أن يريا الابتسامة على ثغره.

لقد أورثتنا المجتمعات القديمة العديد من الملاحم والمراثي والأناشيد على اختلاف أنواعها. وحتى القرن الخامس قبل الميلاد لم يكن للملهاة والمهازل وجود.

وقد نُقل عن «أرسطاطاليس» أن «الميغاريين» نسبوا بدعة الملهاة إلى أنفسهم وذلك في عهد الديمقراطية. ولم يكن ذلك لمجرد بلاغة اللسان، بل لوجود ما يتطلبه الظُّرف من نقائض في المجتمع تغري بتغذية الحس الفكاهي.

وهذا «هنري برغسون» وهو أحد أكبر المفكرين البارزين في تحليل ظاهرة الضحك، فقد تتبَّع العديد من أسباب الضحك حتى انتهى فيها إلى مبدأين هما:

الصلابة، والاسترخاء. فهو يرى أن الحياة مرنة طيّعة، والهزل ينصب على ما هو صلب ومتكرر.

فعندما تتعرض الحياة والطبيعة لعبث آني يتهيأ لنا موضوع يستوفي شروط الدعابة، وهو حتى في تحليله للنكات اللغوية الشائعة (ومنها في اللغة العربية ثروة ضخمة) يردّها إلى القاعدة نفسها. فالحذلقة ليست في الأساس سوى فن يتكلَّف الزهو على الطبيعة.

متى تظهر «النكتة والعبارة الساخرة»؟

عندما يحفل المجتمع بالنقائض والمفارقات، وتتعقد شؤون الحياة تنشأ ظواهر تبدو وكأنها في غير مكانها ـ متنافرة مشوهة وبالتالي مثيرة للضحك.

فهربرت سبنسر ينسب الضحك في مقالة له عن «فسيولوجية الضحك» إلى تجمُّع من الطاقة العصبية ينشأ عنه تحرك عضلي، لكن عندما يتحوَّل الوعي من أمر خطير إلى آخر حقير تجد القوة العصبية الفائضة منفذًا لها في حركة الضحك العضلية (ويجوز التمثيل على ذلك بوضع جمهور من الناس يشهدون دكتاتوريًا يعثر في ارتقائه درجات المنصَّة ويسقط وهو يهم أن يصدعهم بخطاب آخر من تهويلاته).

إن ظاهرة اقتران الضحك بالطاقة ومهمته كمتنفس لطاقة فائضة قد ردَّها برغسون إلى ما لاحظه من أن للضحك أعراضًا تنجم عن جملة من التفاعلات الفسيولوجية. منها زيادة في إفراز الغدد الأدرينالية ـ تكاثر السكر في الدم، تسارع دقات القلب، تغيير في حركة التنفس، إعاقة للعمليات الهضمية، تبدل في مقاومة الجلد الكهربائية، تصبب العرق الخ. . . وقد بدا لبعضهم أن يحصي عضلات الوجه التي تنفعل بتأثير ضحكة واحدة فإذا هي خمس عشرة عضلة.

أما «كوستلر» فيقول في نظريته: التداعي الثنائي الذي تتولد عنه ظاهرة مضحكة عندما تنشأ فكرة أو حادثة عن مصدرين متعارضين. ويضرب على ذلك مثلاً من حادثة وقعت لأحد الأعيان في بلاط «لويس الرابع عشر»، إذ فوجئ برؤية زوجته بين ذراعي أحد الكهنة، فسار بخطى ثابتة إلى النافذة، ورفع يده مُباركًا من في الخارج، فصاحت به زوجته ماذا تعمل؟ فأجابها برباطة جأش «رأيت المحترم يمارس عملي، فمارست بدوري عمله».

أما الأديب والشاعر الفرنسي «كاتول مندس» فقد كتب في هذا الميدان يقول «إن الحيوانات تداولت يومًا فيما يمتاز عنها الإنسان، أو

تمتاز عليه. فلم تجد سوى الضحك».

فالحيوانات تشعر، وتصرخ، وتتألم، منها ما هو أدهى من الإنسان، وبعضها ينطق بكلمات وجميعها تتفاهم وتتواصل بحركة أو بإشارة، ولكن الضحك هو ميزة الإنسان.

وما قاله الحكماء والفلاسفة عن الضحك وفلسفته لا حدّ له ولا حصر.

وفي هذا الميدان كان لظرفاء العرب رأي في الضحك نقتطف منه رأي «الظريف أبي العبر» الذي يقول «لقد لجأوا إلى القلب كوسيلة عملية لإحداث المفاجأة» ولقد لفت الباحثون النظريون من العرب إلى ذلك فيما يعود إلى القرن العاشر.

أما أبو حيّان التوحيدي فقد ذكر عن الضحك من حيث هو «قدرة واقعة بين العقلانية والحيوانية. إن هذه القدرة تنشط في عملها عندما تغشى النفس حالة من الدهشة والاستغراب تدعوها إلى البحث عن أسباب ما يحدث».

ثم إن ابن المطران وهو من أطباء القرن الثاني عشر يشير في كتابه «بستان الأطباء» إلى أن الدهشة هي منشأ الضحك ينطلق عندما تغشى النفس غاشية الدهشة.

وحول النوادر والضحك قال هارون الرشيد: «إن النوادر تشحذ الأذهان، وتفتح الآذان».

في حين قال الأصمعي: «بالعلم وصلنا، وبالمُلح نلنا». أما الجاحظ فكان له عبارة مشهورة تقول: «الجد مبغضة، والمزاح محبة» والضحك يطهر النفس، ويملك مفتاح المزاج الهادئ، والفكر الواضح والنظرة المستنيرة إلى الحياة.

ويتابع.. ففي الفكاهة راحة للنفوس التي «إذا تعبت كلَّت».. ونشاط للخواطر «التي إذا سئمت ملَّت» كما يشير كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب».

فالضحكة الصادقة بلّور إنسانيتنا، والضحك عنوان الشعور،

والشعور عنوان الإنسانية «ولو أن الشيطان ضحك لما طُرد من حضرة الله» كما يؤكد الفيلسوف والأديب الساخر برنارد شو. فالتحالف مع الضحك، والاقتراب منه هو ابتعاد عن الأطباء والصيادلة. . ألم يقل أحمد أمين: لو أنصف الناس لاستغنوا عن ثلاثة أرباع ما في الصيدليات من أدوية. فالضحك هو علاج الطبيعة وضحكة واحدة خير من علبة أسبرين أو بنادول. ثم إن للضحكة فوائد جسدية ونفسية، فهي من جهة تجري الدماء في العروق المتعبة وتغسل النفس من همومها، معدَّة إياها لاستقبال الآتي ببشر وهدوء وقوة.

وحول هذه النقطة أضاف ابن المطران قائلاً بأن الدم الجيد يولد الفرح، والفرح يبعث الضحك، ولقد نسج أطباء العرب ومفكرو العصر الوسيط وكتّابه على هذا المنوال وتوسعوا في فضيلة الظُّرف وطبيعة الضحك العلاجية.

ولا بد لنا هنا من طرح سؤال مفاده: ما الذي تمثّله النكات والقفشات؟ إجابة نقول: إن النكات تمثّل ثورة على السلطة وتحررًا من نيرها، وهذا يعلل لنا توالي استخدامها ضد ذوي الوجاهة وأصحاب السلطان. فالنكتة بتعبير فرويد: «تتيح لنا استغلال ظاهرة مضحكة في خصمنا لا نقوى على كشفها جادين متعمدين لما يعترض سبيلنا من عقبات» فالنكتة تتفادى القيود، وتتخطى العقبات، وتفتح في وجهنا أبوابًا للبهجة كانت موصدة دوننا.

والضحك ظاهرة استعراضية، وبادرة شعبية، وهو مغاير للبكاء الذي هو شخصي وفردي. وفي هذا قال برغسون: (إن ضحكنا هو دائمًا ضحك الجماعة).

وفي هذا الميدان وتحت عنوان (بين الهزل والهزل السياسي) كتب خالد القشطيني[1] يقول:

> إن الهزل السياسي هو مرحلة راقية من المزاح، وظاهرة حديثة النشوء نسبيًا في تاريخ الإنسان وكلمة «حديثة» تعتبر نسبية ـ فالتاريخ

العربي لم يعرف هزلاً سياسيًا بالمعنى المألوف للكلمة في عصر الجاهلية أو في زمن الخلفاء الراشدين، إلّا أنه بدأ يظهر بشكل أو بآخر منذ زمن الأمويين، وبلغ حدًا ظاهرًا في زمن العباسيين. سيما في عهد الخليفة هارون الرشيد، فنوادر جحا ـ حتى ولو كان شخصية وهمية ـ، لا تخلو من انتقاد للحاكم، أو لأسلوب الحكم لديه. وهناك الكثير من النوادر التي رويت عن الخليفة هارون الرشيد ونديمه الشاعر «أبي نواس» والتي تظهر سعة صدر الخليفة أمام النكات اللاذعة للشاعر العباسي.

وهنا وحتى لا يُساء الفهم لا بد من الفصل بين الهزل بحد ذاته، وبين الهزل الذي يرتدي الطابع السياسي.

فالأول قديم قدم التاريخ. فالنبي محمد (ص) ربما كان الوحيد من الأنبياء ممن عرضت في سيرتهم بعض النوادر، والأحاديث الطريفة وهو أمر طبيعي في نبي في منتهى الذكاء، ورهافة الحس. فقد تميَّز بالهدوء والتسامح وسعة الصدر. وكان من شأنه المزاح البريء مع صحابته، وعامة الناس، يضحك للنادرة، ويوصي المؤمنين باستثمارها للترويح عن نفوسهم في قوله الكريم: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلّت عميت» وقد قال مرة باسمًا لامرأة من الأنصار: «الحقي زوجك ففي عينه بياض» فاندفعت المرأة إلى بيتها جزعة، لترى زوجها الذي قال لها في عين كل إنسان بياض... وحين التقى (ص) بامرأة عجوز، قال لها مازحًا: «إن العجائز لا يدخلن الجنة»، وكادت المرأة تموت حزنًا، إلى أن أردف قائلاً: «إن جميع النساء يعدن في الجنَّة إلى شبابهن» وذكرها بالآية الكريمة ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۞ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۞ عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾.
ويقول المؤرخون إن النبي العربي «كان في مناسبات كثيرة يضحك من كل قلبه وبكل جوارحه.. حتى تظهر ثناياه».

وموضوع الظُّرف في القرآن الكريم عالجه غير باحث «ففي آيات كثيرة نرى أن الضحك نعمة من نعم الله، وآية من آيات مصداقيته فضلاً عن كونه تعبيرًا تهكميًا».

وفي هذا روى «ابن قتيبة» أن النبي ضحك كثيراً لإحدى نوادر «نعمان المازح» عندما باعه بدوي رجلاً من الأحرار كعبد.

وفي رواية بريئة روي أن الرسول (ص) وقع هو في مقلب من مقالب «نعمان الأنصاري» عندما صادف هذا بدويًا يبيع جرة من العسل فاشتراها منه على أن يتسلم ثمنها عند تسليمها. ثم بعث بها هدية إلى الرسول (ص)، فسرَّ الرسول بوصولها، ووزع ما فيها على الصحابة كشأنه، ودعا لنعمان بالخير والبركة، وما أن انتهى من ذلك حتى طالبه البدوي بثمنها ـ فقال (ص) ـ (هذه إحدى هنات نعيمان) وتساءل من نعيمان عما فعل لدى ظهوره بين يديه فقال: «إنما أردت برَّك يا رسول الله ولم يكن معي شيء».

وفي الضحك قال الجاحظ في القرن التاسع إنه نعمة من نعم الله ولفت النظر إلى رضا الله تعالى عن الضحك مستشهدًا بالآية القرآنية: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[2].

أيضًا وضع الأديب العربي عباس محمود العقاد جدولاً بالآيات التي ورد فيها الضحك محبِّذًا، واقتبس منها على سبيل المثال شاهدًا برز فيه طابع الهزل هو الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا. . .﴾[3].

حتى الصحابة تجلى روح الظُّرف في العديد منهم. أبرزهم عثمان بن عفان حيث روي عن النبي أنه كرَّمه بطريقة فريدة إذ قال: (يدخل عثمان الجنّة ضاحكًا لأنه كان يضحكني).

أما كيف أضحكه؟ فربما كان مما روي من أن النبي رآه يأكل تمرًا وفي إحدى عينيه رمد، فصاح به.. أتأكل التمر وأنت أرمد؟ فأجاب عثمان: أنا آكله من الجانب الآخر..

ويتجلى حب العرب للهزل والدعابة في صور كثيرة منها اقتران المزاح بالطعام وغيره. وروي أن أشعب كان في موقع مميّز من حاشية الخليفة عثمان.

إشارة إلى أن العديد من الأسماء العربية المرادفة للظرف تتصل بمفاهيم الطعام وملحقاته (فالفكاهة من الفاكهة) ونقول نتفكّه بمعنى نمزح ونضحك، والملحة من الملح، والنادرة من الندرة، والنكتة من التمر، والهزل من الهزال، والظرف وعاء الطعام. إن مثل هذه المشاركة المتعددة الوجوه لا يمكن أن توجد على سبيل الاتفاق والصدفة.

ونحن حتى في الزمن الحاضر نرى الشعراء ينظمون المدائح والأحاجي في الملوك والحكام أملاً في إحراز المكاسب المادية والمعنوية. ورؤساء الدول من جانبهم يرون من اللائق والمناسب التأثير في الصحافة العامة والدول الكبرى بدعوة مراسل أو سياسي زائر إلى وليمة سخيَّة تُقام على شرفه (ولقد وجهت مآخذ كثيرة ساخرة إلى ما جرى عليه زعماء فلسطينيون من دعوة الصحافيين الأجانب والشخصيات الأكاديمية إلى مآدب مسرفة في السخاء من أجل أن يلفتوهم إلى ما يقاسيه الشعب الفلسطيني من ضائقة ومجاعة). وهنا تحضر مؤلف هذا الكتاب حادثة جرت أمامه وفيها يقول: كنت أقوم بواجب التعزية بطبيب شاب قضى فجأة بنوبة قلبية دون إنذار، وبرفقتي صديق حميم لي، وللضحك معًا، وقد طرحت أمامه سؤالاً على طبيب بالأمراض القلبية رفيق للفقيد، عن أسباب الذبحة القلبية. فعدَّد الأخير أسبابها، من الوراثة إلى الطعام إلى الكوليستيرول والتدخين... الخ. فتدخل صديقنا قائلاً: «كلّه من خيركم موجود» أي إن جميع الأسباب المؤدية إلى الموت متوفرة لديه. قالها ضاحكًا وأضحك الحاضرين، عندها قال له الطبيب لا تخشَ على نفسك، فأنت تضحك، وكل ضحكة تبعدك عن القبر ميلاً.

حقيقة إن شرّ البلية ما يضحك، فكيف إذا تحمَّل الضحك خيرها وشرها، فتلك لعمري مثالية نادرة.

والنكتة أيًّا كان نوعها، وشكلها، ومبعثها، ولونها، هي رديف

الضحكة وسببها، ومنها ما يعتمد الهزل، فينفس عن الكبت والهم. ومنها ما يعبِّر عن نقد جارح، ومنها ما يكون مديحًا، ومنها ما يسري في الناس أمثالاً سائرة تصلح لكل زمان ومكان، ومعظمها فيه متعة وفيه فائدة. ثم إن النكتة تحلّ العقد، وتزيل الحواجز، وتكسر الجليد. وكم من طرفة كانت سببًا للتخلص من مأزق سياسي، وأخرى كانت مفتاحًا لصفقة تجارية.

ومن النكات ما يترك آثارًا سلبية على رواتها ومردديها، خاصة إذا لم يتسع لها قلب سامعها. فالنكتة التي تتعرض للأعراض مرذولة ومرفوضة حتمًا ـ حتى من أخصام أهدافها، وهذه تسمى النكتة المؤذية، فلا بأس بالنكتة الساخرة، إذا أوجعت قليلاً، شرط أن لا تسيل دمًا.

والأدب الساخر قرين النكتة، ومنه المقروء، ومنه المسموع والمرئي على المسرح والسينما، وشاشات التلفزة، وتدخل ضمنه النكتة وأخواتها، وهي الدعابة والفكاهة والملحة النادرة.

والنكتة الناجحة تتطلب قدرة على التفكير، وبراعة في التعبير ومهارة في التصوير، ودقة في التوقيت، وإلّا جاءت تافهة.

ويقول العالم الشهير «سيغموند فرويد» إن الدعابة أو النكتة هي ضرب من القصد الشعوري والعملي، يلجأ إليه المرء في المجتمع ليعفي نفسه من أعباء الواجبات الثقيلة، ويتحلّل من الحرج الذي يوقعه فيه الجد، ومتطلبات العمل.

والشعب المصري، ميَّال إلى النكتة بطبيعته، وقد حباه الله بمقدرة على حفظها وروايتها، وأكثر فئاته مقدرة على الهزل أكثرها فقرًا.

وقد سألت مرة أحد المصريين البسطاء لماذا تنكِّت؟ فجاء جوابه العفوي «من الغلب يا بيه».

وليس الغلب أو الفقر وحده سببًا لاعتماد الدعابة، أو رواية النكتة، فمن الناس من يروي النكتة بهدف إضحاك نفسه، من خلال نجاحه بإضحاك الآخرين.

كان لي صديق مصري، شغل منصب سفير بلاده في بيروت لفترة ليست ببعيدة، فكان يتصل بي أحيانًا في ساعة متأخرة ليلاً ليروي لي نكتة سياسية أو اجتماعية وصلته للتو، ولم يشأ انتظار المناسبة التي يمكن أن لا تأتي لروايتها.

وقد لاحظت خلال دراستي في الولايات المتحدة، وفي كلية الأركان بالتحديد، أن كبار المحاضرين العسكريين يبدأون محاضراتهم برواية حادثة طريفة أو «نكتة عسكرية» لكسر الجليد بينهم وبين الجمهور (Audience).

ومنها ما بدأ به قائد قوات التدخل السريع، وهو من كبار قادة الجيش الأميركي محاضرة عن مهمات قواته، وتأليفها، عندما ذكر أن عقيدًا أميركيًا من القوات الخاصة، كان يعاقب ضباطه في أدغال فيتنام بطريقته الخاصة. . دون التقيد بالعقوبات التقليدية. . فعمد لمعاقبة أحد الملازمين بأن وضعه أمام ثلاث خيم في الغابة، قائلاً له ـ في الخيمة الأولى هنالك غالون ويسكي عليك شربه خلال خمس دقائق ـ في الخيمة الثانية نمر لديه ضرس تؤلمه عليك قلعها ـ في الخيمة الثالثة هنالك فتاة جميلة إنما تلعب الكاراتيه، عليك اغتصابها.

دخل الملازم الخيمة الأولى، وخرج منها بعد خمس دقائق مترنحًا ليدخل الثانية حيث بقي حوالى نصف ساعة، ليخرج منها مهشمًا وداميًا ليسأل رئيسه، سيدي أين هي الفتاة التي علي أن أقلع ضرسها؟ فكان أن ضحك الجميع وبدأت المحاضرة براحة، وذهن متفتح وعادت الجدية إلى نفوس فرحة.

الضحكة والسلامة الصحية

والضحكة هي نكهة الحياة، وفوائدها السيكولوجية والفسيولوجية أكثر من أن تعد. وتطالعنا الصحف كل يوم بمقالة عن فوائد الضحك ومنها على سبيل المثال لا الحصر، ما اكتشفه طبيب الأطفال الألماني «جيواكيم غاردمان» الذي أضاف إلى كل وصفة طبية ملحوظة للآباء

والأمهات، بأن لا يكفّوا عن الضحك والمرح مع أبنائهم لفائدة الفريقين معًا. وهو يقول:

من الضروري أن نشجع على الضحك والسعادة، فهما من أهم الموارد التي يستقي منها الإنسان الصحة الطيبة[4]. وقد أوردت وكالة الأخبار العالمية (د. ب. أ) بتاريخ 14 حزيران/ يونيو من العام 2000، أن الفوائد الجمة التي يمكن جنيها من الفكاهة والمرح، سواء فيما يخص علاج المشكلات الصحية الخطرة أو غيره كانت موضوع فيلم «باتشن آدامز» الذي قام بدور البطولة فيه «روبين ويليامز» حيث مثّل شخصية طبيب يرتدي ثياب المهرجين من أجل الترفيه عن الأطفال المرضى، والإسهام في علاجهم.

ويسعى العلماء لمعرفة ما للضحك من تأثير في الجهازين العصبي والمناعي الدفاعي في الأطفال ـ وهو ما يمكن معرفته من خلال فحص مستوى هورمون الكورتيزول، مؤشر التوتر في الدم، فضلاً عن قياس النبض وضغط الدم، كل هذا قبل مشاهدة تلك الأفلام وبعدها. ومن مؤيدي الفكرة أيضًا البروفيسور «رالف هيرش» أخصائي أمراض الشيخوخة في بون الذي بدأ بالفعل منذ أعوام في تنظيم جلسات علاج بالضحك، وينصح زملاءه بتزويد غرف الانتظار في عياداتهم بالكتب والمجلات الفكاهية، بدلاً من مجلات الأزياء وغيرها من المجلات التي تدعو إلى التفكير. وبعدما أمضى حياته يجري الأبحاث حول الأصول السلوكية الجدية حوَّل الدكتور «روبرت بروفاين» انتباهه إلى الضحك، وها هو اليوم يجول الولايات المتحدة محاضرًا عما يصفه بـ«التعبير الاجتماعي الذي يربط الأشخاص بعضهم ببعض، وهو اللغة السرية التي نتقنها جميعًا ـ نتعلم هذه اللغة من خلال تعاطينا مع الآخرين، بل هي راسخة في جيناتنا ونستعملها غريزيًا».

وقد استعان الدكتور بروفاين بـ 1200 طالب وطالبة ليراقبوا معه الناس الذين يضحكون. ويربط الدكتور بين الضحك والسلامة الصحية. فوجد أنه: يخلصنا من كبتنا ويخفف الضغوط التي نتعرض لها يوميًا،

ويبعدنا عن المسكنات التي تخدرنا، ولا تحلّ مشكلاتنا.

صحيح أن ما جرى من أبحاث رصينة تبرهن أن الضحك يبعدنا علميًا عن الألم، إلا أنه لا يضر بنا في أي حال. وفي الأبحاث أنه يساعد النساء على تخفيف أوزانهن تمامًا، لو كن يمارسن الرياضة بانتظام.

وفيما يتعلق بالمصابين بالأمراض العصبية، فإن الذين يشاهدون برامج تلفزيونية مضحكة لا يتناولون الحبوب المسكنة بكميات كبيرة عكس الذين يدمنون الدراما.

ويذهب «بروفاين» في أبحاثه بعيدًا، مؤكدًا أن الضحك يخرجنا من وحدتنا، بحيث يجذب الأشخاص نحونا ويكثر فرص لقائنا بالشريك المناسب، لأن الذين يضحكون باستمرار، هم بطبيعة الحال أشخاص متفائلون؟ ويحاولون تخطي الحواجز والخيبات[5].

والواقع هو أن الضحك، المرح، الفكاهة، النكتة، الكوميديا كلها وصف لمعانٍ من الطبيعة البشرية التي تحاول الهرب من الجدية والصرامة والعبوس والحزن.

ويُقال إنه كلما ضحك الإنسان يضيف مدة إلى عمره. وقد فسَّر العالم الهندي «جوبا لاسوامي» الضحك بأنه مظهر لبعض الغرائز الدفاعية عن النفس. وقد أقرَّ هذه النظرية من بعده «سبنسر» كما علّلها من بعدهما علم النفس الحديث بالقول: «إن الضاحك يحاول أن يدافع عن نفسه بهذه الأصوات التي يحدثها ليدخل في روع غريمه أنه كفء له، وقادر على التفوق عليه». فالضحك درع يحتمي به الضاحك أحيانًا. وكم من نكتة بارعة أحالت جوًا من العداء إلى مجلس ودِّي.

أما موقف الأديان من الدعابة والضحك، ففيه الكثير من الإيجابية، ففي التوراة، وحيث كلمة الضحك في العبرية «سوحيك» جاء عن إبراهيم سيد الأنبياء «أنه خرَّ على وجهه وضحك» أما النبي (ص) فقد روي أنه قال «دخل نعيمان الجنَّة ضاحكًا لأنه كان يضحكني» وقال أيضاً «لا خير فيمن لا يَطرب ولا يُطرب».

وخلاصة القول ـ فإن الضحك هو نعمة من السماء، وهو من معدن

الخير، وهو سحر خفي يسبغ على الحياة مسحة من الجمال، والغنى الروحي ـ فهل يمكن تصور عالمٍ لا ابتسامة به ولا ضحكة، أو حياة لا دعابة بها ولا مرح؟.

الظرف السياسي في تاريخنا المعاصر

صعوبة تأريخ الظُّرف السياسي

ونحن نخوض في هذا البحث لا بد لنا من الإشارة إلى أن مؤرخ الظُّرف السياسي هو ذاته ظريف مُحرج ومُكبّل.

أما أهم الصعوبات التي يواجهها فهي الظفر بالمواد المطلوبة له خاصة وأن الظُّرف السياسي ـ حقل جديد نسبيًا ـ من حقول البحث قلَّما فطن له الكتَّاب العرب.

والظفر بمادة كافية له تصلح للتقييم والتحليل يفرض على الباحث القيام بغربلة مجموع ضخم من النكات والنوادر والحكايات والأشعار التهكميَّة المنثورة في كثير من المؤلفات.

إشارة إلى أن النكات والدعابات مجهولة وقت الولادة ولا يملك راويها إلّا استحضارها من الذاكرة في موقف معين، لذلك هي خاضعة للتغيير المعتاد الذي يصيب الأدب المنقول شفهيًا في تحوّله من محدِّث إلى آخر..

ذلك أن الرواة كلّاً منهم تبعًا لكفاءته وزمانه ـ يروون ما وصل إليهم على هواهم وكيفما يحلو لهم. ومن مشاهير العرب شخصيات مثل: جحا، وأبي نواس، وأشعب وغيرهم.

ولأن إرجاع النكتة (النادرة) إلى مُطلقها وروايتها بنصها الأول أمر صعب بل في منتهى الصعوبة إن لم يكن مستحيلاً، سواء كان هدف النكتة اجتماعيًا أو دينيًا (كما هو عند اليهود)[6] أو غير ذلك وجدنا أن

هذا الوضع أكثر شيوعًا في عالم السياسة حيث يكثر إقدام أمّة على استعارة الفكاهة من أمة أخرى، أو تعمد إلى نقلها من مناسبة إلى سواها. أما توثيقها فمهمة تكاد تكون مستحيلة.

ولا بد من الإشارة إلى أننا ونحن ننقّب ونبحث وجدنا أن الكثير من الفكاهات السياسية مصدرها الغرب، وأن العرب اقتبسوها في فترة الثلاثينيات والأربعينيات من شعوب أوروبا الغربية. في حين جاء اقتباسهم في السبعينيات والثمانينيات من دول أوروبا الشرقية وهذا يعكس نفور شعوب المنطقة العربية من السياسة الاشتراكية التي تمّ استيرادها.

أخيرًا وليس آخرًا فإن نوع الفكاهة التي يرويها رجل ما... دليل صالح على أخلاقه ومزاجه وظروفه الخاصة. وهذا الواقع الفردي يصدق كذلك بالنسبة إلى الأمة جمعاء.

إن المؤلف في مثل هذا الموضوع مهما أكثر من القراءة والتحري لا بد من أن ينطلق أصلاً من تجربته الخاصة ومعارفه الشخصية.

ومع ذلك فإن للظرف السياسي في عالمنا العربي تاريخًا.

الظرف السياسي العربي ـ «لمحة تاريخية»

إن في تاريخ العرب ثروة كبيرة، إذا لم نقل تخمة في مجال الأدب الدعابي، والمكتبة العربية مليئة بكتب النوادر ـ من نوادر الأطباء إلى نوادر المغفلين، مرورًا بنوادر القضاة وغيرهم، في الأزمنة الغابرة امتدادًا حتى عصرنا الحاضر.

إن حاجة الإنسان إلى التفريج عن كربه جعلته ينشد البسمة، والضحكة، ويسعى إلى الملحة أينما وجدت. وكما يقول الأديب اللبناني الراحل رئيف خوري: ما أدري هل عرف الأدب زمانًا لم تكن فيه النوادر والملح والطرائف فلذًا من صميم الأدب وجوهره[7].

فهنالك كتب في جميع اللغات الحية تهتم بالطرفة والفكاهة، كما أن هنالك صحفاً متخصصة في مجال الهزل، وأخرى تفرد له أبوابًا وزوايا. وكما اشتهر «برنارد شو» الفيلسوف الإنكليزي بالأدب الساخر،

عرفت العربية العشرات بل المئات من الأدباء الساخرين، وكتَّاب النكتة، والمسرح الفكاهي.

فمن الحصري القيرواني واضع كتاب «جمع الجواهر في الملح والنوادر» إلى «عبد الملك الثعالبي» و«المرزباني محمد» واضع كتاب «المستظرف». ثم كتاب «الفاشوش في حكم قراقوش» لابن مماتي.

وقد وضع ابن النديم في الظرف والأدب الإبداعي كتابًا سماه (الفهرست)، كما حمل لنا التراث «العقد الفريد» لابن عبد ربه، وكتاب «الأغاني» للأصفهاني و«نهاية الأرب» للنويري، و«المحاسن والمساوئ» للبيهقي، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة، وفي القرن الثاني عشر وضع ابن الجوزي كتابه «أخبار الظرفاء والمتحامقين»، وكتاب «أخبار الحمقى والمغفلين» دافع فيها عن فضائل الظرف.

كذلك ألّف علي الحاكمي كتاب «الفكاهة والدعابة»، وجمع أبو زيد الأنصاري كتاب «النوادر». أما النيسابوري فوضع كتابًا بعنوان «عقلاء المجانين»، وتلاه بعد حين «الأبشيهي» بكتاب ممتع هو «المستطرف في كل فن مستظرف»، واستمرت حركة التأليف في هذا الحقل عبر الزمن إلى الوقت الحاضر. وعبرت المتوسط إلى أوروبا حيث وضعت بالألمانية سنة 1911 بقلم «وسلسكي». وأخرى بالفرنسية سنة 1924 بقلم «ر. باسيه» ونقل روزنتال نكات أشعب «الأكثر شهرة بين ظرفاء العرب» إلى الإنكليزية. أما أبو دلامة الفكه، وأبو نواس الشاعر المتهتك، وجحا، ومزيد وغيرهم فقد دخلت أخبارهم كل بيت، وجرت أسماؤهم على كل لسان، ويذكر المؤرخون أن هارون الرشيد كان دائمًا يصطحب معه مهرجه الخاص «أبا صدقة».

ما جئنا على ذكره يؤكد أن الفكاهة كانت ولا تزال سلطة أدبية رائجة على مدى الأزمنة والعصور. وقد اشتهر عند العرب في هذا الحقل كثيرون انطلاقًا من الجاحظ، وأبو دلامة وأشعب وصولاً إلى حافظ إبراهيم وعشرات غيره في مصر، وسلام الراسي، ورياض حنين، ومحمد قره علي في لبنان، وغيرهم ممن سيرد ذكرهم في سياق هذا المؤلف.

إلا أنه مع كثرة الأدب الدعابي وتخمته، لم يصلنا من الظُّرف السياسي إلّا النذر القليل. فمن بين مائة ملحة أو نكتة اجتماعية أو أدبية، لا نجد سوى بضع منها تدخل في باب السياسة أو تكتفي بطرقه دون دخوله. وهو في رأينا أمر طبيعي متى اعتبرنا الطابع الاستبدادي الذي اتصفت به العصور الوسطى.

أما إذا أخذنا بعين الاعتبار الشعر الهجائي، الذي تناول بعض الحكام عبر التاريخ بعبارات جارحة، كهجاء المتنبي لكافور الإخشيدي:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه   إن العبيد لأنجاس مناكيدُ

فإن هذا النوع من الشعر، رغم كونه من عيون الأدب، إلا أنه لا يمكن اعتباره أدبًا ساخرًا. أو ما جاء على لسان الشاعر «أبو دلامة» الذي حُشر يومًا في بلاط الخليفة المهدي، فخاف أن يهجو أحدًا من المدعوين، ولم يكن من مفرّ لهجاء أحد، وإلّا قطع الخليفة رأسه، فهجا نفسه قائلاً:

ألا أبلغ إليك أبا دلامة   فليس من الكرام ولا الكرامه
إذا لبس العمامة كان قردًا   وخنزيرًا إذا نزع العمامه
جمعت دمامة وجمعت لؤمًا   كذاك اللؤم تتبعه الرمامه[8]
فإن تك قد أصبت نعيم دنيا   فلا تفرح فقد دنت القيامه

وقد حرص العرب خلال العصر الوسيط على إبدال اسم الخليفة أو أمير المؤمنين باسم السلطان أو الملك دون تسميته، وذلك في معرض انتقاده أو السخرية من حكمه. ومن الأمثلة على ذلك مروان، آخر خلفاء بني أمية الذي لُقِّب بـ «الحمار»، وذاك الذي نُعت بالأسد (عمر المختار) ونابليون الذي نُعت «بالنسر».

كما عمد بعضهم وعلى سبيل التورية إلى نسبة حكاياتهم الساخرة

إلى حكام غرباء، كملوك الفرس مثلاً. إلّا أن القاصي والداني لم يجهلا أن الراوي يقصد بسخريته الخليفة دون غيره.

وفي أوج الامبراطورية الإسلامية، وبعد أن امتدت من إسبانيا إلى الصين شرقًا، وأصبحت السلطة المركزية سلطة اسمية ممثلة بالخليفة «ظل الله على الأرض»، بينما السلطة الفعلية خاصة في الولايات البعيدة من مقر الخلافة، أمست في يد الولاة والقضاة، الذين أصبح فسادهم مصدرًا لأخبار الظرفاء، ويروي الأديب خالد قشطيني[9] بعضًا منها، فيقول:

إن فساد الولاة والقضاة، وحيلهم الواسعة في ابتزاز أموال المواطنين، ظل لوقت طويل، موردًا غزيرًا لظرف الظُّرفاء. قيل إن وفدًا مؤلفًا من طوائف عدة جاء إلى البحرين لتهنئة والٍ جديد عُيِّن عليه، كما جرت العادة. فسأل الوالي جماعة اليهود فيه:

□ ماذا فعلتم بعيسى ابن مريم؟

ـ صلبناه.

□ والله لأزجنّكم في السجن حتى تدفعوا ديَّته!

وفي رواية أخرى، أن الوالي الجديد، عندما استقبل الوفد أمر بإحضار عنزة، وسأل إمام المسلمين:

ـ ما رأيك بهذا الحيوان؟

□ حقًا إنها عنزة جميلة، يا سيدي.

ـ تقول عنزة؟ أنت تحط من مقام الوالي فتدعو غزاله عنزة؟ عليك والله أن تدفع ألف دينار جزاءً، وإلّا أرسلنا بك إلى السجن!

وفي اليوم التالي، كان دور النصارى، فتذكّر مطرانهم ما حلَّ بإمام المسلمين، فأجاب الوالي، عندما كرر عليه السؤال:

ـ حقًا يا سيدي، إن هذا الغزال لمنقطع النظير بجماله!

□ تقول إنها غزال؟ هل تظن أنني أبله فتسمي عنزتي غزالاً؟ والكل يرى أنها مجرد عنزة، والله لتدفعنَّ ألف دينار أو ألقي بك في السجن!

وفي اليوم الثالث تذكّر حاخام اليهود ما حلَّ بمطران النصارى وقبله بإمام المسلمين، وأجاب عندما كرر عليه السؤال:

- إنه يا سيدي لا عنزة ولا غزال، بل وحش ضارٍ لا يهدأ إلا متى أطعمته هذا، وأخرج من جرابه صرَّة من الذهب، ودفع بها إليه بلا مزيد من الكلام، فقال له عندما تسلمها:

□ أنت رجل حكيم للغاية، وسأعمل دائمًا بمشورتك!

وأكثر ما كانت مثل هذه النوادر انتشارًا في ظل الحكم العثماني، إذ غدت مصدرًا مغريًا للنقد السياسي والأخلاقي، لا سيما بعد انسلاخ الأقطار العربية عنه.

قيل إن تاجرًا يهوديًا بصق في وجه عميل له مسلم، فشكاه هذا إلى قاضٍ تركي، مدعيًا أنه أغرق وجه مسلم، وأطفأ نور الإسلام المنبعث منه. فقال اليهودي:

- لدي فرمان من السلطان بالبصق في وجهه.

□ كيف ذلك؟ أرني إياه.

فناول التاجر القاضي ملفًا، ضمنه حوالة مالية كبيرة. فالتفت القاضي إلى العميل وقال له:

- صدق التاجر يا عزيزي، فهذا الفرمان يخوِّله أن يبصق ليس في وجهك فقط، بل في وجهي أنا، وفي وجه السلطان أيضًا.

وضرب بالمطرقة على الطاولة وقال: أُقفلت القضية.

وفي بلاط كل خليفة، وفي ديوان كل أمير أو وال، كان هنالك رجل أو أكثر يسمى «الضحّاك»، مهمة هذا الرجل إضحاك الحاكم برواية حكايات تخصص في سردها. (هارون الرشيد والضحاك أبو صدقة).. تلعب على تناقضات المجتمع، وتسخر من خصوم هذا الحاكم في حالات نادرة، تداعب هذا الحاكم مداعبات تتسع وتضيق قياسًا على سعة صدره.

في هذا جاء في كتب الأدب أن وفدًا من الكوفة، جاء الخليفة المأمون ملتمسًا عزل والي المدينة، الذي عاث فيها فسادًا وأفقر أهلها، ولكن أمير المؤمنين رفض مطالبهم، وأكد استقامة الوالي وعدله، وأسهب في الثناء عليه، عندها قال رئيس الوفد:

ـ ما دام هذا الوالي نعمة من السماء، فلماذا نستأثر به نحن دون غيرنا!

إن هذه الرواية إن صحَّت، تمثل سخرية مباشرة من أعلى سلطة في الإمبراطورية الإسلامية. ولم يردنا ما كان ردّ الخليفة عليها.

إن نوادر الأمراء والسخرية منهم في عصور الخلافة الإسلامية، لم تكن في مستوى الجرأة الذي بلغته في عصرنا الحاضر، وما ورد منها نسب إلى مجانين وبسطاء لا يعون نتيجة زلَّة لسانهم، مما جعل هؤلاء الأمراء والحكَّام يغفلون عن عقاب هؤلاء.

ففي وقت كانت الرؤوس تتطاير فيه لأقل هفوة، والسيَّاف جاهز مع سيفه ينتظر الإشارة، وحيث كان الخازوق والبقاء عليه لمدة تطول أو تقصر طبقًا لمزاج الحاكم وسقطة الجاني.

وعلى سيرة الخازوق، قيل إن حاكمًا في بغداد في العصر الوسيط، نصب عدَّة خوازيق، كان يستمتع برؤية المحكومين يتعذبون فوقها، وإن أحد هؤلاء كان كلما وضع على خازوق، يطلب نقله إلى خازوق آخر، ولو كان أكبر. ولمَّا سأله الحاكم عن سبب ذلك؟ أجاب: هكذا يتسنى لي الراحة قليلاً بين الواحد والآخر...

وفي معرض العفو عند استظراف الدعابة، يروى أن الحجاج بن يوسف الثقفي، ذهب إلى الصيد مع حاشيته وتاه عنها.. حتى التقى بدويًا ينظر إليه... فقال له الحجاج:

□ هل تعلم من أنا...؟ فقال الرجل:

إنك أقبح رجل رأيته في حياتي، وتابع البدوي منتقيًا أقسى العبارات من قاموس الشتائم، فقال له الحجاج:

□ ويحك، هل تعلم من أنا؟.. أنا الحجاج.. فقال الرجل:

ـ وهل تعلم من أنا؟ قال الحجاج: من أنت؟ فقال الرجل: أنا مجنون بني عجيل، وتمر بي فترة كل يوم أرى بها الأمور معاكسة. فضحك الحجاج لسرعة بديهته وطرافة قوله وعفا عنه.

وفي رواية أخرى، أن معاوية بن مروان شقيق الخليفة عبد الملك

وكان معروفًا بالبله والبساطة، سأل مرَّة طحانًا عن سبب وجود الجرس في عنق الحمار، فأجابه إذا توقف الحمار عن السير، توقف الحجر، وبالتالي الجرس، عندها أنتبه وأحثُّ الحمار على السير. . فسأل الأمير، وماذا إذا توقف الحمار وحرَّك رأسه فقط؟

فأجاب الرجل: وهل للحمار عقلٌ كعقلكم يا مولاي؟. . .

ويروي الأبشيهي في كتابه «المستظرف» أن الخليفة العباسي المهدي، تاه مرَّة عن صحبه في رحلة صيد، فاستضافه أعرابي وقدم له خبزًا ولبنًا وخمرًا، ولم يشأ الخليفة أن يُعلن عن هويته مباشرة، فقال للرجل بعد أن شرب الكأس الأولى، أعرِّفك بنفسي، أنا خادم أمير المؤمنين، فقال له الرجل: بارك الله بك. ثم عاد وسأل الأعرابي، بعد الكأس الثانية، هل عرفت من أنا؟. . فقال الرجل: لقد ذكرت أنك خادم أمير المؤمنين، فقال: لا إنني قائد جيشه، وهكذا حتى أعلن عن نفسه بعد الكأس الثالثة.

فما كان من الأعرابي إلّا أن تناول الكأس ورماها بعيدًا وهو يقول له: والله لو شربت الكأس الرابعة لقلت إنك رسول الله، فكفى إلى هذا الحد.

هذه بعض الطرائف المتعلقة بحكَّام تلك العصور أوردناها على سبيل المثال لا الحصر، ورغم أنها لا تحوي أي مدلول انتقادي، إلّا أنها تبقى ضمن إطار السخرية ممَّن كان في قمة السلطة في تلك الأزمنة.

وفي المكتبة العربية غير مؤلف، يُعنى بالقصائد التهكمية التي تتطرق إلى الصفات السلبية لبعض الخلفاء والحكام مباشرة أو تورية. ومن هؤلاء كتاب «البخلاء» للجاحظ الذي تعرَّض لبخل الخليفة، أبي جعفر المنصور تورية، من خلال سخريته من مشاهير البخلاء. وفي هذا المجال يُذكر ابن المقفع الذي استبدل الرعية بحيوانات الغابة والخليفة بالأسد ملك الوحوش، وكان كتابه «كليلة ودمنة» درَّة في الأدب العربي، وتُرجم إلى لغات عدّة، وكان ابن المقفع قد أخذه أصلاً عن

كتاب باللغة الفارسية، وهو مليء بالحكم والأقوال التي لا تقف عند حدود زمان أو مكان. ومنها حكمة أتت على لسان «كليلة» وهو ثعلب أخ «دمنة» حيث يقول: ثلاثة أمور لا يقوم بها إلّا الأحمق، وهي:

«صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة». ورغم أن ابن المقفع قد حرص على التورية التامة في اعتماد الحيوانات مكان رجال البلاط السياسي، فإن الخليفة المنصور غضب منه وأمر بقتله.

وقراقوش القائد التركي في جيش صلاح الدين الأيوبي، هو أشهر من أن يُعرَّف، فمن حينه إلى يومنا هذا، يشبِّه الناس أي حكم ظالم أو غريب الأطوار بحكم قراقوش.

فقد اجتمعت في شخصية هذا القائد الأعجمي، مجموعة تناقضات منها: القساوة، والعدل، والذكاء، والبله، وغرابة الأطوار خاصة. وقد نسج حوله الكثير من النوادر، ليس هنالك دلائل حسيَّة على صحتها. غير أن كتاب «الفافوش في حكم قراقوش» لابن مماتي الذي يختص بنوادره يعتبر كتابًا بارزًا في الأدب العربي الساخر ومنها على سبيل المثال. . .

إن رجلاً شكا له أن رجلين قاما بحلق لحيته عنوة، فأمر بحبسهما حتى تعود لحية الرجل إلى ما كانت عليه. وأخرى أن بيتًا هبط على ساكنه، فمات، فأمر بجلب البنَّاء، وعمل على إسقاط منزله على رأسه ليموت بنفس الطريقة. ومن أطرفها، أن جنديًا ضرب امرأة على بطنها، وكانت حاملاً، فأجهضت في شهرها السابع، فأمر القائد الجندي بمضاجعة المرأة حتى تحمل ويبلغ جنينها شهره السابع. إلّا أن أبرز شخصية هزلية في العصور الوسطى، كان بلا ريب «جحا». وسواء كان جحا شخصية حقيقية، أو شخصية وهمية، أو عدة شخصيات حقيقية إنما مغمورة، توالت خلال العصور الباقية برمتها، فإنه «شخصية شعبية» عبَّرت عن مشاعر الناس وأفكارهم في مدى واسع من البلدان، التي تشابهت بأحوالها ومراحل تاريخها[10].

وقد أُضيفت إلى شخصية جحا مع مرور الزمن، نوادر مماثلة في قوميات أخرى، اعتنقت الإسلام، والتحقت بأهل دعوته، فوضع لذلك في فترات متباينة من التاريخ، ففيما تجعل المصادر العربية وفاته عام 160 للهجرة، فإن الأتراك يؤخرونها إلى القرن الثامن للهجرة.

لقد لعب جحا دور الأحمق وتظاهر بالبلاهة التي لا تنقصها الوقاحة ومنها حكايته مع الفاتح «تيمورلنك» حيث رافقه إلى الحمام، وكان الأخير عاريًا إلا من قلادة معدنية في رقبته، وحيث سأل جحا، كم تقدر أنني أساوي في هذه البلاد، فأجاب الأخير إنك بالكاد تساوي ألف دينار، فقال الفاتح، ويحك، إن قلادتي وحدها تساوي هذا المبلغ، فأكد جحا أنه يعلم ذلك، وعليه بنى تقديره.

إن نوادر جحا أصبحت مصدر إلهام في السياسة المعاصرة، وكثير من السياسيين المعاصرين، يتندرون بها في مجالات المقارنة، وفي خلافاتهم مع خصومهم، ومنهم في خطابهم السياسي، لما للحكايات الشعبية والأمثلة الناتجة عنها، من تأثير على الجماهير الشعبية وقناعاتها السياسية.

وحكاية «جحا» مع الملك الذي طلب من معلمي المملكة أن يتعلم حماره القراءة والكتابة، واعتذروا جميعًا لاستحالة ذلك، وحيث لاقى كل منهم عقابًا قاسيًا، وحيث تقدم جحا معلنًا استعداده لتعليم الحمار لغات أجنبية، إضافة إلى القراءة والكتابة، شرط إعطائه مهلة عشرين سنة، فوافق الملك، الذي أنذره بقطع رأسه في نهاية المهلة.. ولما سأله رفاقه عن خطورة التزامه بأمر مستحيل، أجاب: من الآن إلى حينه، سيموت واحد من ثلاثة، الملك أو أنا أو الحمار.

إن هذه الرواية تعتبر محطة في الأدب السياسي الساخر، فكم من حاكم اعتبر نفسه أزلياً سرمدياً، وتناول الناس معه، ومع أدواته على هذا الأساس.

وتكاد تكون كل نادرة من نوادر «جحا» نموذجًا لظُرف، يهدف إلى تصحيح خلل اجتماعي أو تقويم تصرف سيّئ. وقد استمر التشبه بها على مرّ العصور مع تغيير الزمان والمكان والحاكم المعني.

وكثر الاستنباط والتحريف أو ما يسميه البعض بالعصرنة، وقد كثرت هذه النوادر في المرحلة الأخيرة من عمر الامبراطورية العثمانية لما اعترى الإدارة من فساد أولد ظلمًا في البلاد العربية الخاضعة لحكم «مولانا السلطان»، فكان الناس يهمسون بها في المقاهي ومجالسهم الخاصة، ولم تكن النكات تُروى مجردة أو متعددة «الأبطال» كأيامنا هذه، بل كان جحا بطل معظم هذه الروايات. والملاحظ هنا أن السلطان الذي كان يعني الخليفة في العصور الوسيطة تورية، استبدل بالملك أيام العثمانيين، فلم يعد هنالك أي ذكر للسلاطين مباشرة.

الأثر التصحيحي أو التدميري للدعابة السياسية

أجمع الكثير من الباحثين في هذا الميدان أن للدعابة السياسية (النكتة السياسية الناقدة) أثرًا تصحيحيًا بقدرٍ ما.

فهو يوحّد الرأي العام تجاه قضية ما من جهة وبالتالي يثيره، ويلفت الحاكم إلى أخطاء في ممارسات حكمه، لا يجرؤ على ذكرها له المستشارون. وفي هذا المجال كشف أحد سفراء مصر في فرنسا عن حرص الرئيس جمال عبد الناصر، ومن بعده الرئيس السادات على سماع آخر النكات التي تتناوله شخصيًا، أو تتناول وزراءه، أو نظام حكمه.

ويقول الفيلسوف «برغسون» عن الدور التصحيحي للسخرية: «إن المقصود بالدعابة غافل عن هفواته، وبتعاظم غفلته، يزداد وضعه إثارة للضحك، لكنه ما إن ينتبه إليها يعمد إلى تصحيحها».

وقد عمد أكثر من حاكم عربي إلى تصحيح مسار معين في سياسته الاجتماعية، خاصة بعد أن ترامت إلى مسامعه نكتة يتم تداولها، أو عبارة وردت على خشبة مسرح ساخر، وهتف لها المشاهدون طويلاً. . .

فالنكتة السياسية هي في الواقع شكوى وضعت في قالب طريف،

يسمح لها بالوصول إلى أذن الحاكم بسرعة قياسية، لا يستطيعها البريد العادي أو حتى السريع منه.

فمسرح الفنان اللبناني «شوشو» مثلاً، كان سببًا لإصلاح أكثر من طريق، وردم مئات الحفر ـ التي كان يقع فيها شوشو على المسرح. ومسرح الساعة العاشرة الذي انطلق في لبنان منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة، والذي لا يوفِّر مسؤولاً من تقليده أو انتقاده، شأنه شأن مسرح وسيم طبارة وغيره، كان له دور كبير في تنبيه الحكومات المتعاقبة إلى أخطاء غافلة عنها.

كذلك مسرح الفنان السوري دريد لحام، وأثره في لفت الحكومة السورية إلى المشاكل التي تعانيها الإدارة، والتي تنعكس بؤسًا على المواطن. والمسرح السياسي الفكاهي كما الأدب الساخر، والنكات السياسية وغيرها هي مواضيع سنحاول الإحاطة بها تفصيليًا في سياق هذا الكتاب.

ورغم التأثير الإيجابي للظرف السياسي على تصحيح مسارات الحكم إلّا أنه يجب عدم المبالغة بفاعليته كسلاح قوي أو حاسم في مواجهة الظلم والطغيان، فالناس يتندرون على حكامهم، لا لقتلهم أو الإطاحة بهم، بل للتخفيف عن كبتهم كغاية أولى، وإرسال إشارات ناعمة باسمة لحكام متجهمين، عسى أن يخففوا من غلوائهم.

ولـ«رختر» في هذا المجال شعار يقول بأن «الحرية تولد الظرف، والظرف يولد الحرية»[11]. ورغم ظرف هذا الشعار إلّا أنه لا يمكن اعتماده جديًا في المطلق.. فقد سبق وأشرنا كما يجمع الباحثون على أن الظرف السياسي يتولد نتيجة وضع ضاغط، يجعل الناس يهربون من الواقع إلى التنفيس بالتنكيت، إلّا أنه من باب الوفاء للحقيقة، لا بد من التنويه بقول «رختر» بأن الحد الأدنى من الحرية هو شرط أساسي لانطلاق الظرف السياسي في بعض أشكاله.

صحيح أن النكتة مجهولة المصدر، وصحيح أنها بعد أن تصل في أيام معدودة إلى مسامع الملايين، ولا يمكن لأي قوة مهما عظمت أن

توقفها أو تكتشف مصدرها، إلا أن الصحيح أيضًا أن الأدب الساخر، والمسرح الساخر لا مكان لهما في نظام لا تتوافر به الحدود الدنيا من حرية التعبير، وكلما ارتفعت هذه الحدود، كان التعبير أكثر وضوحًا وسخرية، وبالتالي تقبلاً من الكتلة الجماهيرية وإلّا أتى خجولاً وتافهًا وعديم الأثر.

أما ما يتعلق بالشق الثاني لكلام «رختر» وهو «أن الظرف يولد الحرية» فالحقيقة أن التاريخ لم يخبرنا بعد عن عرش دكّته نكتة سياسية، أو أن أحد الطغاة قد انتهى كنتيجة لمسرحية هزلية. إلّا أن الأسس العلمية للحرب النفسية، تؤكد على دور الظرف والنكتة في توجيه الجماهير، والتأثير على قناعاتها وتوحيدها حول رأي واحد لقضية معينة، كما تبرز دورها مع الشائعة في زعزعة الثقة في الحكم القائم لبلد ما، والشك بنزاهة القائمين عليه، وهي أشد فاعلية أحيانًا من مائة سلاح ناري، فالظرف السياسي واقعًا، هو سلاح من أسلحة الحرب النفسية، والتأثير المعنوي، ويؤدي دورًا بالغ الأهمية في هذا المجال، إلّا أنه لا يمكن الاعتماد عليه وحده، لانتزاع الحرية أو العدالة الاجتماعية من مغتصبيها فهنالك وسائل أخرى تتوافق وتتظافر معه لتحقيق الغاية المرجوّة.

أخيرًا تجدر الإشارة إلى أنه في عالم السياسة العربية المعاصرة حدث تحول في جميع الأساليب الفكاهية بعد تصعيدها وتكثيفها من مساراتها التقليدية إلى ميدان النضال القومي، والنزاع الحزبي في نوع من البذاءة السياسية، وهذا ما نغفله قصدًا.

الظرفاء والقيود المرنة؟!

من الغريب أنه وسط القيود الصارمة، نعُم الظرفاء بمقدار كبير من الحرية في التعبير عن النفس. وتمكنوا في كثير من الأحيان من أن يقولوا أو يكتبوا ما لا يحلم بقوله أو بكتابته كاتب معاصر في زماننا.

والحق أن جانبًا كبيرًا من الإهمال أو الإغفال المتعمد الذي أصاب بعض آثارهم مردود إلى تزمتنا وتحرجنا أو منعنا وامتناعنا من أن نعيد ما قالوا. .

لقد كان الظرفاء دائمًا محصَّنين بمظاهر الاستقامة ومؤيدين بالتربية الفاضلة والمعرفة الوافرة، والثقة الراسخة بالنفس، فقد كانوا أشبه بنبلاء الأدب الأوروبي في القرن السابع عشر.

فقد اشتهروا بالنقد الذاتي، والتهكم اللاذع، والهجاء الساخر، وهكذا أصبح الظرف إجازة لقول المحلل والمحرم لفرض القول الظريف. (في لبنان اشتهر شوشو، وفي سوريا دريد لحام وفي مصر أحمد رجب) ومن الذين اشتهروا (الشيخ سعيد الحبوبي رجل الدين الورع في عراق القرن التاسع عشر) وهو القائل (عفة النفس وقبح الألسن) التي أصبحت من الأمثلة الرائجة في تبرير الكلام المقذع المليح.

ولعل أبرز ما لفتني وأنا أجهد في هذا البحث، هذه الأبيات الشعرية الناقدة اللاذعة والساخرة التي قيلت في القضاء ونزاهته على لسان «الشاعر العربي ابن إياس» والذي قصد به أحد القضاة الفاسدين، وما أكثرهم سابقًا وحاليًا وربما لاحقًا. حيث قال:

يا أيها الناس قفوا واسمعوا صفات قاضينا التي تُطرب
يزني، ينتشي، يرتشي ينمّ، يقضي بالهوى يكذب

كذلك في ميدان الضحك والسخرية شبَّه الإنسان بالحيوان الذي يضحك ويُضحك. لماذا؟

لأن البشر تأملوا صفات الحيوانات وأطلقوها على البشر إما تكريمًا أو تحقيرًا.

حيث تخبرنا صفحات التاريخ أن فرعون مصر كان يوصف بالفحل القوي. والعرب قالوا فلان كبش قومه، أي سادهم وسيطر عليهم وآخر

خلفاء بني أمية سُمي «مروان ـ الحمار» لصبره على مرارة الحرب (واسمه الأصلي مروان بن محمد)، ونابليون وصفوه «بالنسر».

وأتاتورك (مؤسس الدولة التركية الحديثة) وصفوه بالذئب الأغبر. وعمر المختار وصفوه بالأسد (مع أنه لا أسد في الصحراء).

ولعلّ أشهر كتاب وأشهر مؤلف في هذا الميدان هو (كليلة ودمنة) للفيلسوف الهندي البوذي (بيدبا) وضعه في مواجهة طاغية من ملوك الهند يُقال له (دبشليم) هابته الملوك وخافته الرعية.

والذي يهمنا من كتاب (بيدبا) رأيه العاقل الذي يبلغ حكمته، وغايته بالحيلة، لا بالقوة، بالدهاء لا بالسيف، بالعقل لا بالعضلات، بالكلام الساخر الناقد المعبِّر (النكتة) لا بالخطابة العلنية.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن بعض المؤرخين يقول بأن الكتاب المشار إليه تُرجم على يد «ابن المقفع»، وبعضهم الآخر يقول إن ابن المقفع هو الذي وضعه (كتبه) ونسبه إلى «بيديا» الهندي خوفًا على حياته من الخليفة وسيف جلّاده، ومع ذلك لم ينجُ (ابن المقفَّع) من القتل. وهو القائل «إنك لا تأمن أنفة الملوك إن أعلمتهم. . . ولا تأمن عقوبتهم إن كتمتهم، ولا تأمن من غضبهم إن صدقتهم. . » أي لا أمان لحاكم في كل الأحوال. (فالبعد عن السلطة غنيمة).

أما الحقيقة الباقية من كل هذا الذي أشرنا إليه فهي بقاء ابن المقفع بيننا رغم ذهابه إلى ذمة التاريخ، بينما الحاكم الجائر تلاشى إلى الأبد. . وما دمنا نصول ونجول في ميدان النكتة السياسية اللاذعة. . فلا بأس من صنع الابتسامة على شفاه القارئ.

فمن النكات السياسية التي نضحك عليها، ونسخر بها ممن حولنا أبطالها من ذوات الأربع:

■ قيل إن أرنبًا لم يعد يحمل الجوع، وسمع أن الدب يحصل على ما يريد في السيرك، فذهب إليه ورحّب به الدب قائلًا:

أهلاً.. يا أرنب.

أرنب.. أنا الدب وأنت الأرنب.

احتد الدب وارتفعت أصواتهما، فلجأ الاثنان إلى المحكمة حيث يجلس القاضي.

قال الأسد: في هذه البلاد كل شيء إثباته بالمستندات.

لم يكن الدب مستعدًا. بينما جاء الأرنب بمستندات قاطعة ومختومة بخاتم الدولة. فأصدر القاضي حكمه بأن الأرنب هو الدب، لذلك أخذ مكانه في السيرك.

وظل الدب يسير متشردًا جائعًا في الشوارع.. ليكتشف بعد ذلك أن الأسد الذي جلس مكان القاضي «حمار» يحمل شهادة أنه أسد.

■ وعن الأجهزة السرّية التابعة للدولة وقسوتها وظلمها في الستينات في مصر قيلت هذه النكتة:

عند الحدود قابل فيل أرنبًا فسأله الأرنب:

على فين؟

سأهرب من البلد.

ليه؟

لأنهم يحبسون الفئران.

أيوه، لكن إنت فيل مش فار.

صحيح لكن إزاي أثبت لهم كده؟

■ ومن النكات السياسية قال شاب لآخر:

إسرائيل هاجمت جنوب لبنان.

وأين العرب؟

يستعدون للهجوم.

على مين؟
على العرب طبعًا.

مثل هذه النكتة بقدر ما تحمل من ألم وأسى لحال الأمة العربية فإنها تعكس في ذات الوقت مدى الخلافات بين الدول العربية التي نتطلع إلى وحدتها.

وهناك نوع من النكات المقلوبة (تناقض) مثل طفل يوبخ أباه، حرامي ينصح وزير الداخلية، لوريل وهاردي. . .

ويقول الباحثون في هذا الميدان إن الإنسان السليم نفسيًا هو الذي يضحك من (100 ـ 400 مرة) في اليوم. بمعدل 200 ساعة في السنة، والضحك يقوي القلب بنسبة 14,7٪ ويزداد بسببه النبض.

ومن أمثلة النكات السياسية الشهيرة:

■ حُكي أنه في مجلس العموم البريطاني استفز هدوء أعصاب ونستون تشرشل سيدة من حزب العمال المعارض فقالت له:

لو كُنْتَ زوجي لوضعت لك السمَّ في الشاي.
فقال لها تشرشل:
لو كُنتُ زوجك لشربت هذا الشاي فورًا.

(في هذا الرد اللاذع ما معناه أنها بشعة دميمة وسيئة الخلق).

أما «تاليران» وزير خارجية فرنسا الأسبق الذي وُصف بأنه داهية سياسي، وكان ساخرًا أيضًا. رغم ما تعرض له من سخرية بسبب عرجه. قيل إن سيدة سألته ذات يوم (وفي عينيها حَوَل) وكانت تسخر من عرجه لإيلامه.

كيف تسير الأمور؟
فأجاب بسرعة: كما ترين.

■ وحول سخرية الأوروبيين من الزعماء العرب، قيل:

■ فُقِدَ مسؤول عربي أثناء زيارته لإحدى دول أوروبا.. فذهبت زوجته وابنته لتدليا بأوصافه. فقالت الزوجة:

إنه وسيم.. شهم.. شعره أصفر.. يحب الخير.. يهوى الحرية..

لكن الابنة تدخلت قائلة:

لكن يا ماما هذه ليست أوصاف بابا.

فنهرتها أمها قائلة:

اسكتي.. لعلهم يبدلونه لنا ببني آدم..

ونحن نعتقد أن السخرية السياسية لن تتوقف ما دام عالمنا الذي نعيش فيه سيظل على ما هو عليه، سيظل كما وصفه «نزار قباني» في تقرير سري جدًا من بلاد قمعستان، وحكم عليه بالإعدام رميًا بالنكات.

■ ولأن النكتة سلاح بدون ترخيص، ولأن كل شيء قابل للنكتة ـ الحكام ـ الشعوب ـ التصرفات ـ السياسات، ولأنه لا شيء مقدسًا أمام النكتة فقد حكي عن أمير من أمراء النفط كان يمشي في الصحراء، فعثر على مصباح علاء الدين وعندما خرج له المارد ـ سأله:

شبيك لبيك عبدك بين إيديك.. إيش تطلب؟

فنظر إليه الأمير النفطي شذرًا، وقال بتعالٍ:

إنت إيش تطلب؟!!

■ أما عن سخرية الأميركيين من السعوديين فقد جاء:

إن الأميركيين في السعودية حاولوا يومًا ذبح خنزير، فاحتج السعوديون لأن هذا مخالف للدين (للشرع).

فقال لهم الأميركيون: إنه ليس خنزيرًا.. إنه خروف يضع كمّامة.

ولأن في كل الدنيا رؤساء سابقين إلّا في بلاد العرب، فهم إما في السجون أو تحت الأرض.

ويبقى السؤال:

ألم ينجح عدد من الرؤساء والحكام في بعض الدول العربية في توظيف ظُرف ونجومية كثير من الظُّرفاء والفنانين في امتصاص غضب الجماهير وتنفيس ما في صدورها من خلال التنكيت والسخرية من الواقع الذي يعيشه الناس.. ولن ندخل في التفاصيل والأمثلة، بل سنترك هذه المهمة لذكاء القارئ.

هوامش

1 ـ خالد القشطيني: **السخرية السياسية العربية**، ص 15.

2 ـ سورة النجم 52: 43 ـ 44.

3 ـ سورة النمل 27: 18 ـ 19.

4 ـ جريدة **الكفاح العربي** 16 ـ 6 ـ 2000، ص 19.

5 ـ جريدة **النهار** 12 ـ 11 ـ 2000.

6 ـ استنادًا إلى قولهم (إن أول ما خلق الرب 600 ألف يهودي لهذا لكتابهم الديني 600 ألف تفسير).

7 ـ رياض حنين: **نكات خازنية**، المجموعة الأولى، صفحة 24.

8 ـ الرمامة: جمع رِمَّة: جيفة.

9 ـ خالد القشطيني، **السخرية السياسية العربية**.

10 ـ خالد القشطيني، **السخرية السياسية العربية**، ص 74.

11 ـ خالد القشطيني، **السخرية السياسية العربية**، ص 2.

الفصل الثاني

الأدب الساخر

الأدب الساخر (بطاقة هوية)

لقد حرصنا خلال دراستنا للأدب الساخر أن نحصر بحثنا بالسياسي منه بالدرجة الأولى، ثم الهزل والتهكم باعتبارهما من أدوات السياسة، ومنها الإدارة، والقضاء على اعتبار أنهما من أدوات النظام الأكثر تماسًا مع الشعب واحتكاكًا به، أما الهزل غير الانتقادي الذي لا غاية له سوى الترفيه والإضحاك دون غاية اجتماعية أو سياسية كنوادر الشعراء والظرفاء والمغفلين،... إلخ. فرغم أنه يشكل حيِّزًا كبيرًا في الأدب العربي، إلّا أنه ليس في صلب دراستنا. لذلك لن يستوقفنا إلّا لفترات وجيزة، وسنمر عليه مرور الكرام حيث إن التوقف عنده يتوقف على مغزى النادرة، وتأثيرها على الرأي العام، أو على اهتمامه بها في أضعف الإيمان.

إن عالم الأدب السياسي الساخر، هو عالم واسع بلا ريب، ففيه المقال الصحافي، وفيه الخطاب السياسي، وفيه القصيدة الكلاسيكية العصماء، والزجلية النادرة، والمسرح الناقد... إلخ. وهذا ما سنحاول إلقاء الضوء عليه للقيام بجولة به في هذا الفصل.

جولة في عالم الأدب الساخر

مما لا شك فيه أن النقد الساخر هو فن عريق في حياة الشعوب، ولم يكن الشعب العربي يومًا بعيدًا عن الفن، الذي كان يبرز حينًا ويزدهر وينكفئ أحيانًا وينحسر، قياسًا بالمستوى المسموح به من حرية التعبير، وحيث بلغ مستواه الأدنى في عهود الكبت والظلمات، إلّا أن شعلة التعبير لم تنطفئ يومًا ولو خبت.

في لبنان كما في سائر أنحاء الشرق العربي وخاصة مصر، كان للأدب الساخر دور هام في مجال الإصلاح وتقويم اعوجاج السلطة، وإبراز فساد الإدارة، من خلال إبراز أخطاء الحاكم، وسقطاته، وزعزعة ثقة الجماهير به وبأدواته، وقد عرف الحكام على مرّ العصور أن هيبتهم التي كانت سلاحهم الرادع الأول ضد من يتجرأ عليهم، كانت في الوقت عينه، الهدف الأول لخصومهم ومعارضيهم، فكان همهم الأول المحافظة على هذه الهيبة، ولو اعتمدوا أقسى أساليب العنف، التي ما كانت إلّا لتزيد رغبة الناس بالتعرض لهذه الهيبة ولو تورية، فأمسى الموضوع كدائرة مفرغة، أو كما يقول المثل المصري: الملك من هيبته، بينشتم في غيبته.

صحيح أن بعض النقد هدام قاتل، خاصة عندما يعتمد الهزل طريقًا للتجريح والطعن الشخصي، وعندما يمسّ الأعراض، إلّا أن تجاوب الجماهير مع هذا النوع من النقد الذي أمسى شتائم، ضخّم من مكانته، مع أنه لم يكن يومًا في مستوى آمال أصحابه.

والأدب السياسي الساخر، الذي اتخذ أوجهاً عدة وأساليب متنوعة، كالشعر والمقال والمسرح والأغنية... إلخ، كان دائمًا يعبّر عن آراء أصحابه الذين اعتبروا أنهم يعبرون عن آراء الناس، إما مباشرة عن طريق التعريض الصريح، والتهكم الساخر، وإما تورية عن طريق «التلميح والهجو المبطن» الذي لا يضحك الناس آنيًا، إلّا أنه أشد مرارة وأبلغ أثرًا، وأكثر ديمومة، وهو أرقى طرق النقد، والهجو والسخرية.

وقد اختلفت صيغ التعبير عن هذا الفن، فمنها ما اتخذ الصورة الهزلية الكاريكاتورية، أو النكتة الحاضرة والنادرة الطريفة، وهذا ما رأيناه في الصحافة الساخرة. ومنها ما استخدم القصيدة الشعرية بنوعيها الشعبي والكلاسيكي، وثمة هزل يسلك طريق الحكاية أو الرواية غير المباشرة، ويترك للناس استخلاص المعنى.

إن الأدب السياسي الساخر، لا يقتصر على الصحافة الساخرة، فكثير من أعلام هذا الأدب، اختاروا لنشر مقالاتهم وحكاياتهم

وقصائدهم، أكثر الصحف جدية، ومنهم من رأى أن المسرح هو الوسيلة الأقرب إلى قلوب الناس وعقولهم.

ومنهم من سعى إلى أن تتردد كلماته على شفاه الناس أغنية، أو حداء، وآخر رأى أن رسالة خاصة إلى قريب، أو صديق، يسعى سرًا إلى تسريبها إلى إحدى وسائل الإعلام، هي أبلغ تأثيرًا لدى الرأي العام من عشرات المقالات، لأن الناس يسعون بطبيعتهم إلى معرفة الأسرار والخبايا، وما كان غافلاً عنهم كالرسائل التي كان يرسلها الكاتب المصري الكبير مصطفى أمين إلى أخيه وتوأمه الصحافي الراحل علي أمين من سجنه عام 1969 أيام حكم الرئيس عبد الناصر. وكان أمين قد اتهم بقضية التجسس المعروفة على أثر نكبة 1967 ولنا عودة إليها. وقد أحدثت هذه الرسائل التهكمية إثر نشرها في بداية حكم الرئيس السادات، أثرًا كبيرًا في تشويه فترة حكم عبد الناصر، وإحدى الأسلحة التي استخدمها خصومه ـ بتشجيع من السادات ـ للنيل من منجزات هذا الحكم.

أما المسرح فقد شكّل في لبنان ومصر، وبعض البلاد العربية، منبرًا هامًا للتعبير. فشهدت المسرحيات ذات الطابع الانتقادي الحاد، الذي غلِّف بالطابع الهزلي إقبالاً كبيرًا من الجمهور. ومنها المسرح الفكاهي الكوميدي الذي يعتمد على قصة حية، أو مدنية، كما في مسرحيات دريد لحام والفنان الراحل «شوشو» ـ حسن علاء الدين ومنها المسرح الهزلي الغنائي «Chansonier» كمسرح وسيم طبارة ومسرح الساعة العاشرة، وغيرها. وقد اعتمدت هذه المسارح على تقليد الزعماء السياسيين شكلاً وصوتًا وتعبيرًا وذلك بقالب كاريكاتوري ظاهر.

وقد تجلَّت في العالم العربي ظاهرة الصلة الوثيقة بين الظرف والمسرح، فالتماثل بين المؤلف المسرحي، والكاتب الهزلي تكرر في أكثر من حالة في سياق التاريخ العربي المعاصر. فكثير من الكتّاب الساخرين، كتبوا للمسرح كما كتبوا للصحافة، كما للمسلسلات التلفزيونية عند بروز عصر التلفزيون.

أما على صعيد الشعر، وخاصة الشعبي منه، لطرافته ولقربه من

مفاهيم العامة، فقد ظهر الكثير منه خاصة في لبنان ومصر مدحًا وهجاءً، وقد اعتمد أنصار بعض الزعماء اللبنانيين هذا النوع من الشعر، خاصة في مواسم الانتخابات النيابية للتأثير على الرأي العام بغية تأييد زعمائهم، مع الحرص على إنشاء هذه القصائد، أو الأبيات اليتيمة، ضمن لحن شعبي معروف، كالحداء الشعبي، أو لحن على دلعونا مثلاً، وهذا ما سنراه في المواسم الانتخابية في جنوب لبنان أيام الزعامات التقليدية.

وأبرز الشعراء الساخرين في لبنان، بلا شك، **الراحل عمر الزعني** الذي تهكم من سقوط الفرنك الفرنسي، وقال حاسب يا فرنك، يا فرنك حاسب، فكان جزاؤه الطرد من وظيفة حكومية شغلها، والذي كانت قصيدته «يا ريتني حصان عند بيت سرسق» من نوع الكومي ترجيك «Comi - Tragique»، التي تضحك وتبكي في آن. إذ إن هنالك إنسان يتمنى أن يكون حيوانًا، ليستطيع التمتع بالأكل الطيب.

وقد برز في مصر في العشرين سنة الأخيرة، **الشاعر أحمد فؤاد نجم، والفنان الضرير سيد إمام**، الذي تهكم من زيارة الرئيس الفرنسي «فاليري جيسكار ديستان» إلى مصر بعد أن أعطاها الرئيس السادات حجمًا يفوق كثيرًا مما تستحق، فقال السيد إمام في مطلعها «فاليري جيسكار ديستان والست بتاعو كمان، حايجيب الديب من ديله، وحايطعم كل جوعان». أما على صعيد المقال الساخر فإن اسكندر الرياشي، كما نرى في باب الصحافة الساخرة، يلقب عن حق برنارد شو لبنان، وكتب في صحيفته «الصحافي التائه» كما كانت له مقالات في صحف جديَّة، وسنرى لاحقًا نماذج من أدبه. أما سعيد فريحة، فهو كما ذكرنا أيضًا من أرباب هذا الأدب في لبنان في مرحلة ما بعد الاستقلال، وفي مصر برز عدد كبير من الكتّاب الساخرين من محمد التابعي إلى مصطفى أمين وأخيه علي أمين، مرورًا بمحمود السعدني وأحمد رجب وغيرهم ممن سنرى.

أما لجهة المواضيع التي كان الكاتب أو الراوي يسعى من خلالها لإضحاك جمهوره (Audience)، فقد كان الجنس لفترة طويلة، سيّما في

العصور الوسيطة وحتى عصرنا الحاضر، يشكل جانبًا كبيرًا من الظرف العربي، وهذه الصفة لم تكن يومًا حكرًا على العرب، فقد انغمست جميع الشعوب في الظرف البذيء، وإذا شاء أحدنا الاطلاع على أي كتاب نكات فرنسي مثلاً Mille Histoires Drôle أي ألف قصة مضحكة، فإنه يجد حيّزًا كبيرًا للنكات المتعلقة بالجنس، والخيانة الزوجية، والعملية الجنسية. . . إلخ تحت عنوان «Adultère» أي للبالغين فقط. أما في السياسة العربية المعاصرة، فقد تحولت جميع هذه الأساليب الفكاهية مع الاحتفاظ بمسارها التقليدي، إلى ميدان النضال القومي، والنزاع الحزبي، وعلاقة الحاكم بشعبه. أما الجنس والبذاءة فقد ارتديا طابع السياسة، كحكاية الحشاش المصري ورفيقه، وكانا في أحد شوارع القاهرة، أثناء مرور الرئيس عبد الناصر وضيفه كوامي نكروما رئيس جمهورية غانا في الستينات فقد دار بينهما الحوار التالي:

- يا خوي. . دا مين؟
- ده. . ناك روما.
- وده مين؟
- ده (. . .) إحنا[1].

وقد حرصت الشعوب العربية على إدخال الجنس في نكاتها التي سميت مجازًا نكات بذيئة، كانت تروى في المجالس، واستطرادًا على المسارح، وكما ورد في الشعر الشعبي أكثر منها في الكلاسيكي. أما عن صفات الظرفاء الشخصية، فإن صفة السعادة هي أبعد صفة يمكن وصفهم بها. فمهرجو المسرح يعلو هزلهم في معظم الأحيان غمامات حزن مرير، فكما قال «أشعب» أمير الطفيليين وأطرفهم «يطلبون منا نوادر تضحك الملوك، ثم يعطوننا عطاء يبكي العبيد» وعلى سيرة أشعب، فقد سُئل مرة: كان لدى أبيك لحية كثّة، فلمن أنت أمرد؟ أجاب: لأمي!

وقد نعم الظرفاء عادة بشخصية مرحة قوية بعيدة عن العقد النفسية رغم الخيبة والألم. وكان معظمهم محصنين بمظاهر التقوى والاستقامة والنزاهة رغم بذاءة لسان بعضهم. من هنا أتت عبارة «نظافة النفس وقذارة اللسان»، وذهبت مثلاً.

ورغم أن للهزل والضحك الناتج منه فوائد لا تحصى، كما سبق وذكرنا في مقدمة هذا الكتاب، إلّا أن المبالغة به والإكثار منه دليل فساد في الذوق، وابتعاد عن الجديّة المطلوبة لبناء المجتمع والإنسان. فالهزل لا يمكن أن يقوم مقام الجد، والعكس صحيح، ولكل مقام مقال، والوسط في هذا الموضوع هو خير الأمور، والنظرية التوسطية، التي رأى بها أرسطوطاليس، هي برأينا الأفضل في هذا المجال حيث قال عن الظرف: «إن الكثير منه مهرّجٌ والممتنع عنه قطّ». أما الظريف كما جاء في شرحه، فهو الذي لا يغالي في دعابته، وهذا القول يماثل إلى حد بعيد وصية الجاحظ بالاعتدال حين قال: «للمزح موضع وله مقدار متى جاوزهما أحد وقصّر عنهما أحد، صار الفاضل فضلاً، والتقصير نقصًا»[2]. وعلى ذكر الجاحظ الذي كان رائدًا في الكتابة الساخرة التي لا يجوز إغفالها رغم أنها لم تكن سياسية، فإن كتابه «البخلاء» من أروع ما كتب في الأدب الساخر، الذي يطال شريحة كبيرة من الناس تعيش في غير مكان وفي كل زمان. ومن أبلغ ما كتب: سأل أحدهم: من أشجع رجل في العالم؟ فأجابه أحد البخلاء: هو من يسمع أسنان غيره تقضم طعامه، ولا تنفجر مرارته.

وبالعودة إلى الأدب الساخر في عصرنا الحديث، نرى أن هذا الأدب أقرّه حتى أكثر الأدباء جديّة، فكتب طه حسين، «هنالك طريقة أخرى للتعامل مع الصحف المغالية بالتهكم، هي الرد على هزلهم بالهزل».

المقال الساخر في التوجيه المعنوي

على أثر انتهاء حرب السنتين في لبنان، وتحديدًا في أواخر عام 1977، شغل كاتب هذه السطور وظيفة المسؤول عن قسم التوجيه والإعلام في قيادة الجيش، فكان له وعلى مدى سنوات مقال شهري في مجلة «الجندي اللبناني» التي كانت تصدر عن قيادة الجيش في حينه، وتحت عنوان «استراحة محارب في محراب الكلمة»، وذلك في الصفحة الأخيرة من تلك المجلة: حرص كاتب المقال على أن يبدأ مقاله بحكاية طريفة من واقع المجتمع، ذات دلالة رمزية بشأن وطني معين، وينهيه بالعبارات التوجيهية التي يقتضيها واقع الحال، وقد أثبتت الإحصاءات التي أجرتها مديرية التوجيه المعنوي في حينه أن تلك الصفحة هي الأكثر قراءة من قبل العسكريين ضباطًا ورتباء وجنوداً، وكانوا ينتظرون المجلة التي كانت توزع عشرين ألف نسخة بشغف في بداية كل شهر، وحيث أثبتت نتيجة الإحصاءات أن 85٪ من قراء المجلة يبدأون بقراءتها من آخرها. . .

■ فمن المعروف في الجيش اللبناني أن على الجندي الذي يرغب بالترقية لرتبة أعلى، وأولها رتبة عريف، أن يكون على درجة معينة، ولو في الحد الأدنى من العلم والمعرفة. إلّا أن لكل قاعدة شواذها، وتعليقًا على سذاجة وبساطة أحد العرفاء، وتشجيعًا على معرفة ما يجري في هذا العالم. جاء في مقال لكاتب هذه السطور وتحت عنوان: «بين الرئيس ريغان، والعريف نجيب» ما يلي:

«لله في خلقه شؤون» هكذا جاء في قولهم. . فكما خلق الله الرئيس ريغان، ومن بعده كارتر، خلق العريف نجيب. أما عن العلاقة بين أولئك والعريف المذكور، فلا تتعدى مرور كل منهم برتبة عريف أيام خدمته الإجبارية.

والعريف نجيب، نجيب بالفعل، يذكرني اختيار أهله لهذا الاسم حين ولادته بدراسة أجراها أديبنا «المرحوم سلام الراسي» عن الأسماء، عندما اكتشف في قريته «جميلاً» بينه وبين الجَمال فرقة أبدية. و«كريمًا» كان عندما يضع القرش في قجّته، بشّره بالبعث في يوم القيامة، إذ لا خروج له إلى النور قبل ذلك التاريخ..

تذكّرت تلاعب القدر بالأسماء، عندما علمت أن فتاة تدعى «عفاف» وأختها «شريفة» والاثنتان تعملان بنشاط في أحد بيوت الدعارة، وأن رجلاً يسمّى «حازمًا» كانت زوجته «هنيّة» تنهال عليه ضربًا بما تتلقّفه يداها عندما يبدي رأيًا لا يعجبها، فينكر حازم رأيه، ويستغفر، ويحسده الناس على هذه العيشة «الهنية».

تذكّرت صديقي الصحافي «باسم» الذي لم أره يومًا مبتسمًا إلّا في عيد البربارة.

غريب أمر الأسماء، أتذكّر ذلك كلما لاحظت «النجابة» على وجه «نجيب» وأقول لنفسي لا بأس ما دام «نخلة» ابن جيراننا يضطرني دائمًا للانحناء (90) تسعين درجة لمصافحته.

والعريف نجيب أتاني بالأمس بطلب، وكنا نتتبع الانتخابات الأميركية عبر وسائل الإعلام، إذ بي لا شعوريًا أبادره بالسؤال، هل أنت مع كارتر أو مع ريغان، فيجيب بسرعة: سيدنا أنا مع المعاون أول خشيش... فعلاً «لله في خلقه شؤون». (انتهت المقالة)

■ انتهت الحرب الأهلية اللبنانية نظريًا، مع دخول قوات الردع العربية إلى لبنان في نهاية 1976، وقد نعم لبنان باستقرار أمني نسبي لمدة سنتين تقريبًا، إلى أن بدأت الأحداث تتنقل من منطقة إلى أخرى، حيث عاش لبنان مرحلة اللاحرب واللاسلم، فكانت النار تهدأ لفترة لتعود إلى الاشتعال بقدرة قادر..

وكانت المسؤولية تقع دائمًا على «جهات مجهولة» أو «عناصر غير منضبطة»... إلخ. فرأى كاتب هذه السطور أنه من الضروري

تحديد الجهة التي تقف دائمًا وراء الأحداث، وفضحها ولجمها ومحاسبتها، فجاء المقال التالي. . تحت عنوان «البحث عن أبو دربكة» وقد أثار ضجة في الأوساط المتورطة في الحرب اللبنانية القذرة، واعتبر أكثر من فريق أنه المقصود بذلك. . . وصحَّ المثل اللبناني القائل: «كل واحد في مسلّة تحت باطه بتنعره». أي إن الذي يعتبر نفسه معنيًا بالتهمة، لديه إبرة تحت إبطه تقوم بنكزه. .
والحكاية جاءت كما يلي:
يحكى أن أحد المتصرفين ـ ربما كان نعوم باشا ـ أحب بيروت كثيرًا، واستطاب له العيش في ربوعها، خاصة في شهر أيلول من كل عام، فاختار لنفسه مقرًا في الجمّيزة مجاورًا لملهى اشتهر في ذلك الوقت، وربما كان اسمه «الأندلس» أو شيئاً من هذا القبيل، وكان أكثر ما يطيب للمتصرف المذكور في تلك الإقامة الهدوء الذي يرافق نسيم الفجر الرطب في تلك الليالي. . . إلّا أن الموسيقى التي كانت تنبعث من الملهى المجاور، كثيرًا ما منعت النوم من مداعبة أجفان الباشا.
في الصباح الباكر، أمر الباشا بإحضار جميع أفراد الفرقة الموسيقية وبمحاكمة وجاهية، أصدر أحكامه كما يلي: رئيس الفرقة عشرة أيام حبس، عازف العود أسبوع، عازف القانون ثلاثة أيام «نظرًا لدقته». . . إلخ. أما ضارب الطبلة فقد نال ستة أشهر مع الأشغال الشاقة، فصعق الرجل عند إبلاغه الحكم، وقال ربما غلطة مطبعية، فاستدعاه الباشا، وأكّد الحكم قائلاً: أنت العلة الرئيسية في كل هذا البلاء. . . «لأنها كلما بردت، كنت تحمِّيها».
رحم الله الباشا نعوم، لو بقي متصرفًا إلى يومنا هذا لفتَّش أولاً على ضارب «الطبلة»، فأوركسترا الحرب في هذا البلد، لا بد فيها من «ضارب دربكة» فكلما خمدت بمكان، يشعلها بمكان آخر. . .
فإذا صمتت المعزوفة على المتحف، نسمعها على السوديكو، وإذا ختمت الحفلة في زحلة، يُعلن عن استمرارها بنجاح كبير على

مسرح الجنوب. لذلك «وبناءً على ما تقدم»، فإن الدربكة هي العلَّة وهي السبب، ومن الآن وحتى العثور على «أبو دربكة» وإيقافه عند حدِّه، ستبقى الأمور كما هي «وفالج لا تعالج». (انتهت المقالة)

■ وفي مجال آخر، وتحت عنوان «الخلاف على اللحاف» وضمن الفكرة التوجيهية التي تؤكد أن لبنان يتسع لجميع أبنائه، وأن تجاذب الوطن يؤدي إلى تمزيقه، جاء في «استراحة المحارب» في مجلة «الجندي اللبناني»، وبقلم «الرائد» هشام جابر ما يلي:

في أواخر القرن الماضي، عقد في فيينا مؤتمر دولي، أسرع خلاله ممثل السلطنة العثمانية، واحتل كرسيًا جاور به ممثلي الدول العظمى، فاحتجَّ بعض مندوبي الدول بأن تركيا «ليست دولة عظمى»، هنا أجاب ممثل السلطنة، «بلى دولتي هي الأعظم بين الدول، والبرهان على ذلك أنكم جميعًا تتآمرون على تخريبها من الداخل.. ومع ذلك فهي صامدة حتى الآن»، رحم الله الدولة العلية العثمانية، وأسكن ممثلها المذكور فسيح جناته... «فإذا كان الخلاف على اللحاف» وتجاذب أطرافه في تلك الدولة، قد أدى أخيرًا إلى تمزيقه، فما ذلك إلّا لأن أنسجته كانت خليطًا أسيء تركيبه كيميائيًا، أضف إلى ذلك تلفه لقدمه ثم مقصات الدول العظمى.

أما نحن فلحافنا من نسيج واحد، ولو اختلفت ألوانه، وإذا قال أحدنا «باسم الله» أجابه الآخر «باسم الرب»، وإذا كان بالإمكان إبعاد مقصات الدول الأخرى، فإن الممكن أكثر أو الأكيد أن التخفيف من تجاذب أطراف اللحاف، واعتباره يكفي لتدفئة الجميع يبعد عنه أخطار التمزيق، ولا يسمح إلّا للبنانيين بأن يكونوا هم المتدفئون.

■ في تلك المرحلة من تاريخ لبنان الحديث، كانت الدولة اللبنانية

ضيفًا غير مرغوب به على أرضه، فالثورة الفلسطينية أقامت دولة ضمن الدولة، وإسرائيل سيطرت من خلال الميليشيات المتحالفة معها على قسم كبير من جنوب لبنان، كما أقامت الميليشيات اليمينية «دولتها» في أماكن تواجدها... إلخ. وكان لصاحب الكلمة التهكمية ثمن باهظ يدفعه من حياته وحريته وممتلكاته، وقد تعرض كاتب هذه السطور إلى تهديدات المنظمات الفلسطينية، ونقمة الميليشيات اليمينية سيّما وقد توافق طرفا النقيض على اعتبار هذه المقالات، بمثابة تحريض للسلطة والجيش والشعب عليهم...

ففي مقال يدعو إلى نبذ مقولة «قوة لبنان في ضعفه» وأنه آن للدولة اللبنانية أن تنهض من كبوتها و«تكشِّر عن أنيابها» في وجه الجميع لبنانيين وأشقاء وغرباء... استخدم كاتب هذه السطور «الحكاية الشعبية الساخرة» في الدعوة لإعادة الهيبة إلى الدولة اللبنانية، بعد أن اختلفنا مع أشقائنا، وأولاد عمنا، واستوطى الجميع حيطنا...

كما كان لكاتب هذه السطور عدة مقالات نُشرت في صحف لبنانية وعربية، تحت أسماء مستعارة، لأن القانون يمنع على العسكري في الخدمة الفعلية الكتابة والنشر باسمه الصريح إلّا بترخيص من القيادة...

اختلفت نسبة «التهكم» بين مقال وآخر، ومنها مقالات كتبت ولم ترسل للنشر، نختار أحدها... وفيه يقارن الكاتب بين موقف أميركا من إسرائيل، وموقفها من العرب، وهو تحت عنوان «فرفور ذنبه مغفور»، وهو مثل لبناني يرمز إلى أن من الناس من يحق له أن يرتكب جميع المعاصي دون ردع أو عقاب، فـ«فرفور» الولد المدلل لدى أبيه ذي السطوة والشأن، يعتدي على أولاد الجيران، ويكسِّر ويدمِّر ويعيث في الأرض فسادًا دون حسيب أو رقيب، ودون عقاب أو ملامة، وكان التوقيع المقرر لصاحب المقال في حال النشر... «دبلوماسي عربي في باريس»[3]...

■ وقبل أن نختم باب المقال الصحافي الساخر.. لا بد من التنويه

إلى أن أحد كبار الصحافيين اللبنانيين «الياس الديري» وهو من أركان صحيفة «النهار اللبنانية»، انتقل منذ سنوات معدودة من المقال الجدي، إلى المقال الساخر. . حيث يشغل العمود المخصص له بعنوان «نهاريات» حيّزًا أساسيًا في الصفحة الأولى من «النهار»، وبصورة شبه يومية، إلّا أن الياس الديري لا يوقِّع باسمه، فاعتمد لقب «زيّان» توقيعًا لمقاله، الذي أمسى مع كاريكاتور بيار صادق أول ما يطالعه القارئ بعد العناوين.

في ليلة ربيعية من عام 1994 قام رئيس الحكومة اللبنانية الراحل رفيق الحريري بعملية «دروشة» خرج بها مع رهط من أخصائه تحت جنح الليل، وبثياب السبور إلى شارع الحمرا في بيروت، وقصد الرئيس «المتدروش» على غرار الخلفاء العباسيين محلاً لبيع السندويشات الشعبية يسمى «ملك البطاطا» فكتب الياس الديري بتوقيع «زيّان» مقالاً طريفًا بعنوان «فلافل خليفة»، رأينا وضعه كاملاً أمام القارئ لصعوبة اختصاره. .

«مرّ أبو العيناء بموسى بن المتوكل، فقال له انزل على ما حضر. فنزل وقدّم له صحفة بلحم وخبز. فأدخل أبو العيناء يده فقلبها، وما وقعت يده إلّا على عظم. فقال يا سيدي هذه صحفة أم قبر؟ فضحك موسى وأمر له بشيء آخر. . .

فلم تكن الفلافل والبطاطا المقلية منتشرة في ذلك الزمان، ولا كان هناك ملك للبطاطا، وآخر للبطيخ، وثالث للشاورما. . . كان الحال على قده، وعلى قدر من البساطة والقناعة.

فمسكين أبو العيناء، وقليل الحظ هو. فلو مرَّ ليل الأربعاء في شارع الحمرا، وقادته خطاه الخائرة إلى حيث يخيّم ملك البطاطا، لما وقع له ما وقع من ابن المتوكل، ولكان استُضيف على الرحب والسعة. . وأكل عن شهر بحاله. . .

فقد كان الخليفة هناك ليلة أمس الأول، وقد عرفوه للحال، على رغم «تدروشه»، وتحلله من هيصة المواكب وزماميرها. فحلَّ وأكل هنيئًا بشهية، أكل فلافل مثل الذين يعزّ عليهم القريدس وزنود

الست، وكان بين السندويش وأختها، يتسلى بصحفة من البطاطا.
وكان باشًا وسعيدًا، وقال من حضر المأدبة المرتجلة، إنهم نادرًا ما رأوه بهذا الانشراح...
فأين كنت أبا العيناء؟ تبحث عن صحفة ابن المتوكل المليئة بالعظام؟..
راحت عليك، إلّا إذا أسعفك الحظ، ومررت يومًا بشارع فردان، وصودف وجود الخليفة متدروشًا أيضًا في مطعم مختص بالبيتزا الإيطالية وأصنافها، التي يشطُّ لها الريق عذوبة، عندئذٍ قد تعوّض في فردان ما فاتك في الحمرا، وقبله لدى موسى إياه..
وقالت الصورة، التي تُظهر الرئيس الحريري مغتبطًا جدًا... وقالت العصفورة أيضًا إن بعضًا من الحاشية كان هناك، وهو بعض من الذوَّاقة يعرف طعم ما في فمه.. ويحسن التمييز بين الكافيار الشاهنشاهي، وفلافل ملك البطاطا.
وكانت صحفة البطاطا المعمَّرة لا يهدأ لها حال، بين ملآنة وفارغة لكنها كانت سعيدة وفي أحسن حال، فالخليفة هو الذي يمد يده إلى ما فيها، وليس كائنًا من كان. وهي تدرك وتضحك في عبِّها.
صحيح أن دولته تدروش ذات ليلة وخطر له أن يفقع عروسًا من الفلافل، إلّا أن ذلك لا يعني أبدًا أن ملك البطاطا يجهل ذلك، ويغيب عن باله تاريخية اللحظة التي مرت بحياته ليل الأربعاء.
والشاهد أن الذين كانوا تلك الساعة يعبرون الشارع المقفر، استوقفهم المشهد، واندهشوا عندما علموا أن دولته هو الواقف أمامهم، وبيده قرص الفلافل..
وكانوا يهتفون مهللين، مولانا يأكل من مأكولنا ويمالحنا يا لفرح الدهور... حلوة الدروشة.

وفي مجال آخر كتب الياس الديري أيضًا بتوقيع «زيّان» مقالاً يتهكم فيه على إسرائيل، التي شنّت حينها ثلاث غارات جوية، أطلقت بها

عشرات الصواريخ «تتمرجل بها على هوائي تلفزيون تابع للمقاومة الوطنية في منطقة تسمى ضوء القمر»، وفي هذا المقال كتب «زيَّان»:

«تمكنت إسرائيل عبر ثلاث غارات، وأربع مقاتلات، وعشرات الصواريخ من أربع عنزات نفقت في منطقة ضوء القمر، ومن حجارة مبنى قديم. أما عمود الإرسال فبقي منتصبًا..
فيما نفذ الحمار بجلده، ونجا من أي خدش، لكنه فغر فاه منشدًا ربما أو ضاحكًا، والله أعلم..
وفي السلطان يعقوب سقط ثلاثة جرحى..
وسقطت أشجار زيتون، وخرّت بعض الصخور على تخوم الحزام.
وغدًا قد يكون يومًا آخر من تساقط الماعز والحجارة والأشجار، ومن انشداه المزيد من الحمير.
فماذا تريد إسرائيل أن تبلّغ لبنان من جديد، وأي مفاجأة في الرسالة التي أرفقتها بصواريخ البقاع الغربي وبعلبك والجنوب؟
الحمار بات يعرف.
والدليل أنه فتح فاه أمس على نحو أثار دهشة العالمين، الذين اقتنعوا أخيرًا مع الحمار أن هذا الأسلوب صار مدعاة للضحك أكثر مما هو مثير للاهتمام.
فقبلنا اعتاد الغارات واللوعات.
وحميرنا كذلك، وأيضًا ماعزنا»[4]. (انتهت المقالة)

■ وبعد «النهار» دأبت صحيفة «السفير» البيروتية على كتابة عمود على شيء من السخرية والطرافة بقلم الصحافي **فيصل سلمان** يعالج به الوضع اليومي متنقلاً بين الجديَّة والهزل، الموالاة والمعارضة تبعًا لقضية موضوع البحث وموقف الصحيفة من صاحب الحكم... فبعنوان «لبن»، كتب فيصل سلمان مقالاً يعلّق به على موقف المعارضة، نقتطف منه ما يلي:

«يروى أن رجلاً شاهد رجلاً آخر قرب نهر كان يرمي فيه سطلاً من اللبن، وبعد مراقبة وتعجب ودهشة وتساؤل، اقترب الأول من الثاني، وجرى بينهما الحوار التالي:

□ ما تفعل يا رجل، بحق الله؟

ـ إني أضع روبة من اللبن في هذا النهر.

□ ولكنك لن تحوّل مياه النهر إلى لبن، والروبة التي تلقيها، ستجرفها المياه، فلا يبقى منها أثر.

ـ أنا أعرف ذلك، ولكن لو نجحت الفكرة «لحّق على اللبن».

تصح وقائع هذه الطرفة على ما يعيشه اللبنانيون اليوم، ويمكن للمعارضة أن تكون الرجل السائل كما في الرواية، كما يمكن أن تكون في موقع المجيب عن أسئلة الحكومة..

فبيان المعارضة الصادر عن المؤتمر الوطني الأخير، ومذكّرة الاتحاد العمالي العام، ومذكّرة الحزب التقدمي الاشتراكي يمكن أن تكون «روبة اللبن»..

والبيان الوزاري للحكومة الجديدة يمكن أن يكون أيضًا «روبة» مشابهة.

والأهم هو السؤال: أين يجب وضع هذه «الروبة» أو تلك وبعدها «لحّق على لبن».

ما يستشعره اللبنانيون اليوم، أن كلًّا من المعارضة والحكومة مُصرّ على إلقاء «الروبة» في النهر، لا بل كلٌّ منهما مصر على أن اللبن أسود.

ويتابع فيصل سلمان مذكّرًا بأن لبنان يشتهي «القرش» والبحر أصبح مأوى لأسماك «القرش» وفي ذلك تورية ذكية. يقصد بها ولا ريب مراكز القوى التي تسيطر على الاقتصاد الوطني ومفاصله، «المشكلة في اقتناع الطرفين، أن اللبن أبيض، وأنه مشتق من الحليب الأبيض، حتى ولو كانت العنزة سوداء».

يرمي كل طرف «روبته» في نهر، والنهر ينحدر باتجاه البحر، والبحر يغوص باتجاه المحيطات، والمحيطات مأوى للحيتان ولأسماك القرش، ولبنان يشحذُ «القرش».

أعلام الأدب الساخر في الشرق العربي

تتوفر في الشرق العربي أسباب لا حصر لها، تدفع بالسياسة نحو الظرف، وتجعل منها مادة للظرف والتهكم والسخرية. فهنالك المسافة الشاسعة بين وعود الحاكم، وبين ما يفي به، وهناك الفارق الكبير بين الماضي المجيد، رغم شحّ الموارد، وبين الحاضر الأليم رغم تفجر الثروة التي نرى أن أفضل وصف لها كما قال «برنارد شو» عن لحيته مقابل صلعتـه، «كثرة إنتاج وسـوء توزيع»، ثم الوعـود بتحقيق العدالة، وتأمين الحرية التي تحولت عبر قرون مظلمة، سمتها الظلم والكبت، إلى الاستبداد، والتمييز الطبقي، والأيديولوجي والطائفي والعنصري، فكان الظُّرف والسخرية المنفس الوحيد لهذه الشعوب المقهورة، وقد اختلف عيار السخرية بين بلد عربي وآخر. كما اختلف تاريخًا وديمومة باختلاف طبيعة الشعب وجغرافيته، التي أثرت على سلوكه، كما اختلف بالنسبة لمقدار الحرية التي كان الحكام يسمحون بها..

فإذا كان **الشعب العراقي** لم يشتهر بالحس الفكاهي أو بالروح المرحة، إلّا أنها لم تغب عنه خلال تاريخه الطويل، وقد سمح بها عهد الملكية بمقدار، برز في بعض المقالات الساخرة، التي كانت تكتب باللهجة العراقية الدارجة، والتي يصعب فهمها على العرب الآخرين، ولنا عودة إليها.

أما مصر فتلك حكاية أخرى، فشعب وادي النيل قد حاز على مر العصور قصب السبق في مجال الدعابة والملحة والسخرية، وذلك

انطلاقًا من فكرة الهروب من اليأس، إلى الأمل أو النشوة ولو لأوقات معدودة، فالضحكة بحدِّ ذاتها تحذير للنفس الكئيبة، ثم إن اعتماد المصريين في حياتهم على زراعة قوامها الري، في شقة طويلة وضيقة من ضفة نهر واحد، أخضعهم في آن واحد لعاملَي الأرض المحدودة، والحاكم الأعلى الذي يفرض سلطاته عليها. والمعروف أن الزراعة تحتاج إلى عدد كبير من العمال، أي إلى نسبة عالية من المواليد، استتبعت مقدارًا كبيرًا من المعاناة بسبب الفقر والمرض والعيش المأساوي. وإذ كان المصريون محصورين بين رمال الصحراء وأمواج البحر، لم يجدوا مهربًا عبر الرمال والمياه وإلى وقت متأخر، لم يتجهوا نحو الهجرة، شأن سواهم من شعوب المتوسط، فكان لا بد لهم من العثور على ضرب من الهروب الذهني، يخففون به من وضعهم الخانق، فوجدوه في الاعتقاد الجازم بحياة أخرى، وفي إدمان الحشيش، وإطلاق النكات، والتديُّن. ولقد أوجز عباس محمود العقاد هذا التعليل بقوله: (إنّ المزاح والتدين هما توأما الشخصية المصرية) ونحن نجد دليلاً فعليًا على ذلك في حياة مصطفى أمين، وكيف قضى فترات العذاب الشديد في السجن أيام عبد الناصر، بإطلاق سلسلة متصلة الحلقات من النكات، وبتصعيد الابتهالات باسم الله، ولقد أصاب «برغسون» إذ قال: «كما أن اللامبالاة هي الجو الطبيعي للضحك كذلك الضحك هو أم اللامبالاة وأبوها»(5).

ومن أبرز كتّاب السخرية السياسية في مصر، وهم يقدرون بالعشرات، **مصطفى أمين وشقيقه التوأم علي**، ومصطفى ابن العائلة البرجوازية تسنى له تلقي العلم في الولايات المتحدة الأميركية، حيث حاز الماجستير في العلوم السياسية عام 1936، وعاد إلى القاهرة ليجد أنه رغم حبه للسياسة وخوض غمارها، فإن العمل الصحافي يرضي طموحه ورغباته في التعبير عن أفكاره، أكثر من العمل السياسي والحزبي المباشر، فالتحق أولاً بمجلة «روز اليوسف» وتنقل بين كل المجلات والجرائد السياسية التهكمية في مصر، إلى أن أنشأ الجريدة

الشهيرة «أخبار اليوم» التي أُممت فيما بعد ولا تزال تصدر حتى اليوم. تأثر أمين بالثقافة الغربية، بنهجه وسلوكه الصحافي، كما تأثر بالسياسة الغربية ومال إليها. فكان لا بد له من أن يصطدم في أواخر خمسينيات القرن العشرين بالجو السائد في حينه، والذي خيمت عليه غيوم الاشتراكية، التي لم تلبث أن أمطرت تأميمًا وسلوكًا سياسيًا معاديًا للاتجاه الغربي عامة، والأميركي خاصة.

إلّا أن مصطفى أمين بقي متأثرًا بتراثه، وبطباع ورثها عن آبائه، وكونه مصريًا صميمًا، لم يشأ للسخرية أن تغيب حتى عن مقالاته الأكثر جدية والأشد إيلامًا.

سجن مصطفى أمين في زمن جمال عبد الناصر[6]، بعد أن اتهمته مراكز القوى بالتجسس للولايات المتحدة الأميركية، رغم أنه كان من أقرب الصحافيين المصريين بعد محمد حسنين هيكل للزعيم الراحل.

كتب مصطفى أمين من سجنه إلى أخيه علي أمين آلاف الرسائل، جُمعت بعد الإفراج عنه في زمن أنور السادات، في مجلدات عدة ونُشرت. وتُعتبر رسائله مرجعًا هامًا وجادًا في دراسة أخطاء الحكم (الناصري)، أي حكم من الديكتاتورية إلى البيروقراطية والمحسوبية، وهجرة الكفاءات من الوطن، إلى غباء بعض رجال السلطة وساديتهم، وكانت السخرية السياسية الحاضرة الناضرة في كل صفحة من صفحات هذه المجلدات، فلا غرابة أنه هو القائل في إحدى مقالاته «لا أستطيع الامتناع عن قول النكتة ولو أدت بي إلى السجن».

لقد مارس اللواء البسيوني آمر السجن الحربي وأعوانه على مصطفى أمين وخلال سنوات عدة التعذيب بمختلف فنونه، ومع ذلك استمر مرحًا يعالج مشاكله بالسخرية، ففي إحدى رسائله، كتب أن الجنرال بسيوني أراد أن يعاقب أحد أعوانه، فحرمه لمدة أسبوعين من متعة التعذيب فخرَّ هذا على قدميه ساجدًا باكيًا وقائلاً، سيدي دعني أعذب هذا الشاب فقط. وفي رسالة أخرى تحدث عن كلاب آمر السجن ومساعده لشؤون التعذيب فقال: كان الجنرال بسيوني آمر السجن

الحربي، يتبع شمس بدران، وكان لدى البسيوني أربعة كلاب مدرَّبة على التعذيب تدريبًا جيدًا... وهي: ركس وعنايات وغولدا ولاكي. وكانت أوامر اللواء حمزة البسيوني تمنع من نشوء أية علاقة غرامية بين ركس وغولدا، حرصًا على شرف عنايات زوجة ركس. وفي إحدى الليالي أفاق السجناء على أصوات نباح وهراش. ذلك أن عنايات ضبطت زوجها ركس في وضع غرامي مع الكلبة غولدا. وأرادت عنايات أن تحتج على هذا الفعل الفاضح في الطريق العام، ولم يُطق العاشقان هذه الغيرة العمياء من الزوجة فهجما عليها، وصرعاها وهي تستنزل اللعنات على الأزواج الخونة الكلاب!! عندها أُعلنت حالة الطوارئ في السجن، وحضر اللواء بسيوني إلى صالون السجن، وجاء الضباط والجنود يقدمون أحرَّ التعازي، وكان الرجل الذي لم تسقط من عينه دمعة واحدة حزنًا على العشرات الذين قتلهم في التعذيب، يبكي على عنايات بكاء الأطفال. قال لنا أحد الضباط: حظكم من السماء أن وقع الحادث ليلاً، عندما كنتم في «الزنازين» فاكتفى اللواء بجلد كل من حراس الليل مئة جلدة! فصحنا بصوت واحد «تحيا العدالة»! ثم امتنع الكلب «لاكي» عن الطعام، وقال الطبيب إنه مرض الشيخوخة، ونصح بقتله وهو نائم، وبكى ملك التعذيب على «لاكي» بكاءً مرًا، وأعلن حالة الحداد ودخل علينا أحد الحراس، وانهال علينا بالسوط وصاح بنا: ابكوا... ابكوا يا أولاد الكلب! ابكوا على سيدكم «لاكي».. فاضطررنا أن نبكي على الكلب الذي طالما نهشنا بأنيابه وأدمانا بمخالبه...

وقد اشتهر في مصر كما ذكرنا، عشرات الأدباء الساخرين، وكانت جرعة السياسة في أدبهم التهكمي تختلف بين كاتب وآخر. **فتوفيق الحكيم** كان يكتب أغلب مقالاته في قالب حوار بينه وبين حماره.. ومن أطرف ما كتب تحت عنوان «غلبني حماري» ينادي به الحكيم بالأفكار والمبادئ بينما الحمار ينصحه بجمع المال، والاهتمام بمستقبله، نقتطع منها ما يلي:

□ الحمار: وأخيرًا.

ـ الحكيم: وأخيرًا ماذا؟

□ الحمار: مستقبلي. ألم تفكر في مستقبلي؟

ـ الحكيم: عجبًا، لأول مرَّة أسمع حمارًا يتحدّث في مستقبله!

□ الحمار: ما وجه العجب؟ ألست مخلوقًا حيًا، يعيش خاضعًا لقانون الزمن؟ أليس لي ماضٍ وحاضر ومستقبل مثل جميع المخلوقات والكائنات؟ لقد عشت معك حتى الآن عاريًا.. لا سرج من ذهب.. ولا «رشة» فضة.. ولا بردعة مرصّعة.. ولا..

ـ الحكيم: شيء جميل!... أهذا ما يشغلك الآن؟!

□ الحمار: هذا ما يشغل اليوم كل إنسان، إن الناس كلها من حولنا تفكر في الذهب..، وتعيش للذهب..، وتتنفس بالذهب.. وأنا وأنت قاعد ننظر إلى القوم من علٍ متدثرين من أسمال أفكارنا وأطمار فلسفتنا.

إلى أن يختم الحوار بما يلي:

ـ الحكيم: أيها الحمار العصري... إن الأفكار والمبادئ ليست من البدع القديمة عند كافة الشعوب...، انظر حولك تجد شعوبًا لم تزل تبذل دماءها سخية من أجل أفكار ومبادئ.. ما هو الدافع الذي يدفع هؤلاء الملايين من الشباب الناضر، إلى الجود بأرواحه ودمائه؟ أهنالك دافع آخر غير بضع كلمات آمن بها، فدفع ثمنها دمه الغالي. كلا.. إن الأفكار والمبادئ ليست من السلع القديمة، إلّا في نظرنا نحن.. وهي لم تزل حافظة قوتها في كثير من الأمم والشعوب، وهي ما برحت جديرة أن تبذل في سبيلها المهج والأرواح.. قديرة على أن تنير في القلوب حب التضحية بغير ثمن.

□ الحمار: إنك لتدهشني، كيف استطاع عصر واحد أن يجمع هذا التناقض؟ دماء تسيل في مجرى.. وذهب يجري في مجرى آخر؟

ـ الحكيم: لقد اجتمع الضدان في كل زمان... منذ فجر الخليقة

والعظمة تسير إلى جانب الحقارة، والسمو إلى جانب التدهور..
والعلو إلى جانب الحضيض، ولكن العبرة أي الطريقين تختار لنفسك ولأمتك؟

▫ الحمار: إذا سألتني أن أختار لنفسي فإني...

ـ الحكيم: انطق...

▫ الحمار: دعني أفكر، فإنك تعلم أني لا أعطيك ثمرة تفكيري، إلّا بعد تروٍّ وتأمل.

ـ الحكيم: مجرد التردد في الاختيار، يجعلني أحكم عليك بأنك حمار..

▫ الحمار: أتظن أني وحدي؟ اطرح سؤالك على الناس.. وخيّرهم بين المال، والمبادئ، ثم أحص بنفسك عدد المترددين...

ـ الحكيم: آه... والله «غُلب حماري».

وتوفيق الحكيم كما وصفته مرة «مجلة الاثنين والدنيا»[7]، هو قصصي من الطراز الأول في حواره، وهو كالصائغ الماهر الذي يأخذ من كل حلية قديمة أحسن ما فيها، ثم يجعل منها حلية جديدة فتنة للناظرين!

وهو في علم الأدب من حيث الاقتباس في جرأة وثقة، ولا أقول «السطو» كمحمد عبد الوهاب في عالم الموسيقى! وتوفيق الحكيم يشعر بمرارة الحرمان، وتعتمل في نفسه أشجانه، فتدفعه إلى اصطناع الثورة على المرأة، علّه يجسد من ثورته هذه بابًا يدخل منه إلى تلك القلعة التي عزَّت عليه!

فهو عدو المرأة فيما يعلم الناس، ولقد نشأ توفيق نشأة أرستقراطية ودرج في كنف الغنى، وشبَّ عن الطوق، الأمر الذي لا يتفق إطلاقًا مع الحياة التي يحياها الآن، ولكنَّه حب المال الذي غيَّر مجرى حياته، ودفعه إلى المجد في صورة فنان!!

وفي كلامنا عن أعلام الظُّرف الصحافي عند المصريين لا يمكن

إغفال اسم **فكري أباظة**، رئيس تحرير مجلة «المصور» المصرية، في عهد الملكية والجمهورية، وهو فنان في مهنته، خفيف الروح، وهو كما كتب عنه أحد رفاقه الصحافيين[8]: «إذا ما انحرف عن طبيعته، تخلى عنه الفن وجافته خفة الروح التي توفرت فيه، بما لم تتوفر بمثله في فنان آخر.. إذ لازمته في أطواره كلها، فهو الكاتب الخفيف الظل، والجليس الذي لا يمل.. والخطيب الذي يمتلك على مستمعيه المشاعر».

لقد جنت على فكري أباظة خفة روحه، وجعلته يسخر من كل أجهزة الحكم، ويعارض بالتالي كل وزارة، يعارضها صحافيًا ساخرًا، ويعارضها نائبًا في مجلس النواب، لذلك استبعد عن الحكم في أغلب العهود.

أما **محمد التابعي**، فقد كان أول كاتب ساخر من نوعه في اللغة العربية، وقد تخرج على أيادي الكثيرين. اعتمد في رأي المراقبين على حاسة الشم الصحافية، فقد كان «يشم» الجمهور، ويعلم مقدمًا ميوله واتجاهاته.

ومن أهم أعلام السخرية السياسية في مصر، بلا ريب **كامل الشناوي**، الشاعر البوهيمي، الصريح، الكسول، صاحب المروءة، «شاعر ملهم وكاتب ساحر ساخر»[9].

أما **أحمد الصاوي محمد**، الذي لُقِّبَ بـ «حلاوى الصحافة» لحلاوة كتابته، فقد كان من ذلك الرعيل الذي افتقدناه في عالم الكتابة الساخرة... الذي بدأ يخسر، وانقرض أو كاد.

ولم تفت السخرية أيًا من الكتَّاب المصريين، حتى أكثرهم جديّة من **محمود تيمور** إلى **أحمد أمين** مرورًا بالصحافي **أحمد سعيد** وهو غير أحمد سعيد مذيع «صوت العرب»، الذي أفرد بابًا في مجلة «الاثنين والدنيا»، لمحاكمة الوزراء تحت عنوان، صاحب المعالي على كرسي الاعتراف. نقتطف منها ما يلي:

□ ما اسمك؟

ـ أنا الآن «صاحب المعالي».

□ هل أنت راضٍ عن سياسة الوزارة؟

ـ وهل أعرف شيئًا عن سياستها، حتى أرضى أو أغضب؟

□ إذن كيف تكون متضامنًا مع الوزارة في المسؤولية عن سياستها؟

ـ الشغل عاوز كده!

□ ما رأيك في الحالة الحاضرة؟

ـ الحالة مش ولا بد!

□ لماذا لا تطالب بالإصلاح؟

ـ أطالب مين؟... حد فاضي!.

وآخر عبارة وردت «حد فاضي» هي لعمري منتهى السخرية من الحكومة التي تنشغل بكل شيء سوى بعملها..

أما في لبنان

فأستاذ المقال الصحافي الساخر، كان بلا منازع، **اسكندر الرياشي** «الصحافي التائه». كتب الرياشي في صحيفته العشرات من المقالات الساخرة، كما أصدر عدة مؤلفات، كان أشهرها «قبل وبعد» الذي روى به أسرار رجال الحكم ونشاطاتهم من وراء الكواليس، ودور المرأة في كل هذا وذاك في عهد الانتداب، كما في بداية العهد الاستقلالي.

وقد تجاوزت شهرة اسكندر الرياشي حدود بلاده إلى أقطار العرب وحتى إلى بلاد أوروبا، رغم أن الاتصال في حينه لم يكن على ما هو عليه اليوم من سهولة وسرعة وتطور..

«أثناء مروره ببيروت سنة 1936، كلف الملك «ليوبولد» البلجيكي قنصله العام بزيارة صاحب جريدة «الصحافي التائه» لإبلاغه رسالة من الملك تقول: (ما كتبته جريدتك في صدد زيارتي إلى بيروت، فيه من

اللياقة والبراعة والخبرة الصحافية ما أدهشني، وذلك لعدم معرفتي أن الصحافة في الشرق بلغت هذا المستوى من اللياقة، والحذاقة). صاحب هذه الجريدة التي توقفت منذ زمن بعيد، هو المرحوم اسكندر الرياشي الذي لقّب في ذات يوم بـ«فولتير الشرق»[10].

مع هذا الصحافي الظريف الذي كان يقرأ ألف سطر ليكتب سطرًا واحدًا، نسترجع بعض ما كتبه قلمه الساخر. كتب اسكندر رياشي عن الحزب الملكي الأول:

أول مرة تحدث فيها الناس هنا عن عرش بلبنان، كان ذلك في سنة 1926 لما شكّل حبيب البستاني، ذلك السياسي المرن، الموصوف بالأديب الكبير، الحزب الملكي في لبنان، وهو حزب اقتصر كثيرًا لدرجة كنا نهزأ به، ونقول إن حبيب البستاني هو رئيس الحزب وهيئته وأعضاؤه. وكان بعضنا يقول وأخصهم من المسلمين:

ـ إذا صار في لبنان عرش، فلماذا لا نأخذ أحد الأمراء العرب؟

وهنا كانت الأنظار تتجه بالأكثر نحو أمير من الشرفاء أبناء الملك حسين، الذي كان يوزع أبناءه بكل سهولة ملوكًا في البلدان العربية، دون منازع، أو صعوبة.

وظللنا نسمع من هنا وهناك، ولكن بصورة متقطعة حديث قيام عرش بلبنان، حتى مات حبيب البستاني، ومات حزبه الملكي معه، فانطفأ خبر العرش، مما أثبت أننا كنا نقول الحقيقة، عندما نقول إنه هو رئيس الحزب، وأعضاء الحزب وهيئة الحزب!

ومضت بعد ذلك أربع سنوات، مشت فيها الجمهورية اللبنانية إلى الأمام، وما عدنا سمعنا في خلالها أي شيء عن عرش في لبنان.

حتى طلع علينا الفرنسيون المنتدبون ذات يوم من شهر نيسان/ ابريل سنة 1927 بحكاية «ابن عياد»، الأمير التونسي العربي الأرستقراطي، يريدون التخلص منه في تونس، ومن مطالبته بعرش ـ حيث كان يناوئ سياستهم، فرشحوه لعرش أميري بلبنان.

وأخذت دوائر الاستخبارات، والدعاية بالمفوضية السامية، تجس النبض، وتدعو لمشروعها بالخير، محاولة إقناع السياسيين اللبنانيين باعتناقه، وهكذا فتح باب العرش في لبنان من جديد إنما هذه المرّة على نطاق أوسع!.

نابليون الثالث الجديد

وقال الأمير جورج لطف الله ـ سيد قصر الجزيرة بمصر، والحديث النعمة في الثروة، والجاه والإدارة الحجازية ـ لماذا ابن عياد وليس أنا؟..

وجاء للبنان بجنيهاته وعبيده السود وحاشيته التي تأكل الأخضر واليابس، وجواريه المتعددات الجنسيات والألوان، وأطماعه السياسية البعيدة المدى، ونزل في قصر الوجيه السرسقي الياس إبراهيم سرسق، فجعله ملتقى الشعوب، والأمم الطامعة بأمواله الكثيرة.

وكان الأمير جورج لطف الله، قد امتلأ بفكرة العرش، وتيقن من إقامته له والتربع فيه، لدرجة جعلتنا نحن الصحافيين والسياسيين الذين نحوم كالنحل حول صناديقه، نغدق عليه جميع الألقاب الملكية، حتى وصل الداعي بنوع خاص، لإعطائه لقب صاحب السمو الملكي، المونسنيور جورج لطف الله مما كلّفه مبلغًا محترمًا.

وعلى الأغلب أنه بعدما أخفق وفشل في كل شيء، تعزى عن الملايين التي دفعها في سبيل العرش الموهوم بهذه الألقاب الجميلة التي ظل حتى آخر ساعة من حياته، يحتم على المتحدثين معه مخاطبته بها!..

ومن أطرف ما كتب اسكندر الرياشي، مقالاته عن رؤساء لبنان، حيث كان يعتمد «الكاريكاتور» التحريري في وصفهم، مقابل الكاريكاتور التصويري الذي شاع في الصحف الساخرة ولم يزل.

ومن هذه المقالات نقتطف بعض ما كتبه عن الرئيس شارل دباس حيث تبرز دقة الوصف، وبلاغة التعبير، التي تُظهر سخرية طريفة توخز ولا تدمي، وكأن الإبر التي يستعملها الرياشي في دعابته، هي من النوع الذي لا يجرح مهما كان وخزها عميقًا.

ففي إحدى مقالاته في «الصحافي التائه» كتب الرياشي:

«لقد عاصرنا وصادقنا وتعاملنا مع جميع رؤساء الجمهورية في لبنان، منذ اختار الفرنسيون المرحوم شارل دباس أول رئيس للجمهورية اللبنانية في 24 أيار/مايو سنة 1926، في عهد المفوض السامي الفرنسي الكونت دي جوفنيل، وقد أعددنا سلسلة من الأبحاث عن كل رئيس من الرؤساء الذين تعاقبوا على الحكم منذ ذلك الحين، بادئًا بالرئيس الأول شارل دباس، ولا شك في أن هذا الموضوع الطريف يجد صدى زاهيًا في هذه المرحلة الجديدة من حياتنا الجديدة النيابية، ويربط الحاضر الذي نعيش بالماضي الذي نسينا.

لماذا كان الفرنسيون يلقبون شارل دباس أول رئيس لجمهورية لبنان بملك الداهومي؟

كان شارل الدباس يلبس في الحفلات الرسمية برنيطة «الجوبيس» السوداء، فوق رأس سمرته أكثر المعدل العادي، ويرتدي (الرادنكوت) فوق جسد قصير وهزيل، ذي فخذين ملتويين مترهلين يحيط به رهط من الضباط والمستشارين الفرنسيين البيض الوجوه، الرشيقي القامات، يرتدون البزات البراقة الجميلة، الحسنيّ الهندام. . وكان الدباس يتوسطهم، ويمشي أمامهم مثل ذلك الملك الأفريقي الأسود الذي يستعمرون بلاده. فلا يجدون بين انتدابهم على لبنان وبين استعمارهم للداهومي من فارق كبير ـ إلّا الراندكوت الذي كان يلبسه الدبّاس!.

وكان المفوض السامي الجنرال «ويغاند»، يقول لرجال المفوضية

والجيش: لا فرق بين الدباس وملك الداهومي سوى أنكم كنتم تضعون ملك الداهومي في جيبكم، في حين أن الدباس هو الذي يضعكم في جيبه!».

كان اسكندر الرياشي رحمه الله، بالإضافة إلى قلمه الساخر من أطرف المحدثين في المجالس السياسية، وكان واثقًا من نفسه بعيدًا عن العقد النفسية، بحيث لم يكن يتورع من السخرية من نفسه، فكان يقول للمرتشين «لا تحاولوا التستر بثياب العفة، وعزة النفس، فأنا مثلكم بل أوّلكم» وكان يقول لأرذال السياسة، «لا تخشوا الاعتراف بالرذالة أمامي فأنا أرذلكم».

ومن أطرف ما روي عنه، حكايته مع المفوض السامي «دي مارتيل» الذي قرّر «تعيين» شكري بخاش وهو من وجهاء زحلة نائبًا عن البقاع بالانتخاب طبعًا، وكلّف الرياشي بالذهاب إلى بعلبك، وإقناع «ملحم قاسم المصري» وهو من وجهاء المنطقة بتأييد مرشحه بخاش، وأعطاه ستة آلاف ليرة، وكانت ثروة في ذلك الزمن، لإعطائها لملحم قاسم المذكور... وبقية القصة سبق وعرضناها في صفحات هذا الكتاب... ولا نود تكرارها.

وهنالك حكاية أخرى، لا تقل طرافة عن سابقتها، وتتلخص بأن المرحوم رياض الصلح وكان رئيسًا للحكومة، استدعى الرياشي مرّة، وأوصاه خيرًا في مقالاته بالسيد نجيب صالحة، وهو ثري كبير كان قد عاد لتوِّه من العربية السعودية مع ثروة كبيرة.

وبعد الخدمات الصحافية التي قدمها الرياشي لنجيب صالحة خذل هذا الأخير الرياشي ذا الجيوب الجائعة إلى المال.. وبعد حوار لطيف سبق وأشرنا إليه على متن هذا الكتاب، تنتهي الحكاية بسؤال نجيب صالحة للرياشي: أنا محتار كيف بدي أشكرك؟ فأجابه الرياشي ولماذا الحيرة، فمنذ اليوم الذي اخترع فيه أهل الصين المال.. وقاموا بصك النقود.. هل بقي أحد محتارًا؟

إن الحديث عن اسكندر الرياشي، كأحد أرباب الدعابة والسخرية من السياسة والسياسيين، يطول ولا ينتهي ولا يتسع المجال هنا لذكر كل ما روي عنه، وما رواه مع أنه وحده يستحق مجلدًا في هذا المضمار. وبعد اسكندر رياشي، لا شك أن أول من يتبادر إلى ذهن الباحث في مجال الطرافة الصحافية، وخاصة السياسية منها، هو سعيد فريحة.

فالصبي اليتيم الذي جاء من حمص إلى بيروت مع أمه الأرملة وإخوته الصغار سعيًا وراء لقمة العيش، بعد أن عمل صبيَّ حلّاق، لم يصبح بجدِّه وكدِّه وعصاميته صحافيًا فحسب، بل عملاقًا في مهنة البحث عن المتاعب، وعندما نام قرير العين في عام 1978، ترك وراءه امبراطورية في عالم الصحافة، تسمى بكل بساطة «دار الصياد» تيمنًا بالصياد مجلته الأولى، التي أصدرها يوم استقلال لبنان 22 تشرين الأول/ أكتوبر 1943. وهي اليوم بعهدة أولاده بسام وإلهام وعصام وحيث يروي هذا الصرح كل يوم عصامية وعبقرية سعيد فريحة.

وقد تأثر سعيد فريحة باسكندر الرياشي وكان بدوره أستاذًا بالصحافة وكان أسلوبه الساخر الممتع من خلال جعبته، لا يوفِّر أحدًا حتى نفسه، وكان يفتخر بعصاميته. أما كيف أصدر «الصياد» المجلة الأولى في لبنان والمحيط، خلال ثلاثة عقود على الأقل، فيجيب فريحة عن هذا السؤال بقلمه:

كيف أصدرتُ «الصياد»؟؟

كان حلم الأستاذ حبيب أبو شهلا وهو في العشرين من عمره منصب الوزارة.. ثم يوم «بشامون» الأغر[11].

وكان حلم الأمير مجيد أرسلان زعامة الجبل، ولقب «عطوفة القائد العام». أما حلم الداعي فكان منذ عشرين سنة كما يلي:

أولاً: أن أتعلم القراءة والكتابة.

ثانيًا: أن أكون كاتبًا.

ثالثًا: أن أصير صاحب مجلة.

ومثل هذا الحلم لا يتحقق عادة إلا بدخول المدارس والمعاهد، وبالحصول على ثروة نقدية، وعلى موهبة من الله تعالى...

أما المدارس والمعاهد فيروى لي أن والدتي أدخلتني إلى مدرسة «الثلاثة الأقمار»، ثم إلى مدرسة «برج حمود»، ثم جاءت الحرب الكونية الماضية، وانتهى عهد الدراسة قبل أن أحفظ الحروف الأبجدية..

وأما الثروة، فأذكر جيدًا أن والدي أورثني أشياء كثيرة ـ ومنها اليتم والعناد ـ ولكنه لم يورثني شيئًا من المال على الإطلاق[12].

وفي مقال في العدد الثالث «عن ذكرياته عشية الاستقلال» وتحت عنوان «في بشامون مع عطوفة القائد العام»، ويقصد بذلك الأمير مجيد أرسلان، الذي فرَّ مع عدد من زعماء البلاد إلى «بشامون» على أثر اعتقال السلطات الفرنسية للرئيسين بشارة الخوري ورياض الصلح مع بعض الوزراء حيث نُقلوا إلى قلعة راشيا، أعلن الأمير مجيد إرسلان من بشامون الثورة على الفرنسيين حيث شُكلت حكومة ظل، ورغم التعاطف الحماسي لسعيد فريحة، مع ثوار بشامون، لم يتخلَّ عن طرافته حيث كتب:

ـ إلى أين ذاهب؟

ـ إلى فوق...

ـ من فوق...

وهكذا أصبح «فوق» ـ أي مقر الحكومة الشرعية في بشامون ـ مكانًا للنزهة وشم الهواء.. فبدلاً من أن يذهب أحدنا إلى السعديات أو إلى نبع الفوّار مثلاً يذهب إلى بشامون.

أما أركان الحكومة الشرعية وأهل البلاط، فلم يكونوا مستائين أو

متذمرين من سيل الزيارات لأن معظم الزائرين الكرام كانوا يحملون الهدايا والعطايا فالويسكي والسمك سلطان إبراهيم، والسيجار «هافانا» وغيرها من الأشياء كانت تُرسل بالصناديق. . هذا عدا العجول المسمنة والخراف المعلوفة، وخوابي الزيت، والسيارات المشحونة عنبًا، وزبيبًا وجوزًا ولوزًا. . .

حتى ودَّ بعضهم أن تطول أيام بشامون، ليستمر تدفُّق هذه النعم والخيرات التي تكفي لتموين جيش كامل! . . .

وأضربنا نحن عن الذهاب إلى بشامون لأن أعمال المؤتمر الوطني، ولجنة الدعاية والنشر، وغير ذلك من الأعمال كانت تحتم علينا البقاء في العاصمة، لكن عطوفة الأمير مجيد أرسلان، أرسل ينذرنا بأن نذهب إليه، وإلّا فقعنا مرسومًا خطيرًا. . .

وبادرنا إلى الذهاب، وقبل وصولنا إلى مقر القيادة العامة، أوقفت سيارتنا مرات عدة، وفي كل مرَّة كانت تصوَّب إلى صدورنا أشياء مرعبة ثم تنهال علينا الأسئلة التالية:

من أنت؟ ومن أمك؟ ومن أبوك؟ وماذا تحمل معك؟ سمكًا أم عنبًا أم ويسكي مع الصودا؟!.

لقد أرسى سعيد فريحة دعائم «دار الصياد» التي أصبحت من أهم دور الصحف في بلاد العرب قاطبة، وتعهدها بروحه وأعصابه، إلّا أن روح الدعابة في صحف الدار، غادرت مع روح مؤسسها، فـ«الصياد» ارتدت ثيابًا قشيبة، و«الأنوار» هي الجريدة اليومية الرزينة، والصحف الأخرى منها الفني، والثقافي، وذلك خارج عن موضوع بحثنا.

إلى أن طلعت «الأنوار» في عام 1995 بعدة مقالات ساخرة بتوقيع «أمينة عبد الله» فاجأت بها الرأي العام اللبناني، وكانت حديث الأندية السياسية لجرأتها، لا سيما أن هدفها كان مقام الرئاسة. ففي إحداها سخرت من الحاشية، وسمت رجالاً بالحواشي، ثم بآكلي المحاشي. . . إلخ. .

وأما المقال الأكثر جرأة، وقد كتبته صاحبة التوقيع!! قبل اجتماع

المجلس النيابي اللبناني للتمديد للرئيس بشهر ونيِّف تقريبًا، فقد جاء بعنوان:

«إذا كنت تملك مليون دولار، فأنت حكمًا مع التمديد» وهنا نورده بأكمله لطرافته ولتعذّر اختصاره:

«إذا كنت تملك ثروة توازي مليون دولار، فلا تفاجأ إذا وصلتك ذات يوم بطاقة تدعوك إلى حفلة طرب، وتبرع في قصر الرئاسة، ذلك أن هذا الرقم يجعلك من أصحاب الحظوظ من دون أن تدري. ولا همّ كيف اكتشفوا رقمك الذي أهم منك...

أما إذا كنت تملك ثروة تقدّر بخمسة ملايين دولار مثلاً، فيمكنك أن تتوقع موكبًا رئاسيًا يستقبلك في المطار، كما يودعك في كل مرَّة غبت فيها مسافرًا، وستلقى هناك حفاوة وتسهيلات تبدأ من السيارة، وتنتهي معك على سلّم الطائرة...

أما إذا أنعم الله عليك بثروة تزيد عن عشرين مليون دولار، فتوقع أن تصبح صديقًا حميمًا للحكم، ولا تتفاجأ إذا عرضوا عليك منصبًا وزاريًا، أو لقبًا فخريًا، أو قلّدوك وسامًا تحمله، ليفخر به أولادك وأحفادك.

أما إذا كنت تملك أكثر من ذلك فلا تعود هناك أهمية للرقم، باعتبار أنك بعد العشرين مليون دولار، تصبح من أصحاب الثروات العريقة والمستقرة، ولا تعود حينذاك عرضة للاهتزاز والإفلاس، فيمكنك حينذاك أن تتوقع هبوط جميع النعم الرئاسية عليك دفعة واحدة، في الليل كما في النهار، كما في كل الفصول، فأنت مع هذا الرقم تملك بالتأكيد طائرة خاصة، أو يختًا فخمًا أو منزلاً أو قصرًا منيفًا في إحدى عواصم العالم الراقي والمتمدن، والتي يحتاج

إلى ارتيادها أهل الحكم وأقرباؤهم، وحاشيتهم للتخفيف من همومهم بعيدًا عن فقراء وطنهم، وروائح القذارة في شوارع بلادهم وشواطئها. . فأهل الحكم يشعرون أنهم خلقوا هناك في البلاد الراقية، وقدرهم أن يحكموا بلدًا متخلفًا لم يختاروا أن يولدوا فيه، وهو وأهله مدعاة لخجلهم واشمئزازهم.

وإذا كنت من أصحاب هذا الرقم أيضًا، فاعلم أن أحزانك هي أحزان أهل الحكم كُلهم. . . وأن أفراحك أفراحهم، يبكون معك غزير الدمع إذا فقدت عزيزًا عليك حتى ولو كان هذا العزيز هرًا أليفًا، ربيته في بيتك، ويصطفون معك في تقبل التعازي متَّشحين بسواد لم يألفوه، وبحزن لا يتجاوز وجوههم، وبحسرة لم يعرفوا طعمها. .

أما إذا زوجت ابنك أو أخاك، فيشاركونك في ترتيبات الفرح والعرس، وفي تحضير لائحة الطعام، وبالسؤال اليومي عما إذا كنت تنتظر حفيدًا بعد أول يوم من الزفاف، فأنت شغلهم الشاغل، وقلبهم النابض، وعقلهم المهموم، والمهتم بك وبتفاصيلك في كل شاردة وواردة، ذلك أن «صديقهم الحميم» الذي وجدوا معه متعة الحياة التي ترفع عنهم أعباء الحكم ومستلزماته، لأنهم اكتشفوك خلال وجودهم فيه، فكنت من أسباب استمرارهم في السلطة ولولا أمثالك لما بقوا.

كما تستطيع عبر هذه الثروة أن تتوقع أن تصبح «شريكًا» دائمًا في مجال إعمار البلد، وإحياء مرافقه في البنية التحتية وغيرها، لأنك رصيد قومي ووطني يفخر الحكم والبلاد بك وبأمثالك. فتنهال عليك الالتزامات والمشاريع من كل حدب وصوب. ويرجونك أن تقبل بها خدمة لبلادك لأنك معروف في العالم. وما همّ إن كنت «البقًا فشاركت لهم قريبًا أو صديقًا، أو حفظت لهم أسهمًا، أو

تكرَّمت لهم بتبرع. فأنت منهم وفيهم في موقع الرمش من العين، يحفظونك ويتبنون مصالحك إذا «تجرأ» عليك أحد.. وطالبك بحقوق للدولة عندك، فيمكنك أن تتنبأ له بسوء المصير والنفي إلى أبعد أصقاع الأرض، فهم لا يقدرون على «زعلك» وأنت العزيز.

ولماذا ترغب بغيرهم من الحكام، ممن قد لا تحصل معه على هذا التبني، وربما كلفك ذلك أكثر أو أقل، أو ربما لم يقبل غيرهم بك، أو ربما كان غيرهم من ذهنية لا تتقبل تسهيلات الأثرياء على حساب العامة فأنت حينئذٍ مغبون، ومصالحك مغرضة، ومشاريعك والتزاماتك متعثرة وربما انفرطت مع غيرهم حلقة الميسورين المتكتلة حولهم، كالأخطبوط تحميهم ويحمونها في مواجهة عيون الحساد والمغتاظين.

ويسألون: إن كنت تملك كل ذلك، أو جزءًا منه أقل أو أكثر، أفليس من واجبك أن تكون مع التمديد؟ بل أنت حكمًا معه.

أمينة عبد الله[13]

لقد أحدث هذا المقال الساخر ضجة في الأوساط السياسية والاجتماعية في لبنان، بعد أن اغترب الظريف السياسي عن صحافته، سيما خلال خمس عشرة سنة من الحرب التي لم يكن أربابها يستسيغون النكتة ولا يغفرون التهكم، إلّا أن التوقيع كان في نظر الحشريين أهم من المحتوى. فمن هي أمينة عبد الله؟ اعتبر الكثيرون أن الاسم مستعار، وأن المقال يحمل في طياته نكهة المغفور له سعيد فريحة التهكمية. وهمس بعضهم أن إلهام سعيد فريحة هي أمينة عبد الله، واعتبروا أن لا غرابة في ذلك فالبنت سرُّ أبيها.

ومن الرعيل الأول لأعلام الظُّرف السياسي في لبنان، كان **جبران تويني**، مؤسس «النهار»، ومن قبلها «الأحرار المصورة» التي ماتت وهي رضيع. وفيما يلي جزء من مقال ساخر كتبه مدافعًا عن زميل له يدعى

إبراهيم النجار ومهاجمًا رئيس الجمهورية شارل دباس.

قال تويني بما يعتبر دفاعًا عن كل كاتب في أمته، إن إبراهيم النجار هو ذلك الصحافي التائه الذي رافقه النحس طول الحياة، مع كل ما في دماغه من ذكاء، هو الذي كان والدباس في الآستانة يعيشان في غرفة واحدة، فأمسى كاتبًا من كتّاب دولة طويلة عريضة يتولى شؤونها الدباس ـ ومصير كل من حمل القلم في هذه البلاد كمصير النجار «ينجّر» في أول حياته الخوازيق للحكومات والناس ـ وينتهي به الأمر إلى ركوب ألعن وأغلظ خازوق[14].

وكان تويني يكتب بعض افتتاحياته بتوقيع «حلاق»، وعندما كان يقسو بالسخرية، كان يسميها «حلاقة على الناشف» وكثيرًا ما كتب بأسماء مستعارة، حتى أنه كان ينسب بعض المقالات أو القصائد الساخرة إلى غيره، كما حصل بقصيدة مطلعها «سوزان.. قد شط ريقي»، التي نسبها إلى الشاعر كامل شعيب العاملي دون إذن من الأخير، ولنا عودة إلى هذه القصيدة في باب الشعر..

انحسر المقال الساخر في لبنان كما في مصر، وبالتزامن، ففي مصر وتحديدًا في زمن الرئيس جمال عبد الناصر، انحرف المقال الساخر إلى المجتمع عوضًا عن السياسة، وفي لبنان أيام حكم فؤاد شهاب، وعلى أثر ثورة 1958، لم يكن قد بقي في ميدان الأدب الساخر في لبنان، سوى من تبقى من الرعيل الأول، وعلى رأسهم سعيد فريحة، الذي كان متعاطفًا مع الحكم الشهابي، نظرًا لعلاقة هذا الحكم الوطيدة بالرئيس جمال عبد الناصر، وقد برزت في هذا العهد ولأول مرّة في لبنان ظاهرة المسرح التهكمي الساخر.. مع مسرح الساعة العاشرة، ومسرح شوشو... إلخ. ولنا عودة إلى ذلك.

ومن ميزات المقال السياسي الساخر أنه يلاقي قبولاً لدى القارئ، لا يلاقيه المقال الجدي القاتم، فالرسالة ذاتها يمكنها الوصول إلى قلب القارئ وعقله بسهولة وسلاسة، إذا ما غُلِّفت بغلاف طريف، وتبقى في

ضميره وذاكرته مدة أطول إذا ما أُرفقت بحكاية طريفة تحمل في طياتها مغزى الرسالة، وقد اشتهر في وقتنا الحاضر، الكاتب المغفور له **معروف سويد**، الذي كتب أسبوعيًا الصفحة الأخيرة من مجلة «الشراع» اللبنانية، بأسلوب طريف لعله الوحيد من نوعه في لبنان في أيامنا الحاضرة، ولا يخلو أسلوب سويد من نقد لاذع، وتحذير من العواقب في قالب فكاهي تهكمي، يطاول أحيانًا الشعب اللبناني بأسره، مرورًا بطوائفه ووزرائه وموظفي الإدارة في أجهزة حكمه. ومعروف سويد الذي عمل حوالى نصف قرن في الإدارة اللبنانية، وتحديدًا في وزارة العمل، بدأ عمله الصحافي في أواخر الثمانينيات، يظهر موهبة كبيرة كانت نائمة حوالي نصف قرن تحت مكتبه الوظيفي.

وورد في مقال طريف هادف، ينتقد به سويد ديمومة الكرسي الوزاري، لبعض الوزراء نشرته مجلة «الشراع» البيروتية[15]:

«وحياة الوزير في لبنان كانت وما زالت كحياة الزهور تطلع في فصول، أو نبات لأكثر من فصل، ثم تزول، عدا حكومة الرئيس رفيق الحريري التي يبقى وزيرها إلى ما شاء الله، وهي ليست قاعدة، بل هي ظاهرة استثنائية في حياة الوزراء.

إذن فالأمر عندنا يختلف عن مثيله في دول عربية شتى، بعضها يعيّن وزيرها، فلا يغادر وزارته إلّا بعد سنين، وأعرف دولة عزيزة عينت وزيرًا في حكومتها، ثم نسيت هذا الوزير، فبقي في الوزارة أكثر من عشرين سنة.

وأنا ـ وأعوذ بالله من كلمة «أنا» لفرط ما عشت رئيسًا لديوان الوزراء، صرت أفهم طباعهم وأخلاقهم وطموحهم ونزواتهم، فور جلوس الواحد منهم ومن أول أسبوع ـ في الوزارة ـ ذلك أن رئيس الديوان يجب أن يكون دائمًا شغوفًا بالفراسة، ملمًّا بعلم النفس، فإذا لم يكن هكذا، فالتكرار ـ حفظك الله ـ يعلّم الحمار.

والصفات المشتركة بين الوزراء كثيرة، فما منهم واحد وقد جلس

في كرسي الوزارة يحب مغادرتها، ولعلَّ أطرف وزير مرَّ بي هو العالم العلاّمة الفيلسوف الدكتور عبد الرحمن اللبان، رحمة الله عليه، فقد كان نمطًا غريبًا في سلوك الوزراء، كان رجلاً مفكرًا، وصحافيًا وفنانًا، ورسامًا ومغنيًا، وطبيب أمراض عقلية في آن واحد. . وكان إلى جانب ذلك كله صاحب نكتة، وسهر ومرح وحياة تنشد الفرح. . وكان بالإضافة إلى هذه الصفات صديقًا لي قبل الوزارة وبعدها.

أذكر حين تولى عبد الرحمن الوزارة، وقف أمام مكتبه، ووقفت إليه أرحب به مع باقي الموظفين. ولم يجلس عبد الرحمن، فقد استقبلنا واقفًا، وتحدث إلينا واقفًا، ثم غادر مكتبه الموظفون وبقيت معه، فقلت له، تفضل واجلس يا معالي الوزير، مبروك عليك الكرسي.

ضحك وقال، وهل دامت لأحد يا معروف؟

قلت: إن شاء الله تدوم عمرًا فعمرًا.

ضحك وقال: لا تخف، سوف تدوم بإذن الله.

سألته: كيف؟

وكعادته حين يريد إرسال طرفة أو رواية نكتة أو إطلاق مزحة على البديهة، فتح حقيبة «السامسونايت» وأخرج منها إصبع معجون وأدناه مني قائلاً:

انظر. . ما هذا؟

قلت له: لا أعرف. .

قال: هذا معجون «باتكس» Patex اللاصق العجيب الذي يلحم «قفاي» بالكرسي لحام الأوكسجين. . فـ«مين» راح يشيلني؟

وحقًا لم «يشله» الواحد الأحد. . لم يمتعني في خدمته سوى بضعة شهور. . وقد نعمت بفيء صداقته سنوات من أزهى الزهور».

(انتهت المقالة)

يعتمد سويد في مقالاته محاورًا وهميًا سماه «حسنين» وحسنين هذا كما يقول اسمه هو مصري، مقيم في لبنان، أو يتردد عليه، وهو كما يقول الكاتب سويد يتحلّى عندما ينتهي من لفافة الحشيش.. ويبدأ بإطلاق الحكم والمواعظ، التي تضاهي حكم سقراط وأفلاطون، ففي مقال بعنوان: «حسنين والمسألة الانتخابية من الزاوية الإسلامية» انتقد سويد كافة الطوائف اللبنانية مسلمين ومسيحيين على لسان نديمه حسنين. الذي أكد له أن المسيحيين في لبنان هم طارئون، جاؤوا مع الغزاة فتحًا بعد فتح، وكذلك المسلمون الذين جاؤوا مع الفتوحات الإسلامية، وحيث حلَّ هؤلاء مكان سكان لبنان الأصليين، أي الذين يحبون فعلاً بلدهم، ويقارن بين لبنان ومصر، حيث يقول إن جميع طوائف مصر تقهرها مياه النيل، وهنا يروي حكاية طريفة هادفة على لسان حسنين:

كانت الحكاية، حكاية واحد اسمه «جورج» والثاني اسمه عوضين وعوضين زيِّي أنا، بحبها «بقاعية» والعة، وجورج ما يدخنهاش جورج بيشرب ويسكي، وفي يوم خطر على بال جورج وهو سكران أن يأخذ مركبًا ويجري في النيل.

ـ وبعدين.

ـ بعدين طلب من عوضين مرافقته، ولكن عوضين اعترض لأنه لا يعرف السباحة.

ـ فقال له جورج: وأنا أيضًا ما اعرفش. فقام عوضين ويبدو أنه كان «معمّرها» وسأل جورج، طيب إزاي نروح في النيل وما نعرفش نسبح.

ـ قال جورج: معليش.. إحنا ما علينا.. «المركب» هو اللي بـ«يجري» وركب الاثنان.. وجرى المركب، ولكنه اصطدم بصخرة، وبدأ يغرق فصاح جورج...

المركب بـ«يغرق» وشرب من زجاجة الويسكي..

فرد عليه عوضين مع آخر «نفس» وعلى آخر نفس من وسط الماء:
يا سيدي المركب بـ«يغرق»؟ يغرق! هو مركب أبونا. .
ومجَّ نفسًا من سيجارته زهرة باب أول، ونفث دخانها في الهواء ثم قال: ارجع لمقالي الأول. . حتى تشوف أن بتوع لبنان «الأصلي»، زي الهنود الحمر، انقرضوا.
ـ والموجودون الآن؟
ـ الموجودون الآن. . زي جورج وعوضين. البلد بـ«يغرق» يغرق هو بلد «أبونا».

«حنكشيات ظريف لبنان»

ونحن نتحدث عن النكتة والأدب الساخر المرتجل لا بد لنا من ذكر رائد من رواده ـ إنه نجيب حنكش ـ أو «ظريف لبنان» غنّى وإن لم يكن مطربًا، ونظم واحدة من أجمل ما غنت العملاقة فيروز «أعطني الناي» وإن لم يكن موسيقيًا ولا شاعرًا غنائيًا. . لأن مهنته الأساسية كانت النكتة. وبقيت نكتة نجيب حنكش شكلاً ومضمونًا مختلفة ولها نكهة خاصة محببة. وقد اشتهر ظريف لبنان «بحنكشياته» التي تبعث حنينًا عند الجيل الذي عايش نشاطه الفني وتابعه، وتعيده إلى تلك الأيام الجميلة وخصوصية جيل حنكش ورفاقه.

من المؤكد أن الجيل اللبناني الجديد يجهل ذلك الفنان الذي ذاع صيته في أرجاء الوطن ووصل صداه إلى بلدان الاغتراب. ويقع على عاتق الجهات صاحبة العلاقة تعريف الجيل الحالي بذلك الفنان المبدع.

إن خصب تلك الفترة وغناها انعكسا على الرموز الفنية في ذلك الزمن وكانت لحنكش شخصية خاصة ثرية جمعت السخرية والأصالة والبساطة. . .

ولا نغالي إذا اعتبرنا أنه رائد الأدب الساخر المرتجل. فالنكتة عنده لا تتميز بلهجتها وأسلوبها فحسب، بل بالإضافات التي كان يبتكرها،

وغالبًا كانت لمساته على الخبرية التي يرويها هي الأساس.

ويعتبر **باسم فغالي** أحدث الفنانين اللبنانيين الذين يمارسون مهنة تقليد النجوم على المسرح وأنجحهم. إلا أنه لا يدخل في خانة ظرفاء لبنان أمثال **إيلي أيوب** الملقب بـ «ضاحك الليل» الذي يمارس هذه المهنة منذ أكثر من عشرين عامًا وقد جمع المونولوج والطرائف فالتقط خيط الضحك من طرفيه. ويؤكِّد «أيوب» منطلقًا من خبرته أن اللبناني يفضل نوعين من النكات، تلك التي تحمل طابعًا سياسيًا أو التي تغمز من قناة الجنس، لأن النكتة ملمح من ملامح الشعوب وتنم عن خصوصياتهم وعاداتهم. وهي في ذات الوقت نوع من التراث الذي يتعرف إليه الأبناء عبر أهاليهم فيضمن تقليدًا يتداولونه أبًا عن جد..

وفي هذا المجال لا يسعنا إلا أن نذكر نجومًا لبنانيين عرفوا بذاكرتهم المرتجلة على المسرح، فكانوا بمثابة عنوان للبسمة حتى في أحلك الأوقات وأصعبها أمثال الراحل **فيلمون وهبي** الذي اتخذ منه الرحابنة رمزًا «للقفشة» المرحة التي ميزت مسرحياتهم من خلال شخصية «سبع» التي كان يجسدها بطرافة.

أما الراحلة **فريال كريم** فتعتبر رائدة بفنها إذ اشتهرت بتقليد أهم الفنانين الذين كانوا يتابعون بشغف الأسلوب الذي كانت تتناولهم فيه.

وفي هذا تقول كريمتها منى:

> «كانت أمي مرحة بطبعها حتى أثناء مرضها عندما تتألم كنا نضحك كلنا في المنزل للحركات التي كانت تقوم بها غير مصدقين حقيقة مرضها إذ كانت تعاني من مرض في القلب منذ أن كان عمرها ست سنوات ورغم ذلك أضحكت الجميع ورحلت».

وهناك آخرون اشتهروا بدرجة ما في تقديم البرامج الفنية أمثال **سامي مقصود** الذي عرف بشخصية «أبو الشباب» ـ و«ظريف العرب» **عبد الرحمن الخوجة** الذي يتخذ من هذه المهنة هواية ليس أكثر

هوامش

1 ـ نعتذر من القارئ المرهف لرواية الحكاية كما هي، وهنا أذكر أن معظم عبارات الجنس إذا لم تكن جميعها قد وردت في الكتب المقدسة كما هي.

2 ـ القشطيني خالد، المرجع السابق ص 41.

3 ـ في عام 1993، كان كاتب هذه السطور يشغل مهام الملحق العسكري لدى السفارة اللبنانية في فرنسا.

4 ـ «النهار» 12 شباط، 1997.

5 ـ القشطيني خالد، السخرية السياسية العربية، ص 161.

6 ـ جمال عبد الناصر ـ رئيس الجمهورية العربية المتحدة. توفي في العام 1970.

7 ـ «الاثنين والدنيا»، العدد 601، تاريخ 17 كانون الأول/ ديسمبر 1945.

8 ـ أحمد الألفي عطية، كاتب في مجلة الاثنين والدنيا ـ العدد «601» تاريخ 17 كانون الأول/ ديسمبر 1945.

9 ـ أحمد الألفي عطية، المرجع السابق.

10 ـ «مجلة الأمن»، العدد (50) شباط/ فبراير 1996 بيروت، ص 78.

11 ـ بشامون ـ قرية تقع على بعد 25 كلم من بيروت جنوبًا، وفيها احتمى رجال الاستقلال ومنها أعلن الأمير مجيد أرسلان الثورة على الفرنسيين وشكّلت حكومة الظل.

12 ـ مجلة «جعبة الصياد» 1943، دار الصياد 1993 ص 21.

13 ـ «الأنوار» في 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1995.

14 ـ «الأحرار المصورة»، العدد (22) 15 حزيران/ يونيو 1926.

15 ـ «الشراع»، العدد (741) في 15 آب/ أغسطس 1996.

الفصل الثالث

الصحافة الساخرة في دنيا العرب

من الصعب الفصل في السخرية
الفعلية بين الصحافة والمسرح والنكتة
السائرة فجميعها ساخرة وهادفة

«المؤلف»

مصر بين الصحافة الساخرة والنكتة السائرة

منذ بداية القرن التاسع عشر، وتحديدًا بعد اجتياح نابليون للديار المصرية، بدأ الشرق العربي الغارق في سُبات عميق في ظل الامبراطورية العثمانية يتثاءب مستيقظًا وموجهًا نظره بحشرية تجاه الثقافة الغربية التي بدأت تتسلل بشكل أو بآخر إلى أوساط مفكريه ونخبته الذين أخذوا بسحر الأدب الغربي، ولا سيَّما الساخر منه، الذي دغدغ في نفوسهم مشاعر الشوق إلى الحرية والخروج من نفق الظلم، فأخذوا يترجمون ويقتبسون ويعبثون سيَّما و«العرب» أصحاب نزوع فطري شديد إلى الدعابة. وهم مع ضخامة إنتاجهم في هذا المجال، فإن تراثهم منه محدود في تنوعه.

لذلك عملوا إلى جانب اهتمامهم بالاختراعات الأوروبية على اقتباس الروائع الفنية، وكانت أول مقتبساتهم البارزة «الفن المسرحي الهزلي» وأول الترجمات في هذا الحقل، تمت في لبنان على يدي **سليم النقاش وأديب إسحاق**[1].

غير أن الصحافة الهزلية أو الكاريكاتورية لم تُعرف في شرقنا العربي إلّا في أواخر القرن التاسع عشر، وتحديدًا في العام 1877 عندما أنشأ **يعقوب صنوع**[2] المصري الجنسية، اليهودي المولد، الذي حرصت والدته اليهودية على تنشئته تنشئة إسلامية لأسباب لا نعرفها، جريدة (أبو النظارة) التي تجمع المصادر على أنها **أول صحيفة عربية متخصصة في الهزل والكاريكاتور**، وقد سماها صنوع بهذا الاسم إشارة إلى نظارتيه اللتين لم تفارقاه يومًا حتى في نومه، وقد أحب الخديوي اسماعيل حاكم مصر في حينه، يعقوب صنوع، وساعده على إقامة أول مسرح

تهكمي وذلك في عام 1870 قبل أن ينقلب عليه فيما بعد.

وقد كان ظهور هذه الصحيفة حدثًا بحد ذاته، إذ أمست منفسًا لمشاعر الناس، لأنها كانت تخوض في مشاكلهم وهمومهم.

وفي الواقع إن يعقوب صنوع لم يصدر جريدة واحدة، بل مجموعة جرائد (عائلة أبو نظارة)، التزمت جميعًا بخطه ورسالته الصحافية، ومبدئه السياسي في مناوأة الخديوي اسماعيل والاحتلال البريطاني لمصر.

كانت جريدة «أبو نظارة زرقاء» سنة 1877 التي صدرت في القاهرة الأولى في سلسلة صحف صنّوع الهزلية، وقد جاء شعارها «جريدة مسلّيات ومضحكات» وكان عدد صفحاتها بادئ الأمر أربع صفحات من الحجم المتوسط. وقد افتقرت إلى الرسوم في بدايتها، ثم اعتنت بها لاحقًا لتزيين مقالاتها المخطوطة باليد، رغم أن المطابع كانت قد عرفت في ذلك الحين.

في 7 آب/ أغسطس 1878 وبعد شهرين من مغادرة يعقوب صنوع للقاهرة إلى باريس سعيًا إلى المزيد من الحرية في التعبير، صدرت في العاصمة الفرنسية جريدة «رحلة أبو نظارة زرقاء» وقد صدر منها ثلاثون عددًا، وكانت أسبوعية.

وقد انتشرت صحيفة صنّوع هذه في أنحاء مصر، وذلك لطابعها الهزلي الخفيف، لكونها كانت بأسلوبها قريبة من قلوب الناس، إذ إنها كانت تستخدم اللغة العامية الدارجة في كثير من أبوابها، لتكون المادة أقرب إلى فهم العامة من الشعب.

ولكون صنّوع إنساناً مثقفاً، ويجيد عدة لغات، فقد عمد إلى تعريب الكثير من النكات والطرائف من الصحف الغربية و«مصرنتها» أسلوبًا مقتبسًا تارة، ومقلدًا تارة أخرى، منتقدًا السلطة الحاكمة بأسلوب ساخر، لم يوفر الخديوي نفسه الذي بدأ ينقلب عليه.

وهنا تجدر الإشارة إلى إصدار صنّوع ثلاث صحف بسيطة في محاولاته الصحافية المتخصصة الأولى بحماية القنصلية الإيطالية، كما كان يفعل أحرار عهده وهي هزلية الطابع:

ـ «البعوضة» ـ وباللغة الفرنسية ـ «La Moustique».
ـ «النظـارة» ـ وباللغة الإيطالية ـ «Occhiali».
ـ و«الثرثار» المصري ـ «Le Bavard Egyptien» بثماني لغات حية، وهي ظاهرة فريدة من نوعها في عالم الصحافة.

إلا أن هذه النشرات ـ الصحافية لم تعمّر بدليل عدم العثور على أي منها، ولملاحقة الخديوي لكل تحركاته إذ اعتكف شهرين مظهرًا ندمه لوليّ النعم، مما أذن له بإصدار مجلة (أبو نظارة) التي ارتبط اسمها وتاريخها باسم يعقوب صنوع نفسه مقيمًا بمصر ومغربًا بفرنسا كونه إمام الصحافة الفكاهية الكاريكاتورية في الوطن العربي. وقد عاشت مدرسته الهزلية هذه معه، واستمرت مع نظرائه.

ومن أهم صحفه:

1 ـ أبو نظارة زرقاء ـ 1877 في القاهرة.
2 ـ أبو نظارة ـ 1885 في باريس[3].

أما سلسلة جرائد أبو نظارة فقد ظهرت على التوالي:

1 ـ جريدة رحلة أبي نظارة 1878.
2 ـ جريدة نظارة زرقاء 1879.
3 ـ جريدة النظارات المصرية 1879.
4 ـ جريدة أبو صفارة 1880.
5 ـ جريدة أبو زمارة 1880.
6 ـ جريدة الحاوي سنة 1881.
7 ـ جريدة أبو نظارة لسان حال الأمة المصرية سنة 1881.
8 ـ جريدة أبو نظارة لسان الأمة المصرية الحرة سنة 1882.
9 ـ جريدة أبو نظارة زرقاء (ثانية) 1882.
10 ـ جريدة الوطن الحصري سنة 1883.

11 ـ جريدة أبو نظارة مصر للمصريين سنة 1885 وهي الأهم بينها.
12 ـ جريدة التودد سنة 1888.
13 ـ جريدة المنصف سنة 1889.
14 ـ جريدة العالم الإسلامي سنة 1907.

أما عن رسالة الجريدة، والغاية من صدورها، فقد أوضحها يعقوب صنّوع في افتتاحية العدد الأول منها، حيث كتب:

«وقد تفضل الخديوي المعظم بأن أذن بإنشاء جملة جرنالات في العربية وغيرها، فأضحى الكل سميعًا بصيرًا وبالحقائق خبيرًا... ولا بد لموائد العقول من فاكهة تخفف عن العقل أتعابه التي قد نالها من أعمال الفكر، فأهل أوطاننا فقدوا فائدة تسليهم عند كلال عقولهم، وتعبها من النظر في الأمور وعواقبها... فمن أجل هذا رأينا أن ننشر جرنالاً يزيل عن النفوس بؤسها، ويريحها من أتعاب إحساساتها ليكون ذلك داعيًا لتنشيط عقولهم وفك عقالهم. على أنه ليس الغرض منه مجرد الضحك بل معه الاشتمال على الحكم والمواعظ الحسنة، على وجه لا تمل منه النفوس ولا تسأم. فهو جد لبس لباس الهزل وأسف قد تحلى بحلي الفكاهة والغزل... خصوصًا إلى أرباب الفكاهات والظرف، فهؤلاء لا تنقاد نفوسهم إلّا لما يألفون، وليس مشروعنا هذا ببدعة، بل سبقنا إليه أهل أوروبا... لهم جرنالات الفكاهة المشتملة على الحكم والمواعظ... يقلدون أحوال حكوماتهم ووزرائهم»[4].

وبعد هذا التعريف الهادف لرسالة «أبو نظارة» في الفكاهة والهزل، بقصد الحكمة والموعظة جريًا على أحوال أوروبا، نجده يقول:

«لا نتعرض في هذه الفكاهة لا للديانة ولا للسياسة الوطنية،

ونقتصر على ما عساه يكون مفرحًا للقلوب، ومنتجًا للمطلوب من ذكر أدبيات وطرائف تتعلق بوطننا، وما يقع من أهاليه، وما يحكيه الظرفاء منهم في أي محل، سواء كان في بلدنا هذا وفي غيره، فإن لنا مكاتبين في الجهات، يكاتبوننا بما يحدث من هذا القول بما يأخذ بالقلوب فرحًا وسرورًا ومروّحًا للنفوس. . وإن شاء الله نضم لذلك تصوير بعض ما يلزم تصويره. إذ يكون ذلك أقرب تناولاً للعقول والمرجو أن يكون هذا الجرنال مفيدًا لعموم الأهالي».

في هذه الافتتاحية تحدَّث صنّوع كثيرًا عن نفسه ومجتمعه المصري، وقصده من جد لبس لباس الهزل، وأسف تحلى بحلي الفكاهة والغزل، مع عزمه على ضمّ تصوير بعض ما يلزم تصويره، وهو سيستمر معنا بمحاوراته الظريفة الهزلية التي ساقها على ألسنة أبطاله: أبو خليل، وأبو الشكر، والصدفجي، والمستر بول إلخ. وهم يمثلون الحياة الاجتماعية والسياسية المصرية نقدًا وتجريحًا بغية الإصلاح، كل ذلك بشكل مبطن بادئ الأمر من خلال فصول «القرداني» و«حكم قراقوش» عزاها ونسبها إلى أيام العز سنة 1204 مصورًا فيها مدى الظلم والعبث بحياة الأفراد والجماعات في عهد الخديوي إسماعيل، وإن أرجعها إلى تاريخ سابق قديم، وهو يريد إعطاء صورة عن مفاسد الحكومة التي تسيطر على شؤون الناس عبر أعوانها وموظفيها[5].

وتتطور مسيرة الصحيفة رويدًا، وتكشف عن عدائها السافر للخديوي اسماعيل، ورجاله، فكان أمرًا جديدًا في حياة المصريين وصحافتهم، كونها اللسان المعبر عن همس المواطن وضيق حياته وتراكم مآسيه من ظلم عهد اسماعيل وأساليبه، فتعبّر عن الساخطين الناقمين عليه، وعلى الإنكليز وعلى تصرفاتهم وتدخلهم في شؤون مصر بشكل يسيء إلى حريتها وكرامتها، ويورد مثلاً صارخًا عن ظلم اسماعيل وتخلصه «بالقهوة المسمومة» من رجال الشبهة، وذلك عبر محاورة بين أبي الشكر وأبي نظارة:

ـ أبو الشكر: يا مرحبا بك يا أبو نظارة.

ـ أبو العينين: تفضل اقعد يا عم وانجلي.

ـ خلاط (النادل): بتريد تشرب إيه؟

ـ أبو الشكر: أبو نظارة قتيل البيرة.

ـ أبو العينين: لا الراجل يحب القهوة أوي.

ـ أبو نظارة: لا يا خويا القهوة ما احبهاش لأنها مخطرة الأيام دي واللي بيشرب منها فنجان بيبرم وبتروح عليه.

«وهكذا تجاوز صنّوع حدوده الصحفية المسموح بها، وقتذاك، وحمل نفسه الشر والخطر، والحديث في مثل موضوع القهوة، يقارب الحقائق التي اعتمدها الخديوي اسماعيل، في التخلص من غير المرغوب فيهم، فكيف إذا نشرت في جريدة تناولتها أيدي العامة، وفي المقاهي حيث العدوى النفسية أسرع من أي شيء».

وعلى الإجمال بدأت «أبو نظارة» باقتحام ميدان السياسة ساخرة غير متورعة عن مهاجمة الوزراء والأمراء، حتى أنها لم توفر أفراد الأسرة الحاكمة، ولئن كانت بعض الأسماء «محجّبة» ظاهريًا إلّا أنها غدت واضحة للمسؤولين الذين قرروا مطاردته وترحيله عن مصر، وقد أحس صنّوع نفسه بذلك، فأورد في آخر عدد له رقم 15 ينبئ عن موقفه في ردّه على (أبو خليل) لاضطهاد الحكومة له، وعن صحة ما أُشيع عن سفره بقوله:

«أعمل إيه هنا! بس أسمع كلام بارد يغم القلب. أديني ضحكت أخواني بخمس عشرة نمرة، وعشمي أنهم ما ينسونيش لكوني محب لهم وأفديهم بالروح».

واضطر آخر الأمر للجوء إلى القنصلية الإيطالية ومنها غادر مصر يوم 22 حزيران/ يونيو 1878 على متن الباخرة فريسينته زاعمًا أن الجماهير على رصيف الميناء كانت تناشده «لا تتركنا بين مخالب شيخ

الحارة» أي الخديوي اسماعيل الذي نفي بعد سنة واحدة فقط، مثلما نفى صنّوع نفسه.

لقد كان صنوع لاذعًا في نقده، وهو الأول من الصحافيين العرب من صنفه، فقد تخصص في الحملة على الخديوي اسماعيل وأدواته، وحضَّ المواطنين على الثورة، كاشفًا خفايا الحكم وصنائعه وفضائحه، وكان له دور كبير في تحريك الجماهير ضد الحاكم الطاغية، مما أدى إلى نفي هذا الأخير من قبل الإنكليز أنفسهم بعد أن كان صنيعتهم، وذلك امتصاصًا لنقمة الشعب في العدد الأول من جريدته، يسخر صنّوع من حال الخديوي ورجاله، بأسلوب زجلي ممتع، يستغرق نصف صفحة من هذا العدد.

وفي العدد الثاني، يحدثنا عن زيارة الخديوي للمقابر بأسلوب ساخر حيث يقول:

«إنت جاي متخفي مصفر اللون وناشف الريق، تطلب السماح من قتيلك الصديق، أهو المخنوق من قبره قام ووراه المسمومين بكاس المرام وبفنجان القهوة الملغوم.. يتمت العيال وكشفت سترهم»[6].

أما جريدة «النظارات المصرية» التي صدرت في أيلول/ سبتمبر سنة 1879 فقد تخصصت في حملتها على مهاجمة الوزير «رياض باشا»، و«الوزير نوبار» وفيها تعليقات شديدة اللهجة عنهما تجاوزت مفهوم ذلك الزمان، وبفضح الرشوة للباب العالي، والبالغة خمسين ألف جنيه لتوقيع فرمان تولية الخديوي توفيق في وقت استفحلت الأزمة المالية بالشعب المصري عبر تمثيلية «المقاومة المصرية» عن حادثة:

«في سوق السلاح بين زمزم بياعة العيش فارشة على الأرض وابنها الرضيع على إيدها، وديّوس آغا عامل تحصيلات الفردة»[7].

حيث تظهر قسوة الضرائب على كاهل الفقراء وصلف الموظفين وتدخّل الأجانب في اقتصاديات مصر عبر هذه المقالة بأسلوبه المألوف.

وجريدة «أبو زمّارة» فقد وقفها صنّوع على نقد الخديوي توفيق

الذي ورث اسماعيل على عرش مصر، ولم يتورع صنّوع عن انتقاد الشعب المصري وحالة الخنوع لدى بعض جماعاته.

أما جريدة «الحاوي» التي أصدرها عام 1881 بعد مصادرة «أبو صفارة» و«أبو زمارة» فقد التزم بها بسياسته ونهجه السابق، وكان شعارها «الحاوي الكاوي اللي يطلع من البحر الداوي»، ونلمس فيها غليان الجيش فتسجل «مقدمات الثورة» مع تبيان دقيق للحوادث والمجريات، والأمور بلغة بسيطة مسجوعة عاميّة.

«فلا غرو إذا خصصت أعدادها «للثورة العرابية» وطرد حكومة الخديوي توفيق[8]، وما خلصتوا منه يا أولاد؟ سأمزع الجرنال وأكسر النظارة وبيع خرج الصفارة والزمارة فوقوا يا أولاد يالله»[9].

وفي جريدة «أبو نظارة زرقاء» التي عادت وصدرت عام 1882 أيد صنّوع بضراوة ثورة «أحمد عرابي» واتهم الخديوي توفيق صنّوع بتدبير الفتنة في الاسكندرية والتي راح ضحيتها المئات من الشعب المصري.

لقد ارتقى صنّوع إلى مستوى المعارضة الهادفة إلى الإصلاح عن طريق حثّ الشعب الذي استطاع التسلل إلى عقله السياسي على معارضة الحاكم، وحثّ الحاكم نفسه على إصلاح جهازه، وتنقية أدواته الفاسدة، ووضع الاحتلال البريطاني هدفًا نصب عينيه، فلم يهادنه أو يغفل عنه في أي عدد من أعداد صحفه المتكررة، فقد وضع قلمه وقفًا على قضية وطنه «مصر» ولم يهادن قط في منفاه، وهذا أمر ندر مثيله ونظيره[10].

لقد كان يعقوب صنّوع يصرح دائمًا بأن «الجرايد هي ترجمان الأفكار، وحدائق الأخبار، خصوصًا الجرائد الهزلية التي هي بالبدائع محلية وبالنكات مطلية». لذلك اعتمد المبالغة في النموذج الفني الكاريكاتوري والتشبيه الهزلي لتوضيح الفكرة المقصودة.

أما لماذا عمد صنّوع إلى تغيير أسماء صحفه الواحدة تلو الأخرى، وسنة إثر سنة؟

فلأن السلطة المصرية كانت تسارع إلى تعقب صحفه ومصادرتها أينما وجدت.

ورغم بعض **الإسفاف** الذي داخل أسلوب جرائد أبو نظارة اعتبرت الصحف الرائدة في هذا الفن الجديد على الصحافة العربية، وهو الفن الهزلي الساخر القائم على الطرفة المستملحة والنكتة الخفيفة، والرسم المعبّر واللغة الدارجة التي تداولها الشعب بكل بساطة وتأثر بها فكرًا وسلوكًا في تلك الحقبة من التاريخ المصري.

وقد توالى صدور الصحف الهزلية في مصر (انظر الجدول المرفق) إلّا أن معظمها لم يكن يقرب السياسة والساسة إلّا لمسًا، ومنها ما تحدّث عنها بخجل، وبعضها تقرّب من الحكّام وتهكم على معارضي السلطة القائمة.

ومن الصحف الساخرة التي يقتضي التوقف عندها، صحيفة «مصباح الشرق» التي أصدرها وحرّرها **إبراهيم المويلحي** عام 1906، وهو كاتب اشتهر بالتهكم السياسي الجارح. وقد نفي إلى الآستانة عاصمة السلطنة في ذلك الحين وأخذ يرسل من هنالك إلى مصر رسائله التهكمية، وفي إحداها يصف «رئيس المخابرات» في السلطنة ـ بـ «الجاسوس الأول» ثم يستدرك بأن هذا المنصب على طريق الإلغاء، لأن مهام التجسس، وزعت على جميع مكاتب الحكومة.

وفي تعليق له على نفي السلطان لخصومه السياسيين إلى مكّة المكرّمة يقول: «إن عظمة السلطان يرسل من ينقم عليهم من بيت السلطان إلى بيت الرحمن»[11].

وكان المويلحي في الآستانة وعندما غزت فرنسا بلاد تونس، وتمكّن كبير الأحرار «مدحت باشا» من الفرار من براثن السلطنة واللجوء إلى قنصلية فرنسا، فكان أن تخلى السلطان لفرنسا عن تونس، مقابل تسليمه الثائر «مدحت باشا». فكتب المويلحي بهذا الصدد متهكمًا... «أثبتت تركيا تقديرها للكائن البشري ودفعت ثمنًا لرجل واحد مملكة بأسرها». وقد أحرزت مقالات المويلحي ورسائله، انتشارًا شعبيًا واسعًا في مصر وسائر الديار العثمانية، التي تسربت إليها هذه الرسائل، وبما أن المويلحي قضى جانبًا كبيرًا من حياته خارج مصر، معظمها في

المنفى، فقد أطلق على بلاده حكمًا قاسيًا سرعان ما أصبح شعارًا حين قال: «إن مصر هي أشبه شيء بالمقابر، إنها مكان يُزار لا مكان يسكن كدار».

لقد عبّد الرواد الأول أمثال صنّوع والمويلحي الطريق، لسلسلة من الصحف الهزلية التهكمية التي ظهرت في مطلع القرن العشرين مثل «عفريت المقاولين» لجندي فرج عام 1908، و«المسامير» **للسيد عارف** عام 1909، و«السيف» **لعبد الله حسون** عام 1910، ثم «الكشكول» **لسليمان فوزي** عام 1914 التي توقفت عن الصدور مع مثيلاتها، بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، ودخول تركيا الحرب وإعلان الأحكام العرفية.

إلّا أن انتهاء الحرب وانتعاش فكرة القومية العربية بعد انحسار المد التركي، وبروز الكفاح من أجل الاستقلال من الإنكليز هذه المرة فتح مجالاً جديدًا لمجلات عديدة، لعبت دورًا هامًا في توعية الجماهير، وإثارة مشاعرهم الوطنية من ضمن الحملة النفسية ضد الاحتلال وزبانيته من الحكام. وقد شذَّ عن هذه القاعدة «سليمان فوزي» الذي أعاد إصدار صحيفته الهزلية «الكشكول» عام 1921 باسم «الكشكول المصوّر»، فكان معارضًا متهكمًا على عدو الإنكليز الأول، والزعيم الوطني الكبير سعد زغلول، مؤسس ورئيس حزب الوفد، إلى أن أصدرت السيدة «**فاطمة اليوسف**» زوجة محمد عبد القدوس ووالدة الكاتب الشهير إحسان عبد القدوس صحيفتها المشهورة «روز اليوسف» عام 1925 التي دافعت فيها عن سعد زغلول، وهاجمت الاحتلال الإنكليزي بضراوة. حتى أمست أشهر مجلة سياسية هزلية في العالم العربي.

وقد تميّز بين الكتّاب البارزين في مجلة «الكشكول»، **حسين شفيق المصري** بإحساس مرهف في ظرفه، وتندّر بارع في تهكمه، وكثيرًا ما جاء ظرفه في قالب من الزجل الشعبي، سخر فيه من دوائر الحكومة ومن أسلوبها في تطبيق القوانين، وإجراء التدابير، وكان من الشخصيات التي ابتكرها «الجاويش شعلة عبد الموجود» جعل منه أداة أخرى بيد «حسين» في حملاته على أرباب السلطة، والنظام الرأسمالي، واستغلال

الناس، وابتزاز حقوقهم.

أما «روز اليوسف»، فقد غدت مدرسة قائمة بنفسها في هذا المضمار. فالعديد من الأسماء الكبيرة، في الصحافة العربية الهزلية، من مثل **فكري أباظة ومحمد التابعي وصلاح ذهني**، مدينون لها بشهرتهم لأنهم إنما أُنشئوا وتدربوا في الكتابة الهزلية على صفحات هذه المنشورة.

وقد أبدع كتّاب «روز اليوسف» في كتابة المقالات والمسرحيات الهزلية التي تطال رجال السياسة والحكام، وتجعل منهم حديث الساعة في الأزقة وجلسات الأُنس والمقاهي الشعبية.

ولم يتقدم على إبداع الكتّاب إلّا روائع الرسامين الهزليين، من أمثال **اسكندر صاروخان، وصلاح جاهين، وجورج بحجوري، وعبد المنعم رخا، والحجازي**. فالشخصيات التي ابتدعتها أقلام هؤلاء. . . الرسامين الهزليين: مثل «المصري أفندي» و«بنت البلد»، و«ابن البلد»، و«كشكش بك» دخلت كل بيت في العالم العربي. . وأبرز من هؤلاء ظرفًا وأبعد شهرة كانت شخصيتان لزوجين خالدين هما «السبع أفندي» (برسم هزيل وذليل) و«رفيعة هانم» (برسم ضخم وقوة قاهرة) يمثلان تمثيلاً هزليًا خفيًا: النحاس باشا، زعيم حزب الوفد بعد سعد زغلول وزوجته المتسلطة عليه ـ شأن زوجات العديدين من السياسيين المصريين ـ ثم هنالك شخصية «حمار أفندي» وهو رسم أسطوري هزلي لرجل برأس حمار على أنفه نظارة. ولقد رسم يومًا عبد المنعم رخا النحاس باشا وقد أشار بإصبعه إلى «حمار أفندي»، وقال: لا شبه بيني وبينه. . إلّا بطريقة تفكيرنا.

وقد لوحقت مجلة «روز اليوسف»، وأرسلت لها السلطة القائمة الإنذار تلو الإنذار، وكان أبرزها تحذير أرسلته الحكومة المصرية عام 1928 إلى المجلة جاء فيه:

حيث إن مجلة «روز اليوسف» ما زالت تسنّ بفاحش القول، ومنكر الأقاصيص، والإمعان بالكذب والاختلاق، سنة مزرية بشرف

الصحافة، مفسدة للأخلاق والآداب، فقد قررنا:

1 ـ ننذر روز اليوسف.
2 ـ على مجلة روز اليوسف أن تنشر هذا القرار في صدر أول عدد يصدر منها.
3 ـ على محافظ العاصمة تنفيذ هذا القرار.

فنشرت المجلة هذا الإنذار، وعلّقت عليه بقولها:
«آمنا أننا نسنّ لشرف الصحافة سنة مزرية... ولكن أليس من حقنا على وزارتنا المحبوبة، ومن حق الشعب على وزارته العزيزة، أن تأمر الوزارة قلم المطبوعات أن يكتب للناس قائمة بأكاذيبنا، حتى يتضح من أمرنا ما طالما سترناه، وحتى نتحاشى في المستقبل الإشارة إلى شيء من هذه الأكاذيب، إنقاذًا لشرف الصحافة المأسوف عليه، من هذه السنة المزرية التي استنناها له ظالمين؟!!
هل كنا قبل كاذبين يوم زعمنا أن دبيب الفشل يدب في الوزارة على خف من الحرير؟ أفتونا في أمرنا، ولكم من الله أجر المحسنين، فإن لم تفعلوا فليس أمامنا ـ والله ـ إلا الصبر على قضاء الله، وإلا البحر نشرب منه حتى نشبع، وإلّا أن نتجه إلى السماء برؤوس عالية لنقول: اللهم امسخنا قرودًا إن كنا كاذبين».

إلاّ أن الملاحقة التي أوقفت صدور المجلة مرات عدة، لم تثنها عن رسالتها في كشف فضائح الحكومة وظلمها والتصدي للاحتلال البريطاني حتى أنها تخلّت عن دعمها لحزب الوفد الذي وقفت إلى جانبه سنين عدة، بعد إبرام المعاهدة البريطانية المصرية عام 1936، وحيث اعتبرت المجلة أن هذه المعاهدة أعطت كل شيء للإنكليز، وكتبت تهكمًا أن ما فعلته بريطانيا بشأن الجلاء «أنها نقلت أمتعتها من أحد جانبي السفينة إلى الجانب الآخر»...

وقد نشرت المجلة عددًا من الرسوم الهزلية، تشجب المعاهدة وتندد بالوفد، ففي إحداها يُرى جون بول والمصري أفندي حول طاولة ومعها النحاس باشا زعيم حزب الوفد، وقد أمسك بحيّة (المعاهدة) وقدمها إلى المصري أفندي المذعور منها، بقوله: نعم إن لذعها مؤلم، وسمها قاتل... لكنها أصغر حيّة عثرت لك عليها!

«وفي رسم آخر يخاطب النحاس باشا زميله مكرم عبيد، على أثر إبرام المعاهدة بقوله: لقد خسرنا عطف جلالة الملك، وخسرنا الانتخابات، وخسرنا مالنا، وخسرنا المعاهدة، وخسرنا صداقة الإنكليز، وماذا بقي لنا لنخسره؟ فيجيبه مكرم عبيد: بقي أن يخسر كل منا الآخر».

لقد نجحت «روز اليوسف» كما ذكرنا نجاحًا شعبيًا باهرًا، تعدى القطر المصري إلى سائر ديار العرب، وأذكر، أنني عندما كنت طفلاً في أوائل الخمسينيات أتسابق مع أخي لشراء هذه الصحيفة الساخرة.. وحملها لوالدي رحمه الله، يوم وصولها الأسبوعي إلى النبطية[12] لأن من يحملها أولاً يقرأها أولاً بعد الوالد طبعًا.

وقد دفع النجاح الذي أحرزته هذه المجلة الكثير من الصحف السياسية البعيدة عن الهزل إلى اعتماد السخرية السياسية في كثير من أبوابها، ومنها «المصور» و«الاثنين» و«آخر ساعة» كما دفع دار الهلال إلى إصدار مجلة «الفكاهة» عام 1926 فكانت نموذجًا للظرف المصري، وكان من أهم أبوابها «قضاؤنا العسكري» الذي كان يحاكم الشخصيات السياسية محاكمات دعابية شاع أسلوبها بين الكثيرين من الكتّاب.

صحيفة «المصور» التي صدرت عن دار الهلال لصاحبيها **«إميل وشكري زيدان»** تحت شعار «مجلة أسبوعية جامعة» خصصت صفحتين للمحرر الساخر «الملحوس»، ومع أن السخرية كانت بمعظمها اجتماعية، إلّا أن السياسة لم تغب عن صفحتي «الملحوس»، ففي باب «حوادث وأخبار» انتقادات ساخرة للحكومة وأدائها، وفي باب «تناقضات» سخرت المجلة من حزب العمال الذي تزعمه أحد أمراء الأسرة الحاكمة فكتبت ما يلي: «حزب العمال زعيمه أمير، ورئيسه الأول «فؤاد سراج الدين» باشا

يملك أكثر من ألفي فدان، ورئيسه الثاني «عبد الرحمن البيلي بك» يملك أكثر من ألف فدان، ومرشحه في عابدين «عبد العزيز رضوان بك» يملك أكثر من ألف فدان. . . فما أغنى العمال!!؟؟ وقد اشتهر خاصة باب مناظر مؤذية، الذي تخصص بانتقاد التصرفات التي تؤذي الذوق العام، بما فيها تصرفات الساسة دون تسميتهم.

أما مجلة «آخر ساعة» التي أصدرها الصحافي الشهير محمد التابعي بعد تركه مجلة «روز اليوسف» التي عمل بها عدة سنوات، فقد أعطت التهكم السياسي مجالاً أوسع من «المصور».

لم تكن «آخر ساعة» صحيفة معارضة، ولم تسع إلى التعرض المباشر للنظام، بل كانت تعمل من داخله، إلّا أن بعض تعليقاتها لم تخلُ من القساوة، ففي خبر عن زواج تمّ بين محامٍ مغمور وابنة أحد رجال الحاشية فؤاد شيرين، كتبت «آخر ساعة»:

«تزوجت ابنة فؤاد بك شيرين من المحامي الأستاذ حاذق، وما أن تم الزواج حتى عيِّن حاكمًا على القليوبية والخير لقدام كما يُقال».

وفي مناسبة أخرى، في معرض التهكم على رئيس وزراء مصر في زمن عبد الناصر عزيز صدقي كتبت المجلة:

«عزيز صدقي يتوقع ولادة ابن له في الأسابيع المقبلة، وهذا الطفل مرسوم سلفًا بكل دلائل النبوغ. وقد قيل إن سعادته قد حفظ لطفله العتيد، مركزًا رفيعًا في شركة قناة السويس».

ومع أن انتقاد «آخر ساعة» كان مرحًا أكثر منه جارحًا، فقد صدر مرسوم بتعطيلها لمدة ثلاثة أشهر عام 1939.

أما مجلة «الاثنين والدنيا» والتي عرفت باسم «الاثنين» فكانت أكثر صحف دار الهلال السياسية قربًا من الطرافة واعتماد السخرية، إذ

اعتمدت الكاريكاتور الاجتماعي والسياسي في أكثر صفحاتها، وأفردت صفحتين لنوادر سياسيي مصر وزعمائها بعنوان «كلام وحديث» وقد وردت في هذا الباب نوادر واقعية حرص محررها على أن تكون مهذبة وغير جارحة ومنها نقتطف على سبيل المثال:

من هو السياسي؟
تناقش بعض السياسيين حول «السياسي» وتعريفه، فقال الأستاذ «خطاب بك»: «السياسي هو الذي يعرف تاريخ ميلاد زوجته، وينسى عمرها!».

■ في تهكم على رجال الحاشية الملكية، كتبت «الاثنين» في العدد سنة 1947 ما يلي:

رأس الشيخ: مما يروى عن المغفور له الخديوي السابق، أنه كان يعنى بفض كل نزاع يقع بين رجال حاشيته، وحدث أن خلافًا وقع بين موظف كبير وشيخ أديب، ولمّا حقق سموّه بالمسألة تبين أن الحق في جانب الشيخ، فأمر الموظف أن يعتذر له و«يُقبِّل رأسه»، فوقف الموظف واجمًا برهة ثم قال: أنا مستعد أن أبوس رجله يا أفندينا، لكن لا أبوس رأسه ولو شنقوني. فأغرق سموّه في الضحك إذ تذكّر أن الشيخ «أقرع».

وقد اشتهر أحد كبار السياسيين «أحمد زيور باشا» بطيبته، ورغم أنه في عام 1947 كان قد انتقل إلى رحمة الله، لم تتوانَ مجلة «الاثنين» في التندر على أخباره من باب الطرافة السياسية فكتبت في باب «كلام حديث»:

مما يذكر عن رقة شعور المغفور له زيور باشا، أن موظفًا من

المقربين إليه قابله وهو يبكي لأن والده توفي، وكان لزيور باشا معرفة به، فتأثر وأخذ يواسيه، ثم دسَّ في يده مبلغًا من النقود، وعند انصراف الموظف قال له زيور باشا ـ ولعلَّه كان قد نسي المسألة ـ «ما تنساش يا ابني تسلِّم على والدك».

أما صحيفة «الفكاهة» التي صدرت عن دار الهلال وقد مرّ ذكرها، فلم تجرؤ على انتقاد الحكم أو الحكومة مباشرة، واقتصرت أخبارها على رواية النوادر الاجتماعية، والتمني على الحكومة بإصلاح مسارها الإداري. فتحت عنوان «خواطر سكران» الذي اعتمدته المجلة بابًا ثابتًا، أوردت الصحيفة التعليق التالي:

«روت إحدى الصحف اليومية أن وزارة الداخلية قررت تخفيض مرتبات عساكر البوليس ومشايخ الخفراء والخفراء، ولا ندري هل هذا الخبر صحيح أو غير صحيح، فإذا كان غير صحيح فلا ضرر منه، وإذا كان صحيحًا فإنه نذير ببلاء مستطير، أقل ما فيه أن هؤلاء الحراس، ولا سيَّما عساكر البوليس تضيق بهم الحال، ويثقل عليهم الهم، فلا يجدون من يفشون غليلهم فيه غير الباعة المتجولين، وعندئذٍ يكتب الفلكيون في نتائج السنة عن شهر كذا أنه تظهر فيه باكورة الغمز بالشلنات، وتؤخذ رخص العربجية بلا سبب، ويدخل النمل بطن الأرض، وهذه مواسم لا يحبها الله، ولا يرضاها، ولا تنفع الناس، فحبذا لو كان خبر إنقاص مرتبات رجال الحفظ من الأخبار المشكوك بها على الأقل»[13].

وعند ذكر الصحف الفكاهية والهزلية، لا يسعنا إغفال ذكر مجلة «البعكوكة» التي أصدرها محمد التابعي عام 1933، ولم تعمر طويلاً، لكون التابعي أصدر في العام ذاته كما ذكرنا صحيفة «آخر ساعة» وحصر اهتمامه بها، ومع أن نجم «البعكوكة» عاد وصعد في زمن الحرب، إلا

أنها كانت تسير بعكس التيار الوطني مما كبح جماحها التهكمي فانطفأت بعد الحرب، حيث ولدت مجلات هزلية جديدة، منها «صباح الخير» التي تولى رئاسة تحريرها الصحافي البارز **أحمد بهاء الدين**، ثم «المصري أفندي» التي أصدرها **عبد الرحمن نصر** وكان **مأمون الشناوي** أبرز محرريها. وقد بقيت الصحافة المصرية لسنين كثيرة، المصدر الأول للقراءة الناضجة الواعية في العالم العربي ـ وكان لا بد لمنشورات الظرف والتهكم من أن تترك طابعها على صحافة البلدان العربية الأخرى(14).

جدول بأسماء الصحف الفكاهية الكاريكاتورية في مصر

البعوضة	يعقوب صنوع	1876	باللغة الفرنسية
النظارة	يعقوب صنوع	1876	باللغة الإيطالية
الثرثار المصري	يعقوب صنوع	1876	بثماني لغات مختلفة
أبو نظارة	يعقوب صنوع	1877	باللهجة العربية العامية
المنادمة	حسن صبحي	1896	باللهجة العربية العامية
التفريج	محمد عبد الجليل	1896	باللهجة العربية العامية
حمارة منيتي	محمد توفيق	1896	باللهجة العربية العامية
الكرباج والعفريت	عبد الله قدسي	1896	باللهجة العربية العامية
أبو نظارة معظمة	شكري أبو فريد	1897	باللهجة العربية العامية
العفريت	عزيز فهمي	1897	باللهجة العربية العامية
الفكاهة	ديمتري نقولا	1898	باللهجة العربية العامية
المسامرات	إبراهيم رمزي	1903	باللهجة العربية العامية
الطرائف	رشيد مصوجع	1903	باللهجة العربية العامية
عفريت الحمارة	عبد الرحمن الهندي	1905	باللهجة العربية العامية
ها ها ها	محمود مسعود	1907	باللهجة العربية العامية

اسم الصحيفة	صاحبها	صدورها	ملاحظات
السبعة وذمتها	علي أبو زيد	1907	باللهجة العربية العامية
عفريت المقاولين	جندي فرج	1908	باللهجة العربية العامية
الفكاهات العصرية	عبد الله غزالة	1908	باللهجة العربية العامية
البهلول	محمد شرف	1909	باللهجة العربية العامية
المسامير	السيد عارف	1909	باللهجة العربية العامية
السيف	عبد الله حسون	1910	باللهجة العربية العامية
الكشكول	سليمان فوزي	1914	باللهجة العربية العامية
الكشكول المصور	سليمان فوزي	1921	باللهجة العربية العامية
خيال الظل	حافظ عوض	1924	باللهجة العربية العامية
العفريت	عبد الحميد نجيب	1924	باللهجة العربية العامية
المسرح	عبد المجيد حلمي	1925	باللهجة العربية العامية
روز اليوسف	روز اليوسف	1925	باللهجة العربية العامية
البغبغان	كامل تادرس	1925	باللهجة العربية العامية
الفكاهة	إميل وشكري زيدان	1926	باللهجة العربية العامية
ابن البلد	سيد بيومي	1929	باللهجة العربية العامية
بايش معنه	محمد رضا	1929	باللهجة العربية العامية
البعكوكة	محمد التابعي	1933	باللهجة العربية العامية
آخر ساعة	محمد التابعي	1933	باللهجة العربية العامية
الاثنين	دار الهلال	1935	باللهجة العربية العامية

يضاف إلى هذه اللائحة صحيفة «مصباح الشرق» التي أنشأها وحررها إبراهيم المويلحي عام 1906 وكانت في اللغة الفصحى في معظمها[15].

ومن الدوريات المصرية الساخرة التي اشتهرت ولقيت إقبالاً باهرًا

«المصري أفندي» التي برزت في الأربعينيات، وبدأت تخمد جذوتها في الخمسينيات من القرن الماضي، أي بعد الثورة مباشرة، وكان ناشرها مصطفى أمين، ومحررها الأساسي محمد التابعي»

«المصري أفندي» صدرت إبان الحرب العالمية الثانية، لذلك نشر تحت عنوان «دائرة نحس» الاقتراح التالي: أصبحت دائرة طوخ لمجلس الشيوخ عنوانًا للنحس، كان شيخها علي فهمي باشا، فتوفي إلى رحمة الله، ثم انتخب مكانه محمد بك يوسف فاختير إلى جوار ربِّه وحلّ مكانه سلامة ميخائيل بك، فلم يلبث أن توفي إلى رحمة مولاه منذ أيام، ويقترح البعض أن ترشّح الوزارة «الهر هتلر» في الدائرة الخالية، حتى يجوز عليه ما جاز على الآخرين.

أما عن جريدة «الفكاهة» القاهرية، فقد صدرت عن «دار الهلال» في 1/2/1926 وكان رئيس تحريرها، وكاتبها الأبرز فكري أباظة الذي تسلم لاحقًا مجلة «المصور».

أما مجلة «صباح الخير» فكانت تطالع الناس يوم صدورها بغلاف كاريكاتوري ضاحك، وقد أصدرت في 15 شباط/ فبراير عام 2000 ملحقًا خاصًا عن تاريخ النكتة المصرية بقلم الصحافي البارز زين إبراهيم ننشر أهم ما ورد به في مكان آخر من هذا المؤلف.

■ والآن ما هو وضع الكتابات الساخرة في الصحافة المصرية؟ نحن نقول إنها انحسرت، أما الكاتب المصري محمد باهر فقد كتب أنها اختفت، وفي رسالة من القاهرة بعنوان «لماذا اختفت الكتابات الساخرة في مصر»، يقول:

«لماذا اختفى الأدب الساخر في حياتنا، وأين ذهب أولئك الكتّاب الذين تميزوا بهذا النوع من الكتابة وسط الأحداث التي يموج بها العالم كله بشكل يومي، ويثير السخرية والأسى والحزن معًا؟..
هل فقد الكتّاب قدرتهم على هذه النوعية من الكتابة أم مُنعوا منها؟ أم أصابهم اليأس هم أيضًا وفقدوا قدرتهم على السخرية؟ هل كانوا

يكتبون لمجرد التسلية والفكاهة، أم لكشف المهمش وتعرية المستبدين والظالمين، ولماذا سكتوا الآن؟

أسئلة كثيرة نطرحها في محاولة لإيجاد إجابات عند أهل الكتابة الساخرة والنقاد».

■ تقول «فريدة النقاش» الكاتبة المعروفة. . إن الكتابة الساخرة مرتبطة بمناخ الحرية، وعللت ذلك باتساع مساحة الثقافة المرئية والمسموعة واستقطابها للإمكانات الموجودة لدى الكتَّاب من أشكال الدراما التلفزيونية، والدراما الإذاعية، وكذلك السينما.

وعمومًا، فالأدب الساخر أيًا كانت صورته فهو يهدف إلى دفع المجتمع إلى رؤية نفسه على حقيقتها، لأن السخرية تكشف التناقضات فتكشف للملاحقة، لأنه لا يكشف العيوب الاجتماعية فقط بل يعرِّيها كما يعرِّي الظالمين ويجعلهم محورًا للسخرية.

■ الكاتب الساخر محمد مستجاب يقول: إن الذين يعتبرون أن الكتابة الساخرة الأدبية قد اختفت من حياتنا مخطئون، ويدل هذا على ما أصاب الحياة الثقافية من جهل في المفاهيم القائمة، لأن التلفزيون لم يترك فرصة لأن يعرف الناس أن هناك قصصًا، وشعرًا، ومقالات ساخرة أدبية وصحافية، وكتابات أدبية ساخرة وجميلة ما زالت تصدر.

■ ويرى الكاتب والروائي خيري شبلي أن كل ما يكتب بخفة ظل، يعتبر من الأدب الساخر. فهنالك من يكتبون في الصحافة العربية، ويتمتعون بخفة ظل، ويقدمون أنواعًا من القفشات والنكت، لكن هذا ليس من الأدب الساخر في شيء، فالأدب الساخر لا يستطيع كتابته إلّا كل موهوب، مثقف، واسع المدارك، كبير القلب يحتوي آلام البشر وهمومهم وأوجاعهم في الحياة فتكون سخريتهم كالبلسم الذي يداوي جراحهم، لأن الأديب الساخر الموهوب يعلو بهم فوق الحزن، ويساعدهم على تجاوز مرحلة الكآبة أو الإحباط أو الحزن، ويصيب أعصابهم بنوع من الاسترخاء اللطيف.

ويضيف الروائي «خيري شبلي» قائلاً: إن السخرية هي النوع الوحيد من الكتابة، الذي لا يمكن أن يسجن، إذ كانت مبنية على وعي، ولن نستطيع استعادة هذا النوع من الكتابة إلّا بإعادة نشر كتب الكتّاب الساخرين.

■ وفي الموضوع عينه، وتحت عنوان «الكتابة الساخرة في الصحافة المصرية، استسهال السباب يفرغها من مضمونها السياسي»، كتب عمرو ناصيف ما يلي[16]:

«شدت الانتباه هذا الأسبوع في الصحافة المصرية ظاهرة غريبة، وهي زيادة جرعة السباب والشتائم في المقالات والأعمدة بشكل يدعو إلى التساؤل عما إذا كان الأمر في طريقه لأن يتحول إلى قاعدة ثابتة في «فن» الكتابة الصحافية».

في السابق كان أساطين الكتابة الساخرة، وعلى رأسهم محمود السعدني ومن قبله فكري أباظة يلجأون في المواقف التي لا مهرب فيها من (طول اللسان) على حد تعبير السعدني، إلى اختراع شتائم جديدة لا يحاسب عليها القانون، فغزت المجتمع المصري كلمات وعبارات لا معنى لها، وإن كان القصد منها الإساءة مثل «مزبلح» و«شنف» و«قرن» بفتح القاف والراء. وكانوا يلجأون أيضًا إلى استدعاء شتائم «ابن الإيه» التي عادت للتداول بفضل هؤلاء الكتّاب.

وكان من الغريب أنها درجت وقد ظنها البعض عبارة مدح، ولم ينتبهوا إلى أن «الإيه» تعني «الدابة»، وبعض الأحيان كان هؤلاء الكتَّاب يوظفون إمكانية اللعب بالألفاظ لتوجيه الشتائم بالتورية، وقد برز في هذا المجال محمود السعدني صاحب عبارة «أولاد الكامب» التي كان يستخدمها في الإشارة إلى مفاوضات كامب ديفيد.

ثم ظهرت عدة مقالات حملت عبارة «أولاد الكلب» بشكل يكاد يحول العبارة إلى أمر معتاد، وإذا كانت بعض هذه المقالات قد

استخدمت العبارة ضد الصهاينة، فإن ذلك أمر يقبله من يرون بوجوب الحذر والأدب مع إسرائيل، فإن هنالك من يرى أن المواجهة لا تكون بالسباب والشتائم، وأن «طول اللسان» لن يعيد حقًا مسلوبًا.

جريدة «الشعب» ضمت مقالاً حمل عنوان (ولاد الكلب)، جاء فيه تعليقًا على ما نشرته (الصنداي تايمز) و(الأوبزرفر) عن وجود أدلّة على تورط الجيش الجزائري في المذابح المنسوبة إلى الإسلاميين هناك: «يا ولاد الكلب» يا كل من اتهمتمونا وأدنتمونا عندما أدنّا انقلاب العسكر الفاشي على نتائج الانتخابات الديمقراطية في الجزائر.. يا ولاد الكلب، يا كل من سخرتم منا يا ولاد الكلب، الصحافة الإنكليزية كشفت وأكدت أن العسكر هم الذين يرتكبون المذابح في الجزائر... وتضيف: «ماذا ستقولون يا مستنيرين يا ديمقراطيين يا سياسيين محنكين، يا مؤرخين، يا تقدميين يا ولاد الكلب».

جريدة «الأهالي» لم تقع في نفس المنزلق، ولكنها روت تفاصيل الحادث المأساوي الذي هز مشاعر كافة المصريين مؤخرًا، حين أقدمت ثلاث طالبات بالمرحلة الإعدادية على الانتحار، هربًا من ضغوط المدرسة عليهن لإجبارهن على أخذ دروس خصوصية.

وفي التفاصيل يتأكد كيف أن عبارة (ولاد الكلب) أخطر من معتادة، بحيث أصبحت كاذبة لمواجهة موقف مأساوي كهذا...

فتقول الطالبات إنهن قررن الاستراحة من الضرب والإهانة، وأن يرحن أهلهن من المصاريف، فذهبن واشترين ثلاثة أكياس من سم الفئران، وحاولن الانتحار..

وعندما لاحظت ناظرة المدرسة آثار التسمم عليهن، اكتفت باستدعاء الفراشين والسعاة وهي تصرخ: ارموا العيال دول بره.. ثم وجهت الكلام إليهن قائلة: أكلتم إيه يا ولاد الكلب بره، وجايين تموتوا هنا..؟.

القضية إذًا تعدت حدود ما يلح عليه بعض الصحافيين من أهمية تنقية المهنة من الدخلاء عليها، وتهذيب الألفاظ والعبارات لتفويت

الفرصة على أعداء الصحافة والحرية، ممن يسعون لمحاصرة المهنة.. بل أصبح داء مجتمعيه يواجه ظلم الفقر، وجبروت الحاجة بقانون «اطلعوا موتوا بره يا ولاد الكلب».

جريدة «الفكاهة» القاهرية

ليست مجلة «الهلال» و«الروايات التاريخية» هي كل ما تركه جرجي زيدان قبل رحيله، ثمة أثر ثالث ثمين لزيدان يمكن اختصاره بعبارة إميل وشكري زيدان فقد ورث وليّا العهد مجلة «الهلال» من والدهما الذي رحل في العام 1914. وسرعان ما أعلنا عن ولادة «دار الهلال» حين صار يصدر عنها، إضافة إلى المجلة الأم، دوريات عدَّة متخصصة، بينها مجلة «الفكاهة» التي ظهر العدد الأول منها في 1 كانون الأول/ ديسمبر 1926، واختار الأخوان زيدان المحامي فكري أباظة رئيسًا للتحرير، والطبيب إبراهيم شدودي محررًا. والرجلان من هواة الكتابة الساخرة، ومحترفي مهن أخرى تقتضي الجدّة، كالطب والمحاماة، وقد أصابا في اختيارهما «شدودي وأباظة» عصفورين بحجر واحد: الاسم اللامع الواسع الشهرة، والموهبة الأصيلة في ذلك اللون الصحافي الصعب الذي فشل في خوض غماره كثيرون من المشاهير الذين اضطروا إلى زكزكة القرّاء من أجل إضحاكهم.

خذ مثلاً افتتاحية العدد الأول لأباظة التي توّجت بعنوان «الفكاهة»، لم تقتصر الافتتاحية على فلسفة الفكاهة والتنظير لها.. فقد حرص الكاتب على تطعيمها بحادثة طريفة يُفهم منها أنها واقعية، استهلها بالقول إن أخاه الصغير «عجيب الأطوار»، اشترى ذات يوم كراسة صغيرة، «أنيقة» يسميها الأجانب «أوتوغراف» ومخصصة لعبارات يكتبها العظماء. قلت «إذًا هل أكتب كلمة؟ قال: لا إنها خاصة بالعظماء كما ذكرت، قلت حسنًا، وفَّقك الشيطان في مشروعك السخيف» ولكن العظماء لم يستجيبوا لطلبه، لذلك عاد إلى أخيه الذي كتب وصيته على النحو التالي: «أهلي وأصدقائي: إذا مت، انصبوا حلقات الرقص أمام

مشهدي، ولكن من نوع التانغو والشارلستون، واحتفلوا بمأتمي ثلاث ليالٍ: ماتينيه وسواريه.. أديروا الكؤوس في صحتي الماضية واذكروني ضاحكين».

كان الضرب في المنازل والمدارس آنذاك الوجبة اليومية. انتقد أباظة مداورة تلك العادة في العدد 23 الصادر في 4 أيار/مايو 1927 عبر ما جرى معه في «مدرسة القربية» عام 1903، وقد مهد لها بوصف ملابس الطلاب وهو منهم، التي كانت أقرب إلى «عهد فرنسوا الأول» مع فارق كبير أن كرافتات التلامذة من فرط الإهمال تتحول من العنق إلى القفا.

وكانت رتوش الحبر الأحمر والأزرق والكوبيا تنتشر على اليدين والفم واللسان.. وكانت عملية تلميع الجزم (الأحذية) يتولاها البنطلون المسكين بحذق ومهارة..

أما بيت القصيد فيتلخص في أن أحد النظار كان بصورة يومية «يضرب زميلي كفًا»، ثم يهوي على وجهي بكفٍ آخر.. تكررت العبارة مثنى وثلاث ورباع، فتجرأت في اليوم الخامس وسألت زميلي: الراجل ده بيضربنا ليه؟ قال: دا يبقى أبويا! وحين همَّ الرجل في ضربه صبيحة اليوم الخامس، جرى الحوار الآتي: «يا أفندي ما تضربنيش! (وإذا به يضاعف الضرب ثم قال) اخرس، جك قطع لسانك. إنت مش ابن حسين بك أباظة؟ قلت: آه. قال: طيب مش أنا زي أبوك؟ وإنت زي ابني؟ سلّم على أبوك وقل له، عمي مصطفى اللي كان اشترى لك وابور الري واخد باله مني».. أما الدكتور شدودي، فقد كان ينشر أكثر من قصيدة في العدد الواحد فيذيل إحداها بتوقيعه الصريح، والأخرى بـ«شاعر الفكاهة».

عن «شكاوى الناس من الإفلاس» نقرأ في العدد 30 الصادر في 22 حزيران/يونيو 1927 وباللهجة اللبنانية لأن الشكوى صدرت عن الصيدناوي وهو من الشوام:

إيش هالكريزة (الأزمة) يا جبران
دير بالك الدكان فاضي
عَمَشْ شو صاير في هالدكان
رزق الله ع العام الماضي
لا بيع فانيلا (قميص داخلية) ولا فستان
ماني عن الحالة راضي
قاعد هنا كش الدبان (الذباب)
هاجت عليّ أمراضي

أما العربجي المصري فيقول في شكوه:

آجي عاوزني أجي يا بيه
أجي ما تتفضل جرى إيه
ماشي تهين نفسك على إيه
هوّنت راح تركب بجنيه
شوفو يا ناس اسم الله عليه
البيه بيمشي على رجليه
إن كان غنينا يروح ماشي
أمّا فقيرنا يعمل إيه

وينظم شدودي بالفصحى أيضًا، حيث يقول في العدد (19) الصادر في 26 كانون الثاني/ يناير 1927 مقلدًا عنترة في معلقته المعنونة:

«هل غادر الشعراء من متردم؟»:

إن كنت أزمعت العزال فإنما
فرغت فلوسُكمو (الفلوس) بليل مظلم
سلبتك راقصة الكازينو ثروة فرميت كل جنيهة كالدرهم
كيف السبيل إلى الموبليات (مقاعد خشبية) التي

ترضي عريس البنت وهو جهنمي؟
يا رب خلصني بقى من المقت دا، نزل علي ولو رصاصة دمدم.

«محكمتنا العرفية» كان أحد أبواب المجلة، كان صاحب (الأهرام) جبرائيل تقلا نقيب الصحافة في مصر. لذلك جرت محاكمته في العدد (17) الصادر في 23 آذار/مارس 1927 على النحو التالي:

النيابة: إن لطائفة الصحافيين من (الأخبار) الكاذبة، و«الساسة» العوجاء ما لو جمع لتكونت منه (أهرام) تتعجب منها (الناس) وعندكم من (الأفكار) ما تخفون به حقيقة (كل شيء) وكيف يقدر (المصور) الماهر على تصوير ما أحدثتموه في (وادي النيل) من التأثير في (الآداب) و(الفنون) ولكم كل يوم (ألف صنف) من التقلبات في الآراء. وإنكم لتمثلون (الشيطان) في هذا (المصرح) و(البلاغ) المرفوع إلينا ضدكم يدل على أن (البصير) منكم يتعثر بأغلاط الأعمى، ولو سطع أمامه (كوكب الشرق). بل كثيرًا ما تعرض (الوطن) بفوضى الصحافة للخطر ولكن (مصر) (المحروسة) تجتاز من بلاويكم هضابًا كهضاب (المقطم) وتتمنى أن تتركوها ساعة، تتمتع فيها بنصيبها من (الفكاهة). فأنا أطلب الحكم على الصحافة في شخص نقيبها بأقصى العقوبة...
المتهم: يلوح لي وكيل النيابة، قد أكل (نسخة) جعلته يتخبط في (أعمدة) الاعتراضات، فجاءت (مقالته) ضعيفة (لا تستحق النشر).
الرئيس: حكمت المحكمة على المتهم بخمس وعشرين (جريدة).
الجدير أن الكلمات الموضوعة بين هلالين في مطالعة النيابة العامة هي أسماء بعض الصحف التي كانت تصدر في القاهرة آنذاك. وأن الكلمات المماثلة في دفاع المتهم يتداولها الصحافيون في مطبخ التحرير[17].

المصريون اخترعوا «فن النكتة»

جاء في صحيفة «الحياة» الصادرة بتاريخ 18 تموز/ يوليو 2004:

إن المصريين يفخرون بأنهم أول شعوب الحضارة الإنسانية التي عرفت طريقة صنع الجعة، واستخدام بوصة الصيد، لكنهم أيضًا أول من أطلق النكات، وانتشرت روح الفكاهة في الحياة المصرية، فعندما يشكو راكب في إحدى سيارات الأجرة (التاكسي) في القاهرة من وجود صرصور في السيارة، يشاركه السائق شكواه بأن الصرصور لم يدفع له أجرة الانتقال!

ويقول عالم الاجتماع السياسي عصام فوزي: «تاريخيًا كان المصريون يتمتعون بحكومة مركزية قوية، وكانت النكات وسيلة لتوحيد الشعب المقهور».

وقد كشفت دراسة لعالم مصريات بريطاني أن المصريين القدامى كانوا «مغرمين بالنكات البذيئة، والهجاء السياسي، والعبارات التي تنطوي على سخرية لاذعة، والفن الشبيه بالرسم الكاريكاتوري».

وقال فوزي إن الأمور لم تتغير كثيرًا منذ ذلك الحين وإن الموضوعات المرتبطة بالسلطة السياسية والجنس والدين تظهر في شكل بارز في النكات على الرغم من أن الموضوعات الاجتماعية تحظى بنصيب معقول من النكات، ويوضح رسم كاريكاتوري نشرته أخيرًا مجلة «روز اليوسف» المصرية، شابًا يطلب من والد فتاته الزواج بها ويقول الشاب في الرسم: ممكن أدفع نصف المهر وآخذها خميس وجمعة.

أيضًا جاء في صحيفة «الحياة» بتاريخ 4 آذار/ مارس 2004 تحت عنوان:

الصعايدة هدفًا للنكات.. والجنس مجالها الرحب:

«ليس كل مصري هاوي نكتة»، فهناك نسبة لا بأس بها، لا تطيق النكات، وتهرب من سماعها. واللافت أن هذه النسبة بلغت 49٪ من إجمالي سكان المنيا «الملقبة بعروس الصعيد» والغريب أن «الصعايدة» لا يحبون النكات ولا التنكيت، على عكس ما هو شائع عنهم، ربما لأنهم متضررون من نكات بقية المصريين الذين يبدأون «وصلة النكات» و«الفرفشة» بالجملة الشائعة «مرة واحد صعيدي».
وعلى عكس «الصعيدي» يبدو أهل بحري والدلتا فضلاً عن أهل السواحل والقاهرة، وكأنهم يتغذون بالنكات. فأهل «السواحل» هم الأكثر تنكيتًا، واختراعًا للنكات، لدرجة أن 37 اسكندرانيًا من كل مئة يتصافحون على طريقة: «سمعت آخر نكتة؟».

وحول هذه النقطة المتعلقة بالاسكندرانية وحبهم للنكات والتنكيت، جاء في دراسة حديثة للمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في مصر أن لغرام «الاسكندرانية» بالنكتة علاقة مباشرة بالبحر، وبالإحساس بتميزهم العرقي عن بقية محافظات مصر.

(يتميز الاسكندرانية بالبشرة البيضاء، والعيون الملونة، والشعر الأشقر نسبيًا) وهذا يرجع إلى أن أهل الساحل «مهجنون» بسبب اختلاطهم بالجنسيات الأخرى (وخاصة اليونانيون).

والدراسة المشار إليها تمت بإشراف الدكتور أشرف زايد أستاذ علم الاجتماع في جامعة القاهرة وأشارت إلى أن أكثر الجماعات التي يقع عليها عبء النكتة هم «الصعايدة» و«المنايفة»[18] و«الدمايطة»[19] وأن الجنس (خصوصًا العجز أو التفوق الجنسي) هو الموضوع الأكثر إثارة للنكات، مع الأخذ بالاعتبار عوامل الكبت الجنسي، والتقاليد التي تجعل منه أحد المحرمات الاجتماعية، فالمصريون غالبًا ما يلقون بتبعات أزماتهم على الحكام، بحيث يتخلص المواطن العادي من مسؤوليته المباشرة وغير المباشرة عن الأزمة وهكذا يخرج «الشخص»

من موقف النكتة مستريحًا ومن دون أية مسؤولية.

وعن إدمان المصريين للنكات والتنكيت، جاء في نتائج الدراسة، أن المصريين يدمنون النكت، لأنها تبعدهم عن المتاعب، وأن أربعة من كل خمسة مصريين ينغمسون في التنكيت، في كل الأوقات حتى يفرّق بينهم النوم. والمصري الخامس يؤكد، أو هو أكد أن هدفه من التنكيت هو التعرف على آراء زملائه وأفكارهم...

والطريف أن سيدات مصر يحببن النكات مثل رجالهن، والفارق بين الجنسين ضئيل لجهة المشاركة في التنكيت. فعند الذكور تبلغ النسبة 58,3٪ وعند الإناث 52.4٪، وهكذا الفلاحون أيضًا يشاركون أهل البندر (الحضر) كما تقول الدراسة في التنكيت. وتصل نسبة المنكتين في الريف إلى 55٪ وترتفع إلى 65٪ عند أهل الحضر والمدينة.

أما الشيوخ فأقل إقبالاً على النكتة، في حين أن الشباب المصريين يكادون يلتقطون أنفاسهم من النكات. كما أن سبعة من كل عشرة شباب يحفظون النكات ويلقونها في كل المواقف، في مقابل 3 من كل عشرة من الشيوخ (فوق 55 سنة) يستمتعون بإلقاء النكات وتذوقها، والضحك عليها. والمتعلمون هم أهل النكتة و85٪ من المتعلمين يشاركون في إلقاء النكتة وتأليفها، مقابل 54٪ فقط من الأميين الذين تعوقهم أميتهم عن الخوض في مجالات أرحب للنكتة والتنكيت.

الصحافة السياسية الساخرة في لبنان

في العهد العثماني

عرف اللبنانيون الصحافة الهزلية بادئ الأمر في نهاية القرن الماضي، وتحديدًا في عام 1896، عندما أصدر **عبد الله القدسي** اللبناني الأصل والجنسية صحيفة «الكرباج والعفريت». ولكون الناشر كان من نزلاء

الديار المصرية، فقد اختار الاسكندرية لإصدارها.

كانت مصر في ذلك الحين مغتربًا قريبًا لكثير من الأدباء.. ورجال الصحافة اللبنانيين، الذين أمّوا شطرها، هربًا من الاستبداد العثماني، وبحثًا عن مزيد من نسائم الحرية التي افتقدوها في بلادهم. وبعد ذلك بسنتين أصدر **ديمتري نقولا** اللبناني أيضًا صحيفة «الفكاهة» عام 1898 م من القاهرة وكرّت السبحة فصدرت صحيفة «أنيس الجليس» في العام نفسه، **لاسكندر خوري**، ثم «تسلية الخواطر» **لسبع الشميل**، ثم «أبو نواس» **ليوسف كنعان** وجميعها صدرت في الاسكندرية عام 1898، إلى أن صدرت صحيفة «الخُرج» **لمتري الخوري** عام 1909، وكانت أول صحيفة هزلية تصدر من بيروت[20].

لم تعرف الصحافة الساخرة في لبنان تطورًا ملحوظًا خلال العهد العثماني وكانت المرحلة التي رافقت ظهورها منذ 1908، حتى الانتداب الفرنسي عام 1920 قصيرة نسبيًا، لتسمح لها بالتطور.

يضاف إلى ذلك اشتعال نار الحرب العالمية الأولى، وإعلان الأحكام العرفية، وكمُّ الأفواه جدًا وهزلاً، لا سيّما أن هذه الصحف لم تكن بعيدة عن مشاكل المجتمع، وغمار السياسة، فنالها التعطيل كما نال التوقيف أصحابها.

■ أما جريدة «حمارة بلدنا» التي أصدرها في بيروت **توفيق جانا** في أيلول/ سبتمبر 1910، فقد تفوقت على زميلتها السابقة «الخرج» من حيث الجرأة، والموضوع، والإخراج، حتى اعتبر صاحبها أنها الأولى في لبنان، وحيث كتب: «ولما كانت جريدتنا أول جريدة هزلية مصورة صدرت باللغة العربية على الإطلاق في لبنان»، ولم يسبق لأحد القيام بهذا المشروع الذي وجد في بلاد الغرب آخر ما وصل إليه الهزل من درجات الرقي، فقد أقدمنا عليه وإن كنا لسنا من أهل الميدان، وكلنا أمل في أدباء البلاد، وشبيبتها، أن يُناصروا «حمارتنا»، ويساعدوها على الرعي والسلام على من اتبع الهدى.

كـل مـن شـذّ عـن الـعـدل	رقـبـتـي يـا صـاحـبـي اربـطـه
وإن خـلـت امـرءًا فـي شـغـلـه	مـسـتـبـدًا، فـأنـا ألـبـطـه
فـإن مـات، فـلـلـقـرد، وإن	عـاش فـأنـا بـرجـلـي أخـبـكـه
جـئـت لـلإصـلاح يـا قـومـي	فمن حاد عنه فأنا أمعطه[21]

أما في الافتتاحية التي حدّد بها الغاية من إصدار صحيفته، فقد كتب توفيق جانا:

«اللهم يا من جعلت حمارتي سيدة الحمير، وألهمتها الاكتفاء بالتبن بدل الشعير، وتركتها قدوة للغمز واللمز واللكز على الكبير والصغير تختال على الأمير والحقير، وجعلت لبسها القز والحرير، اللهم هبها الجرأة على نقد الخونة الكرام، والعنفصة على كل ابن كلب، وابن حرام، واحتمال الأذى ممن يرون النقد في عيونهم قذى».

أوقفت السلطة العثمانية صحيفة «حمارة بلدنا» بعد شهرين من ولادتها، فكان أن عمد الناشر إلى تغيير الاسم، فأصدر جريدة «الحمارة» عام 1910، التي كانت أكثر حذرًا من شقيقتها في نقدها السياسي الهزلي، مما أتاح لها العيش ثلاث سنوات، توقفت بعدها بأمر من السلطة عشية الحرب العالمية الأولى عام 1913.

عمد توفيق جانا، وفور إقفال جريدته «الحمارة» إلى إصدار جريدة «البغلة»، التي اعتمدت الصور والكاريكاتور أكثر من سابقتها، وفي خط موازٍ لها، أصدر صحيفة «حمارة الجبل» في العام نفسه.

ولم يكتف توفيق جانا بهذا القدر من الصحف، التي ما كانت تتعطل إحداها، إلّا يصدر بديلها، إلى أن أصدر في 20 نيسان/ ابريل 1914 جريدة «جراب الكردي» التي كانت جامعة، تحوي كل شيء، كما يدل عليها اسمها.

نجحت الصحافة الهزلية في لبنان إبان الحكم العثماني، وأقبل القراء عليها تنفيسًا للكبت الذي اتسم به ذلك العهد، يُضاف إلى ذلك، أن اللهجة كانت أكثر قبولاً لدى الجماهير.

الصحافة الساخرة في عهدي الانتداب والاستقلال

كما رأينا في لبنان في العهد العثماني وفرة في عدد الصحف الهزلية التي لم تترك بابًا إلّا طرقته، إلّا أن جميع هذه الصحف التي ذكرنا اتخذت الطابع الهزلي دون التطرق إلى السياسة إلّا لمامًا وتورية، إلى أن أصدر الصحافي اللبناني النابه اسكندر رياشي مجلة «الصحافي التائه» عام 1922 في مدينة زحلة في شرق لبنان. وكانت هذه الصحيفة فعلاً باكورة الصحافة السياسية الساخرة في لبنان.

وقد اشتهر اسكندر الرياشي بذكائه الحاد وسخريته اللاذعة، وشجاعته المميزة، وحيث اعتُبر عن حق أستاذ الأدب الساخر في لبنان، وأحد أعمدته في العالم العربي.

■ وهنا تحضرني حادثة يتندر بها السياسيون اللبنانيون المخضرمون إلى يومنا هذا كونها تصلح للعبرة في كل زمان وغير مكان. وخلاصتها أن المفوض السامي الفرنسي «دي مارتيل» استدعى يومًا الصحافي التائه وهو «لقب عُرف به الرياشي» وطلب منه بما له من قوة في الإقناع أن يذهب إلى البقاع، ويُقنع أحد زعماء العشائر «ملحم قاسم المصري» بتأييد انتخاب شكري بخاش أحد مرشحي الفرنسيين في تلك المنطقة، فقال الرياشي، وكان مشهورًا بحبه للمال، ولا يتورع عن طلبه، إن المهمة تستلزم رشوة يدفعها للزعيم العشائري، فنقده المفوض السامي خمسة آلاف ليرة لبنانية كانت تمثل ثروة في ذلك الحين، فوضعها اسكندر رياشي في جيبه الأيمن، وانتقل في إحدى عربات الخيل إلى منطقة البقاع، والطريق طويلة، وعلى المسافر أن يمر بعدة قرى ودساكر منها عاليه، وصوفر وشتورة... إلخ.

عند وصول الرياشي إلى عاليه، فكّر بأن هذا المبلغ هو كثير على ملحم قاسم، فأخذ منه ألفًا ووضعها في جيبه الأيسر، ثم ألفًا آخر في صوفر، وهكذا حتى وصل إلى زحلة، وكان كامل المبلغ قد أمسى في الجيب الأيسر، فقفل راجعًا إلى بيروت دون إكمال المهمة، وعندما سأله المفوض السامي الفرنسي هل اقتنع الزعيم العشائري بانتخاب «البخاش» نائبًا عن زحلة؟ أجابه الرياشي بكثير من الجرأة: إن عملية الإقناع بحاجة إلى مال، فاستغرب الكونت «دي مارتيل» وقال له: لقد أعطيتك مبلغًا كبيرًا. فأجاب الرياشي ساخرًا: هذا المبلغ كان ضروريًا لإقناعي أنا.

وتابع الرياشي سخريته من خلال صحيفته ومواقفه مع رجال السياسة، خلال فترة الانتداب الفرنسي على لبنان وبعد الاستقلال.. وأصدر مجموعة كتب سياسية تهكمية، كان أهمها على الإطلاق «قبل وبعد» الذي قارن فيه مواقف السياسيين اللبنانيين وأساليبهم الملتوية، وخفايا كواليس السياسة، قبل الاستقلال وبعده، وقد طبع من هذا الكتاب آلاف النسخ التي فُقدت من الأسواق.

وقد أمسى «الرياشي» بسخريته، وقلمه اللاذع مؤشرًا أساسيًا على الرأي العام، لكثرة قرائه ومحبي قلمه. ويروي الزعيم اللبناني رياض الصلح[22]، وكان الرياشي من محبيه، أنه طلب من الأخير، بما له من دالّة عليه أن يكتب عدة مقالات يعرّف بها الوسط السياسي اللبناني برجل الأعمال نجيب صالحة، وهو مليونير لبناني، جمع ثروته في العربية السعودية، إذ كان مقرّبًا من الملك عبد العزيز، وشاء بعد عودته إلى لبنان أن يدخل عالم السياسة من بابه الواسع.. كتب الرياشي ثلاثة مقالات أشاد بها برجل الخير، الكريم، العفيف، النظيف... إلخ، متأملًا أن يحصل بنهايتها على مبلغ من المال يتفق مع جهده وشهرته.. وزار الرياشي صالحة الذي فاجأه بالقول: أنا ممتن لك يا أستاذ رياشي ولكنني محتار كيف أشكرك على جهدك، وكرر كلمة «محتار» عدة مرات حتى ضاق الرياشي ذرعًا به وقال: يا سيد صالحة منذ اخترع أهل الصين صك النقود قبل آلاف السنين «بعد حدا محتار»؟!..

■ «الدبور» كانت الصحيفة السياسية الثانية في لبنان التي اتخذت أسلوب السخرية، والتهكم السياسي أسلوبًا لها. أصدرها يوسف مكرزل في بيروت عام 1923، اعتمدت «الدبور» الكاريكاتور والمقال الساخر منذ انطلاقتها. وكانت الشخصية الأساسية بها شخصية «أبو طنوس»، التي لم يخلُ عدد من صورة كاريكاتورية له، وهو رجل ذو شاربين يقف عليهما الصقر، ويرتدي الشروال، ويضع الطربوش ويمثل اللبناني الأصيل. كانت معظم مواد هذه المجلة الأسبوعية باللغة العاميّة الدارجة، وكان بها أبواب ساخرة أهمها، «من وكر الدبور» وهي سرد لأخبار الأسبوع بأسلوب ساخر و«باب العقص» وهي شذرات لاذعة دونها عقصة الدبور إيلامًا.

لم تمر «عقصات» الدبور دون حساب فقد طالها التعطيل مرارًا في عهدي الانتداب والاستقلال، وقد سُجن صاحبها أكثر من مرة لجرأته، وحدّة سخريته من المقامات العليا، وكان أشهر مواقفها أيام المستشار الفرنسي المسيو «كايلا» «Kayla» في أواخر الثلاثينيات، وقد استخف المذكور بالحكومة اللبنانية وأفرادها، متجاوزًا المفوض السامي الفرنسي، ومشهِّرًا بالدستور الذي أقرته السلطة المنتدبة. فجاء غلاف «الدبور» صورة كاريكاتورية لكلب هائج، مع إشارة إلى المفوض السامي تقول:

«اربط كلبك. . «كايلا» يهرب». فكلفت «الدبور» تعطيلاً لمدة شهر، وصاحبها يوسف مكرزل أسبوعين بين قضبان السجن.

توقفت هذه «المجلة» المميّزة والرائدة عن الصدور إثر اندلاع الحرب اللبنانية عام 1975، بعد أن أصبح السلاح سيد الموقف وأصبحت أية «مزحة» مع قوى الأمر الواقع تكلف صاحبها حياته، إذا لم يطل النسف والتدمير مؤسسته، وهكذا انتقلت «الدبور» إلى رحمته تعالى بعد نصف قرن من إصدارها، متممة واجباتها «الصحافية» وكانت

خلال هذه الفترة الزمنية أداة هامة من أدوات توعية الرأي العام وتحريكه.

ويذكر الأوّلون، وأرشيف الصحافة، رسالة مفتوحة كتبتها «الدبور» موجهة إلى الجنرال سراي المفوض السامي الفرنسي في لبنان سنة 1925 اتسمت بالسخرية من بدايتها «من عبده ابن الدبور والدبابير من وكر لبنان الكبير، إلى فخامتلو، أفندم، حضرتلو الجنرال سراي المكرم. . .

أما الاقتصاد والتجارة، فقد أصبحت نخالة ونشارة، ومراقص وكلوبات وخمّارة، وبيوت فسق ودعارة، وخود قهوة وجيب نارة. . فهل لحالتنا دبَّارة[23].

أما المستشارون فلا يحكمون كأنهم فرعون، يضربون، ويقتلون، بأمطار القانون، وكل ذلك على شرب الويسكي والأفيون، ونغم الغرامافون. . ولا نعلم إذا جبت لهم نظام فرساي أو البانثيون»[24].

وفي مجال آخر تهكمت من دولة لبنان الكبير، وحكامها الساعين وراء ملذاتهم:

«ودولة لبنان الكبير رح تكبر وتصير لبنان الصغير أيام الأمير بشير،
وعلى رأسها مثير أو أمثير أو مخك كبير أو خبير بالسرير».

آلت الدبور على نفسها كشف عورات الحكم، ومظاهر الفساد والرشوة في دوائر الدولة داعية إلى التطوير والإصلاح، وكان لها كما لوصيفتها الناقدة الساخرة تأثير بالغ على الرأي العام.

■ «الصياد»: مع بزوغ فجر الاستقلال وتحديدًا في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1943، أصدر سعيد فريحة صحيفته الرائدة «الصياد»، مجلة كاريكاتورية، انتقادية، ساخرة، كانت تجمع بين الجد والهزل، وكان الكاريكاتور صفتها البارزة من الغلاف إلى الغلاف. وكان لأسلوب سعيد فريحة المميّز نكهته الخاصة، وهو الأستاذ في عالم الصحافة، وكانت «جعبة الصياد» هي المقال الأسبوعي بقلم الأستاذ سعيد،

نموذجًا يُدرّس في كليات الصحافة، كأسلوب طريف ساخر.

اختلفت «الصياد» عن زميلتها «الدبور» باعتمادها اللغة الفصحى في معظم إن لم نقل في كل أبوابها. والتقت معها في الرسم الكاريكاتوري اللبناني الأصيل صاحب الطربوش والشروال[25] والشاربين، إنما بدلاً من «أبو طنوس» سمته «أبو خليل» وقد اعتبر سعيد فريحة ربما، أن هذا الاسم يمثّل كافة اللبنانيين وليس فئة منهم فقط. كان سعيد فريحة «الأرثوذكسي» مؤمنًا بالوحدة الوطنية، وبعيدًا عن التعصب الديني، وكان قريبًا جدًا من رئيس الوزراء رياض الصلح قبل أن يصبح لاحقًا من أول دعاة القومية العربية، ومؤيدي رائدها جمال عبد الناصر.

بقيت «الصياد» مرتدية الرداء الكاريكاتوري حوالي ثلاثين عامًا إلى منتصف السبعينيات، قبل وفاة صاحبها بقليل، وتسلّم أولاده دفة السفينة، حيث عمل بسام وعصام وإلهام فريحة، على إجراء نقلة نوعية في صحف دار الصياد التي أصبحت تُصدر أكثر من عشر صحف متخصصة، وحيث طال التطور المجلة الأم «الصياد» فارتدت حلّة جديدة، شكلاً ومحتوى، وابتعدت عن السخرية الاجتماعية السياسية، «التي لا يملأ فراغ سعيد فريحة فيها أحد» كما قال لي صديقي بسام فريحة، عميد الدار حاليًا.

جمع سعيد فريحة بين الجد والهزل، وكان لصحيفته «الصياد» وما تفرّع عنها من صحف، أهمها الجريدة اليومية «الأنوار»، دور هام في تجييش الرأي العام مع من أحبهم سعيد فريحة وآمن بهم، وضد من اعتبرهم خصومًا لعقيدته... لقد سخر من خصوم عبد الناصر، كما سخر قبلها من خصوم رياض الصلح، وكان أول صحافي آمن وبشّر بالعلاقة القدرية بين لبنان وسوريا، فكثيرًا ما نرى في الكاريكاتور الهادف «أبو خليل» يتحادث مع «أبو درويش» وكان هذا الأخير يرمز إلى المواطن السوري الأصيل، وحيث كان يشكو كلاهما همومه للآخر.

كانت الجلسة مع سعيد فريحة ممتعة كقراءته، وكانت تجمع بين المتعة والفائدة، وقد تسنَّى لي الاستمتاع ببعضها.. وقد كتب مرة في

جعبته معلقًا على التهذيب المبالغ به من قبل أحد كبار موظفي الدولة في عهد الرئيس شارل حلو «من كثرة تهذيبه أشعرني أنني بلا تهذيب»، ولمّا أبديت له إعجابي بهذا التعبير في أحد لقاءاتنا في شتورة صيف 1970، قال لي: «الواقع أن هذا الرجل.. خوزقني بتهذيبه ولم أشأ أن أكتب ذلك».

كان كاريكاتور «الصياد» وخاصة غلافها، مجال تعليق الناس في الأندية والمقاهي، ومن أطرفها في بداية عهد الاستقلال، صورة كاريكاتورية للأمير مجيد أرسلان (أحد وزراء ذلك العهد)، وكان يسمي نفسه سيد بشامون، كونه ترأس الحكومة الانتقالية في بشامون[26] والصورة تمثل الأمير مجيد قابضًا على عنق هتلر وهو يقول:

«دقيت بتشرشل وبستالين مليح، بس أوعا تدق بسيد بشامون.. بسحقك وبمحقك، وبحسب الله ما خلقك».

■ عام 1952، كتب خليل تقي الدين:

«لقد عرفت الصحافة الحديثة قلمين ساخرين من أقوى الأقلام وأشدها إخلاصًا، وأحبها إلى النفوس، كاتبين يمتّان بصلة وثيقة إلى سيد كتاب العرب الساخرين، أبو عثمان الجاحظ، محمد التابعي في مصر، وسعيد فريحة في لبنان»[27].

■ وفي مكان آخر كتب الدكتور سهيل إدريس، صحافي سياسي مناضل شارك منذ الاستقلال في رسم الاتجاه السياسي الصحيح، والذي ينبغي للبنان أن يسلكه كدولة عربية، وقد اتخذ فن الكاريكاتور عمله الأول للتعبير عن آرائه السياسية، فبات في فترة قصيرة علمًا من أعلام الكتّاب الكاريكاتوريين السياسيين في العالم في الشرق العربي، فليس غريبًا أن يجد القارئ في كتاباته اتجاهًا سياسيًا بيّنًا، تقوم قيمته كلها على هذا النقد اللاذع، الذي يوجهه إلى السياسات العربية في مختلف البلدان.

وفصله عن العراق يحوي تحليلاً للأوضاع الاجتماعية والسياسية، يشعر بصدقه كل عربي، وترى المؤلف في هذا الفصل يطرح أسئلة تقريرية بارعة، عن أوضاع العراق يرمي من خلالها في كثير من الدهاء إلى أوضاع لبنان[28].

■ وعند ذكر الصحافة الساخرة لا يمكن إغفال ذكر صحيفة «الأحرار المصورة» التي أصدرها جبران التويني[29] في 11 كانون الثاني/ يناير عام 1926 التي لم تكتب لها الحياة سوى سنة ونيّف، حيث عطلها المفوض السامي في 30 تموز/ يوليو عام 1927، وكان قد سبق ذلك قرار بإقفالها بعد ثلاثة أشهر من إصدارها، وقد اعتبر المفوض السامي في قراره، أن هذه الجريدة الأسبوعية تقوم بتهييج الرأي العام، ولم يأتِ التعطيل بسبب مقال نشرته الجريدة بل بسبب كاريكاتور «لأنه لا يقل تهييجًا للرأي العام عن الكلمة المنشورة»[30].

لقد كان تويني من دعاة الاستقلال عن السلطة الفرنسية المنتدبة وقد توسل الكلمة الهادئة، والساخرة من أجل تحقيق هدف الاستقلال[31].

كان تويني يدافع عن (وطنيي) لبنان أيضًا عندما يتعرضون لمظالم السلطة المنتدبة وأدواتها. ففي العدد «29» الصادر في 23 آب/ أغسطس 1926 دافع «حلاق» في الصفحة الأولى عن الشاعر الشعبي البيروتي «عمر الزعني» الذي بدأ ينظم قصائده الساخرة اللاذعة في العهد الانتدابي. واستمر على نهجه بوابل من تلك القصائد، ومنها القصيدة الشهيرة «من القنطاري لرأس النبع»، قال تويني في سياق الافتتاحية ذات الحجم الصغير:

> السيد عمر الزعني صاحب الأناشيد الشعبية الشهيرة كان كاتبًا في محكمة الحقوق، وقد «صرفه» وزير العدلية! ماذا جنى الزعنّي؟ إنه أنشد في حفلة أقامتها نقابة الصحافة النشيد المراقب «حاسب يا فرنك»، فخدش بعض الآذان، واعتبروا عمرًا من الأفعال الناقصة، وطلبوا إلى وزير العدلية تصريفه.

اهتمت الجريدة الأسبوعية بالأدب والأدباء، أجرت الاستفتاءات، خصصت صفحة للشعر، واشترك في تحرير القسم الأدبي الذي يشكّل محورًا رئيسيًا في «الأحرار المصوّرة» عدد من الكتّاب اللبنانيين بخلاف المحور السياسي الذي اقتصر تحريره على صاحب الجريدة.

ولكن تويني كان أيضًا يحرر في القسم الأدبي. ومن الأبواب الأدبية الطريفة التي أبدعها وحررها، باب محاكمة مشاهير الأدباء، إحدى المحاكمات تناولت الأديب عمر فاخوري، الذي كان يحرر صفحة كاملة في كل عدد.

كان الأديب اليساري موظفًا في دائرة واحدة مع عمر الزعنّي، ولكن المحاكمة دافعت عن الزعنّي، أكثر مما هاجمت فاخوري.

يقول تويني في وقائع المحاكمة الخيالية المخترعة «فتحت الجلسة برئاسة سماحة الشيخ محمد الجسر». وكانت المحكمة غاصة بالجماهير فدخل الأستاذ الدكتور عبد الله اليافي، وجلس في كرسي النيابة العامة، ونودي على المتهم، فحضر عنه الأستاذ صلاح اللبابيدي.

الرئيس: أين هو الأستاذ فاخوري من غير شر؟

محامي الدفاع: لقد سافر في رحلة علمية إلى بلاد الغرب.

النيابة العامة: إننا نطلب محاكمة الأستاذ فاخوري لهذا السبب، لأنه هجر مكتبه وسافر.

وإذا بصوت رن في قاعة الجلسة، ينشد بصوت رخيم، فالتفت الناس، وإذا بالأستاذ عمر الزعنّي يقول:

قلت له روح تغرب   لا تحمل ثقلي عني
الطقس جميل   والهواء عليل
والليل طويل   نعمة كريم

فصاح الرئيس غاضبًا: ما هذا الإنشاد في قاعة المحكمة؟

الزعنّي: شيء عجيب! أنشدنا خارج المحكمة، أي في حفلة نقابة

الصحافة، قوّمتوا علينا القيامة، وجئنا ننشد أمام المحكمة فمنعتمونا من الإنشاد! ما هذا الاستبداد؟

ولنا عودة إلى عمر الزعني في باب السخرية السياسية في الشعر. ومن أهم المقالات السياسية الساخرة التي كتبها جبران تويني مقاله عن جزيرة أرواد في محافظة اللاذقية السورية:

■ «كانت جزيرة أرواد المجاورة للساحل السوري، المكان الأكثر «استضافة» للوطنيين السوريين، ولم تكن معاملة السلطات للمعتقلين متناسبة مع مبادئ الثورة الفرنسية التي دفعت بهؤلاء الوطنيين إلى حب فرنسا خلال الحكم العثماني، أضف إلى ذلك أن بعض المنفيين إلى أرواد قد سيقوا إليها بلا محاكمة.

وردًا على الاستبداد الفرنسي عقد «حلاق» افتتاحية في العدد السادس الصادر في 15 شباط/ فبراير 1926 قال فيها:

«أصبحت أرواد معتقلاً للأحرار السوريين تشحن السلطة إليها مَن عاكس خطها، وقاوم سياستها... إن هذا السجن محرم في البلاد الدستورية المستقلة إلّا عن طريق المحاكم. ولكننا شعب غير دستوري وغير مستقل. ومن الآن إلى أن يشرفنا دستور أفندي، نرى «الضيوف» إلى أرواد رايحين جايين. ولكن السلطة التي تسوقهم مكرهين إلى ضيافتها تطرحهم في غرف رطبة.. فيا حضرات الموظفين في أرواد: عاملوا المعتقلين بالحسنى، وإذا أردتم أن تحلقوا لهم، لا تحلقوا على الناشف».

والجدير أن مراسل «الأحرار» و«الأحرار المصورة» نجيب الريس كان أحد «ضيوف» أرواد. وهو الذي نظم القصيدة الوطنية الشهيرة أثناء اعتقاله في أرواد:

«يا ظلام السجن خيّم إننا نهوى الظلاما» التي جرى تلحينها وإنشادها وحفظتها الأجيال المتعاقبة كما فعلت مع قصيدة «إبراهيم اليازجي» **«انتبهوا، استفيقوا أيها العرب»**.

وباعتبار أن الجريدة الأسبوعية مصورة، فإن تويني كان يتوسل الصور الفوتوغرافية والكاريكاتورية في حملاته النقدية. وها هو في العدد 30 الصادر في 30 آب/ أغسطس 1926 يخصص الصفحة الأولى لنشر صور معتقلي «الحجة» وفي طليعتهم السياسي الوطني فارس الخوري.

وكون الأسماء المستعارة كانت كثيرة الشيوع في الصحافة الساخرة في لبنان كما في مصر فقد أكثر التويني منها، ولكنه لم يكشف أسرارها قبل أن يُقلع عن استعمالها. ومن أسمائه المستعارة «الشنفرى» الذي يقول في العدد 13 من «الأحرار المصورة» الصادر في 5 نيسان/ إبريل 1926 إنه استعمله في كتابات سابقة، ولكنه في العدد 34 الصادر في 25 تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1926، يكتب مقدمة لمقال «كيف كانا خصمين، وأصبحا حليفين» والمقصود إميل إده وأيوب ثابت، يقول فيها: أرسل إلينا حضرة الصحافي الأديب المعروف باسم «الشنفرى» هذه المذكرات التي كتبها بمناسبة معركة الرئاسة الأخيرة، فنشرناها نزولاً عند رغبته.

ولم تخلُ «الأحرار المصورة» من أخبار صاحبها الخاصة. لكن تويني كان يختصرها بحيث لم تتجاوز الرقم ثلاثة. ثم إنه صاغ اثنين منها بأسلوب ساخر لم يوفر نفسه فيه.

قال تويني في العدد الأول:

«رزقني الله غلامًا منذ أيام، وكنت خارجًا من المستشفى يوم الولادة، فلقيني صديق حميم، فقال بماذا أهنئك؟ قلت: بمولود ذكر. قال لا تنسَ شوقي ـ فحسبت أنه يشير إلى أني سأخبر أحمد

شوقي لينظم الأبيات التي وعدني بها يوم كان في لبنان، إذا رزقني الله مولودًا ذكرًا ـ فقلت إني سأكتب إليه حالاً. قال: إني أريد أن أقول لك لا تنسَ شوقي أي لا تنسَ ما قاله يوم رزقه الله غلامه علي إذ أنشد:

صار شوقي أبا علي في الزمان الترللي

فضحكت وقلت للصديق: «وأنا أنشدت، جبران صار أبا غسان. فلم أكد أتم الصدر حتى ضحك صاحبي وقال: أتسمح أن أكمل العجز؟ فقلت دونك الأمر. فأنشد: في زمن من أظ... الأزمان».

وتويني الذي كشف عن أنه كان صاحب التوقيع المستعار «جابر» كان أيضًا يفرح إذا كان المولود ذكرًا.

وبالطبع كان أمير الشعراء يشاركه الفرح، لعل بعض عذره أن مولوده كان بكر أنجاله.

وعاد تويني في العدد الثاني إلى الموضوع نفسه، فكتب تحت عنوان «سلطان وأبو غسان»:

كنت في مكتبي، فقرع جرس الهاتف، وإذا بصوت أجش يملي عليَّ هذه الأبيات. وعبثًا حاولت معرفة مخاطبي. وكان يكتفي بالقول: اكتب، فترجح إلي أنه أطرش، فزورت إمضاءه في آخر الأبيات، ولعل لكلمة سلطان تأثيرًا علي استنتجته أن صاحبنا من الطرشان.

سميته غسان رمزًا إلى أجداده أسياد حوران
نعم الفتى في نسبته معًا لجدّه الأعلى وجبران
دغدغه بالجدّين ينشأ على كليهما والخير في الثاني

يا مؤثر الماضي وأجداده   عن حاضر بالنجد ملآن
لا تكبر التاريخ إن الذي   مضى كبعض الحاضر الداني
هنئت بالمولود لكنه   حاضر لو سمي بسلطان

وسواء كان هو الناظم أو غيره، فقد أعلن في القطعة الطريفة أمرين هامين بصورة مداورة، أكّد على عروبته التي عاد وأعلنها بصورة مباشرة خلال معاركه مع السلطة الفرنسية، وأبدى إعجابه بسلطان باشا الأطرش الذي كان يقود ثورة ضد الفرنسيين.

لقد كانت السخرية سمة بارزة لجبران التويني وجريدته، لكنها لم تكن السخرية موضوعًا قائمًا بذاته، بل هي أسلوب في الكتابة، لذلك لم يكتفِ تويني بأن يفرد لها بابًا خاصًا، كما يفعل عادة أصحاب الصحف ومحرروها، ولكنه مارسها في أية صفحة، وفي غير موضوع عندما تكون هذه السخرية مشروعة وملائمة.

وكانت سخرية تويني معتدلة ومهذبة، إذ كان حريصًا على أن يوخز دون أن يجرح، وكان يتوسل النقد الساخر من أجل تحقيق الإصلاح السياسي والاجتماعي.

■ ففي مقالته، «أتريد لنفسك لقب بيك»، عاد إلى مداعبة شريكه «خليل كسيب»، ولكن من أجل نقد ظاهرة اجتماعية ـ سياسية ما زالت قائمة إلى يومنا هذا، يقول ردًا على السؤال مخاطبًا قارئه:

«بالطبع لا أحسبك تجيب سلبًا إذا عرضوا عليك في الديوان العالي لقب بك». وسواك قد باع اللحاف والفراش للحصول على هذا اللقب ولكنني أفيدك اليوم أن هذا اللقب عزيز المنال، بعدما زال «الباب العالي»، ولو أن والدك تفضل في أثناء الحرب العامة، واشترى لقب البكوية بخمس ليرات عثمانية ـ وهي أرخص من الفجل كما ـ ترى لكنت اليوم (بيكًا) بفضل أبيك. بيد أن هذا الوالد

الغافل تناسى واجبه لديك، فجئت واللقب بعيد عنك بُعد إنكلترا عن المريخ».

■ ولم يوفر «بائع الدبابيس» زملاءه الصحافيين في سياق مقالاته... عندما استدرك قائلاً:

ولكن هناك اقتراحًا جديدًا مفيدًا أقترحه عليك، والأجر على الله، فإذا شئت أن تنال لقب «بك» عليك بمد المآدب والولائم. وهل عرفت لمن؟ لهؤلاء المقلقين رجال الصحافة، فما إن تدعوهم المرة إلى مأدبة أو وليمة، حتى تنهال عليك من شق أقلامهم، الألقاب الضخمة على ما تروم وتشتهي.

ثم قال:

يغضب خليل الخوري كسيب لهذا الاستنتاج، وهو الذي يدعو إخوانه الصحافيين مرة في كل أسبوع، ولم ينل منهم إلى الآن لقب «بك»

واستدرك مرّة ثانية ولكن ليغمز من قناة النواب، حيث قال في ختام مقالته:

«وخوفًا من غضب الخليل، عندي اقتراح ثانٍ عليك، إذا تشبثت بالحصول على «البكوية»، يجب أن تدفع هذه المرة مالاً كثيرًا لتكون نائبًا، فما من أحد دخل ندوة النيابة المباركة، إلّا أطلقوا عليه لقب «بك»، كما يطلقون على الشرطي لقب أفندي».

وبعد، فإن الصحافة السياسية الساخرة في العالم العربي تتجه إلى

الانقراض إن لم تنقرض فعلاً. . . فهذه «الأحرار المصورة» وقد ماتت في مهدها كل الصحف الآنفة الذكر في «مصر ولبنان» منها من قضى، ومنها من ينتظر، فـ«روز اليوسف» التي كانت تملأ العالم العربي، وتشغل ناسه أين هي اليوم؟ و«الاثنين والدنيا» انتقلت أيضًا إلى رحمته تعالى، أما صحيفتا «آخر ساعة» و«المصور» فلا تزالان تصدران في مصر. أما في لبنان، فقد توقفت «الدبور» عن الصدور إثر الحرب اللبنانية ثم عادت للصدور مؤخرًا، وارتدت «الصياد» كما ذكرنا حلّة جديدة لا علاقة لها بالسخرية، ولا بمن يسخرون.

الصحافة الساخرة في لبنان اليوم

انحسرت الصحافة الساخرة اليوم وتراجعت كمّاً ونوعاً. فمجلة «الصياد» التي أتحف بها سعيد فريحة قراءه، بمقالاته الساخرة خلال عقود، كما ذكرنا، ثابرت، ومنذ أعوام على إعادة نشر مقالاته في صفحتها الأخيرة وحيث يقبل القراء على «الصياد» بدءاً من هذه الصفحة، وخاصة المخضرمون منهم، إذ إن مقالات ذلك الصحافي العملاق تصلح لكل مكان ولكل زمان.

■ أما جريدة «النهار»، التي احتل بها «الياس الديري» مقالاً يومياً فيه الكثير من خفة الظل، فقد بدأ ومنذ حين يتحول نحو الكثير من الجدّية. كذلك افتقد الكثيرون المقال الساخر لفيصل سلمان في صحيفة «السفير».

■ وحدها مجلة «الدبور» التي أيقظها الصديق العزيز جو مكرزل[1]، من سبات دام عقوداً، عادت وبحلة جديدة لتملأ فراغاً في الصحافة العربية، وهو تجمع بين الافتتاحية الجدية لجوزف مكرزل والمقالات الساخرة، والأخبار التي تحمل عناوين على السجع مثل «حالتنا وصلت لهون. . . ودولتنا بغير كون»، وآخر يتحدث عن العلاقة مع إيران

بعنوان «لازم نكثر الأولاد حتى يعطونا سجاد».

وهذا نموذج من أحد أعداد «الدبور» الأخيرة لمقوصات «ثورة على النخيل».

كما نشرت مقالاً ساخراً عن «الكتائب اللبنانية»[2]، بإمضاء «مخرز» اختص بدورها منذ التأسيس إلى اليوم.

فدرالية العنيد. . . . . بين التهديد والوعيد

من اسبانيا أتتنا الكتائب
هادفة إلى حل المصاعب
وفرخت في طريقها المتاعب
وعلى لبنان حلّت المصاعب

تأزمت بين الشيخ بيار وصائب
وكل على النظام عاتب
يرى الأمور في لبنان سائب

استقلال وثورات وحروب. . .
والأشواك ملأت الساحات والدروب
وشمس لبنان مالت إلى الغروب
وبراون نصح المسيحيين بالهروب

كما تعيد في أعدادها اليوم نشر بعض الأخبار والتعليقات الطريفة من «دبور» الخمسينيات. ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

أثاث المجلس الجديد

كان مجلس الإدارة الكبير في متصرفية جبل لبنان مؤلفاً على أساس طائفي، وجميع الطوائف اللبنانية الكبيرة ممثلة فيه.

وكان في منطقة الشوف يومها أسرة يهودية من آل المنجد فخطر لهؤلاء أن يطالبوا بمقعد في مجلس الإدارة، فقدموا إلى المتصرف عريضة بهذا المعنى، ذيلوها بإمضاءات تنتهي كلها باسم الأسرة، المنجد. فعلق المتصرف على العريضة: «أثاث المجلس جديد فلا حاجة لمنجدين».

صبر أيوب

وعرف رئيس الجمهورية اللبنانية: الشيخ بشارة الخوري بطول الأناة والصبر الجميل.

وقيل إن أحد رؤساء الحكومة في عهده (ولعله الرئيس سامي الصلح) سأل يوماً بحضوره موظفاً في السلك الخارجي اسمه ألفونس أيوب مداعباً: «شو بتقرب صبر أيوب؟».

فأسرع الشيخ بشارة إلى القول: «صبر أيوب قرابتي أنا».

قبلة للرئيس

وصلت إلى بيروت في عهد الرئيس كميل شمعون، قافلة من اللبنانيين العائدين من أرض الكنانة، وكانت على موعد لمقابلته في القصر الجمهوري. وفي أثناء المقابلة همس عجوز من أعضاء الوفد في أذن أحد الصحافيين بأنه يحمل إلى الرئيس شمعون «قبلة حارة» من إحدى المعجبات النسائية في القاهرة ويريد أن يرقعه بوسة بالنيابة عن الجمعية. ولما عرض الصحافي الأمر على الرئيس ضحك وتقدم من العجوز وقال له: «أنا كتير بشكرك يا عم لكن لو بعتولي هالبوسة مع ست حلوة ما كان أحسن».

ربّي شواربك

كلف سامي الصلح مرّة بتأليف الوزارة في عهد الرئيس كميل شمعون. فوضع لائحة بالأسماء وكان النائب بشير الأعور من الوزراء المختارين: فسأله سامي بك عند توزيع الحقائب: أي وزارة تفضل؟

أجاب: وزارة الدفاع.

قال الرئيس: وزارة الدفاع لا تلبق لك.

ـ وشو السبب؟.

ـ لأن وزير الدفاع يجب أن يكونو شواربو طوال، شوف بابا.... الـمير مجيد، شوف أحمد الأسعد، شوف رشيد بيضون..... الله يرضى عليك، ربي شواربك بالأول!... وبعدها طالب بالدفاع!

بعدو ميت

تقدم شاب من سامي الصلح مصافحاً فسأله سامي بك: باب كيف صحة الوالد؟

أجابه الشاب بشيء من الحسرة: عطاك عمرو يا بك. ضرب سامي بك كفاً بكف وقال: «رحمة الله عليه كان رجل طيب كثير».

وحدث بعد أسابيع أن التقى سامي بك الشاب نفسه في الطريق فبادره قائلاً: كيف حالك؟ كيف الوالد؟ فأجابه الشاب ببرودة: بعدو ميت دولة الرئيس!

ما في فرق!

ذهب صاحب مصلحة إلى الوزير حبيب أبو شهلا ليكلفه بمعاملة رسمية، فأخذ الوزير يعلله ويسوفه ويعده حتى ضاق الرجل ذرعاً وقرر في النهاية ترك المعاملة. ولكنه أراد وللمرة الأخيرة مقابلة الوزير ليفهمه «بصراحة» أنه ترك أمره لله تعالى.

ولما اجتمع به وأفهمه القرار الأخير ابتسم معاليه وقال له:

وحياة شرفك عالْمسك، يوم السبت تنتهي معاملتك من كل بد. سجلها في المفكرة.

فتناول الرجل المفكرة من جيبه ليسجل فيها كلام الوزير فإذا يوم السبت المذكور هو أول نيسان، فصاح: ولكن يوم السبت هو أول نيسان يا معالي الوزير!

فرد الوزير: وشو بيصير! نحن ما عندنا فرق، كل أيام السنة أول نيسان! . . .

وجوه النحس على الجمهورية

كان بين المغفور لهما الرئيس إميل إده والنائب روكز أبو ناضر صداقة قوية.

إلاّ أنها صداقة من النوع الذي لا يتخطّى جميع الحدود: إذ كان الرئيس إده يمانع في وصول صديقه إلى الوزارة، وكان رده، كلما راجعه أصدقاء في موضوع «توزير» روكز:

ـ عندما يصل روكز إلى الوزارة يكون معنى ذلك أن الجمهورية انتهت.

وفي منتصف العهد «الإدي» في سنة 1938، على وجه الضبط والتحديد، وفّق أصحاب المساعي الحميدة إلى تحقيق أمنيتهم، وأصبح روكز وزيراً للتربية الوطنية التي كان اسمها وزارة المعارف في ذلك الحين.

بعد أشهر قليلة، نشبت الحرب العالمية الثانية، في أول أيلول/ سبتمبر 1939، فعلق المفوض السامي الفرنسي الدستور وطارت الجمهورية.

وقال الرئيس إده مباسطاً وممازحاً: «ألم أقل، مراراً وتكراراً أن توزير روكز يعني نهاية الجمهورية؟ لقد تحققت نبوءتي». . .

يتبحبحوا

من نوادر الانتخابات أيام زمان، أنه بعد عزوف الشيخ خليل الخوري عن النيابة وسقوط النائب أحمد الفاضل في الضنية وكلاهما متشابهان بالسمنة قال المهندس الذي أجرى إصلاحاً في مقاعد النواب في المجلس: لقد كسبنا مساحة جديدة حتى يرتاح النواب الجدد بالقعدة ويتبحبحوا. . . .

الاتفاق بالنسوان

قال الشيخ خليل الخوري، للعميد ريمون إده: إن والدينا رحمهما الله، كانا على خلاف في كل شيء أما نحن فنختلف بالسياسة ونتفق فكرياً واجتماعياً.

ورد العميد بعصبية: «هذا غير صحيح والصحيح أنني أتفق معك يا شيخ خليل على شيء وحيد وهو حبنا للنسوان».

وقد نشرت «الدبور» في عددها الصادر 13 تشرين الأول/أكتوبر 2008، مقالاً لكاتب هذه السطور هذا نصّه:

الفساد!!! فالج ولا تعالج

من تسنى له قراءة الصحف في الأسبوع الأخير من شهر أيلول الماضي، لا بد ولفته خبران.

الأول، أن لبنان حلق ارتفاعاً في عدم النزاهة، والشفافية، وانتقل من درجة 99 في العام الماضي، إلى درجة 102 حالياً، بمعنى أن الفساد به قد استشرى إلى مستوى خطير ومعيب في آن. والخبر الثاني أن رئيس وزراء اسرائيل زعيم حزب «كاديما» إيهود أولمرت، قد غادر الحياة السياسية غير مأسوف عليه. لاتهامه بالفساد.

والفساد الذي اتهم به رئيس وزراء العدو، لا يتعدى قبوله الرشوة بمئتي ألف دولار!! يا بلاش.

فكم (أول مارت) عندنا في لبنان؟ وكما قال لي أحد الظرفاء، نحن جميعاً (All) مارت.

صحيح أن الرشوة التي يعاقب عليها القانون.... مع العلم أن ذلك لم يحصل بعد، هي قديمة في بلادنا وهي قاعدة في بلدان العالم الثالث الذي نحن جزء منه، إلاّ أنها كانت دائماً ضمن المقبول والمعقول..

وأذكر في بداية حياتي العسكرية، شكوى مواطن جمع مبلغاً في بلاد الاغتراب، وبنى به بناية صغيرة في أحد أحياء بيروت ليعتاش

من ريعها. وكان الوحيد في الحي الذي أفرغ بها ملجأ حسب القانون بينما تحولت ملاجئ كافة البنايات المجاورة إلى مستودعات تم تأجيرها قبل المساكن.

وقد فوجئ صاحبنا ذات يوم برهط يتقدمه أحد المفتشين ليأخذ قياسات الملجأ.. ويصرح بأنها مخالفة للقانون! ورغم أن الحق بجانب صاحب المبنى، ورغم أنه لا يحب الرشوة.. فقد شاء أن «يفض المشكل» فأخذ المفتش جانباً ونقده مبلغاً محترماً قائلاً.. هذا ثمن فنجان قهوة! فانقض الموظف «النزيه» قائلاً: أنا ما بشرب قهوة!! وقبل أن يندم على فعلته.... سمع المفتش يقول بحدّة: أنا بشرب ويسكي.

يروي المغفور له الرئيس سامي الصلح في مذكراته، أن المرحوم بطرس الخوري، وكان قطباً، مالياً، وصناعياً، عرض عليه مبلغ نصف مليون ليرة لتمرير بعض المراسيم فرفض سامي بك. فأكد له الشيخ بطرس بأنه ورفاقه يستطيعون صرف نصف هذا المبلغ واسقاط الحكومة..

فكان أن سقطت حكومة سامي بك في المجلس بعد أقل من شهر.

ولا يزال اللبنانيون يذكرون قصة المرحوم إميل بيطار وزير الصحة في بداية الستينات، الذي رفض رشوة مليون ليرة من «كارتيل» الدواء فطار من الوزارة وطارت المليون ليرة وبقي «الكارتيل».

ويجمع الخبراء الاقتصاديون حالياً، على أن تكلفة البنية التحتية التي أوصلتنا إلى 45 مليار دولار من الديون لم تكن لتبلغ 20٪ من هذا المبلغ لو صرفت بنزاهة. وأن فائدة الدين الذين تدفعه الدولة تزيد 100٪ على فائدة المودعين لدى المصارف، وأن الكهرباء التي تكلّف عليها لبنان 8 مليار دولار هي أسوأ من حالها، أثناء الأحداث. وكان يمكنها أن تضيء دولة بمساحة فرنسا.

التقيت صدفة في باريس بمصرفي كبير ملاحق منذ أول التسعينيات باختلاس 180 مليون دولار. وهو لا يزال يسرح ويمرح في كل

دول العالم، وقد قال بالحرف: هل تصدق أنهم يريدونني؟ لدي لائحة بمن قبض هذه المبالغ رشوة وخوّة. وهي رؤوس كبيرة. لذا فهو في غاية الاطمئنان.

السرقة في القانون اللبناني هي جناية وعقوبتها من سنة إلى 7 سنوات، ولم نشهد حتى اليوم أية محكمة جنايات وقف أمامها من سرق الملايين، بل من سرق رغيفاً أو دولاب سيارة. وقد قرأت منذ سنوات في جريدة النهار خبراً بعنوان «ماذا لو سرق بقرة؟»، وفحوى الخبر أن المدعي العام ع.ب ادعى على المواطن ج. ك وطالب بسجنه سبع سنوات لأنه سرق «كناراً» من قفصه!!! والكنار يخص جاره!

أخبرني بالأمس أحد كبار المحامين، وكان عضواً في لجنة تحديث القوانين، أنه اقترح، بأن يكون عقاب السرقة متناسباً مع ما سرق. فلم يقبل اقتراحه. لأن سارقي الملايين يخشون أن يأتي يوم يطبق به القانون عليهم.... فيحكم عليهم بثلاث قرون حبس.

ومن طرائف السرقة أن أحد المصريين سرق صحيفة بنزين من إحدى محطات الوقود لشركة «شل»، ولما أمسكته الشرطة قال: أنا ما سرقتهاش ولا حاجة، بصيت لقيت مكتوب عليها شل.. قمت شلتها!!

ويظهر أن أموال الدولة في لبنان جميعها من ماركة «شل». أما الرشوة، فقد اعتبرها اللبنانيون هدية أو إكرامية وأن الهدية أوصى بها الرسول الكريم. ناسين أنه عليه الصلاة والسلام قال: **الراشي والمرتشي في النار**.

لن أكتب اليوم عن ملفات الفساد التي تجمعت لدينا، أو وصلت الشكوى فيها إلى مسامعنا.... بل سأنتظر اكتمال عناصرها، لأهديها للسيدة غادة عيد لتضيفها إلى ملفاتها في برنامج الفساد. أو لنسمعها، وتسمعها من ضحاياها وشهودها.

أو أني سأردد ما قاله أحد الإخوة المصريين «الحشاشين» الذي

استأجر مركباً صغيراً ورفيقه في نهر النيل.. وعندما بدأ المركب يغرق، وارتاع رفيقه، أجابه «المسطول تحشيشاً».. «ما يغرق» «هو بتاعنا»؟.

وسواء كان المال المنهوب بأذرعة أخطبوط الفساد «بتاعنا» أو بتاع الحكومة... فلا حيلة لنا إلاّ أن نقول أن الفساد في لبنان هو فالج. وفالج ولا تعالج.

وأخيراً وليس آخراً، سمعت منذ أيام في برنامج عن شركة إعمار وسط بيروت «سوليدير»، الوزير والمحافظ السابق يعقوب الصراف، يقول بأن حدود صلاحيات، وحقوق سوليدير حسب القانون، هي شارع «جورج حداد» وقد رأت «استحلت» الشركة حوالي مئتي عقار في هذا الشارع، فقامت برسم خريطة نقلت بها الشارع حوالى مائة متر شرقاً، وسمت شارعاً لا علاقة له باسم «جورج حداد»!

ورغم ثقتي بمصداقية الوزير، وحيث أيده في ذلك الدكتور المحامي محمد المغربي، فإني أتمنى أن يكون هذا الخبر غير «دقيق»، لأنه ذكرني بكل بساطة برجل من النبطية، اسمه علي د..، كان يخترع ألعاباً أيام العيد. فوضع في الساحة جرة وطربوش على فوهتها.

وكانت الربع ليرة ذات قيمة في حينه، يضعها الولد على سطح الطربوش، ويضرب الأخير بعضا ليقع أرضاً مع الربع ليرة. إلاّ إذا سقط الربع بالجرة فربح أحدهم صدفة.. إلا أن علي قال للرابح... خسرت!!

فتساءل الولد مع الحاضرين.. كيف؟... فقال الرجل واثقاً: كان يجب أن تقف على «الزيح»! فنظر الجميع، وكنت منهم، فلم نجد زيحاً. فإذا بعلي صاحب اللعبة يأخذ قطعة طبشور ويرسم زيحاً!

وهكذا في لبنان، دائماً يرسم الزيح بعد الفعل وليس قبله. ولا نزال نذكر حكاية المجتمع السكني الشهير خارج بيروت الذي خصص بقانون على قياس بناياته، ثم ألغي فوراً بعد إتمام البناء..

وندعو دائماً إلى معالجة الفساد. . ألم نعلم بعد أن الفساد في لبنان هو «فالج»، والفالج لا يعالج؟؟

جدول بأسماء الصحف الفكاهية في لبنان

اسم الجريدة	إصدارها	صاحبها	مكانها
الكرباج والعفريت	1896	عبد الله قدسي	الاسكندرية
الفكاهة	1898	ديمتري نقولا	القاهرة
أنيس الجليس	1898	ألكسندر خوري	الاسكندرية
تسلية الخواطر	1898	سبع ندرة الشميل	الاسكندرية
أبو نواس	1898	يوسف الياس كنعان	الاسكندرية
الخرج	1909	متري الخرج	بيروت
عيواظ	1909	متري الخرج	بيروت
الراوي	1909	طانيوس عبده	بيروت
الأنيس	1910	سليم صادر	بيروت
حمارة بلدنا	1910	توفيق جانا	بيروت
كراكوز	1911	صلاح مراد	طرابلس
ياجوج وماجوج	1911	صلاح مراد	بيروت
أبو نواس اللبناني	1913	محمد صبحي عقدة	بيروت
البغلة	1913	توفيق جانا	بيروت
حمارة الجبل	1913	توفيق جانا	بيروت
الحمارة	1910	نجيب وتوفيق جانا	بيروت
جراب الكردي	1914	توفيق جانا	حمص ثم بيروت
جحا	1914	فريد الكفوري	زحلة
الصحافي التائه	1922	اسكندر رياشي	زحلة

اسم الجريدة	إصدارها	صاحبها	مكانها
الدبور	1924	يوسف مكرزل	بيروت
فكاهات الجنس اللطيف	1924	أنيس الخوري	بيروت
الحوت	1926	فريد سلام	بيروت
أبو دلامة	1927	محمد شهاب	صيدا
الفكاهة	1926	إميل وشكري زيدان	القاهرة
أبو الرياح والمسامير	1927	عزيز عوض	بيروت
الصياد	1943	سعيد فريحة	بيروت
الأربعون حرامي	1960	اسكندر رياشي	بيروت
المنشار	1993	–	بيروت

إن هذه اللائحة لم تحتوِ عدداً من الصحف التي جمعت بين الجد والهزل وأهمها على الإطلاق جريدة الأحرار المصورة التي أصدرها جبران تويني عام 1926، وبقيت حتى عشية الحرب العالمية الثانية حين أصدر جبران تويني جريدة النهار[32].

الصحافة والمقال الساخر في العراق

في العام 1925 أصدر رائد الصحافة العراقية الساخرة **ميخائيل قيس أول مجلة هزلية أسبوعية في بغداد**، تحت اسم «كناس الشوارع». . . أما لماذا اختير هذا الاسم!

يقول ميخائيل قيس معرِّفًا بمجلته الجديدة:

إن خطتي واضحة وضوح الشمس في منتصف الليل، إنني سأحمل مكنستي، وأجول بها في الشوارع والأزقة المتعرجة، وحيثما وجدت أحدًا يأتي ما يمجّه الذوق، أو يأنفه الشم، أو تأباه الآداب

العامة، أو يتحدى القوانين والحدود، فإنني سأضربه بمكنستي على رأسه، فإما أن تنكسر مكنستي فأكون الخاسر، وإما أن ينكسر رأسه فيكون هو الخاسر[33].

لم يطل عمر مجلة «ميخائيل قيس» الذي غفل عن باله أن العراق لم يشتهر يومًا بالحس الظُّرفي، بل على العكس بالرغم من طيبة شعبه وكرامته وشهامته، فقد عُرف بالعنف وقلة الصبر، وذات يوم لم يتحمل أحدهم دعابات «ميخائيل قيس ـ كناس الشوارع» فأرسل من ينتظره في أحد الشوارع ليطلق عليه الرصاص بهدف قتله، لكن الرصاصة التي أطلقت على ميخائيل قيس وأخطأته أصابت المجلة في مقتل فأخرجها صاحبها من حقل الصحافة الدامي. وهكذا انتهت مجلة كناس الشوارع.

المحاولة الثانية

ولدت جريدة «قرندل» على يد الصحافي «**شوقي الداوودي**» ومن أشهر ما كتبه مقال بعنوان «العراق شلون يساويك شرقي» على لسان ضابط بنغالي في الجيش البريطاني جاء يقول للعراقيين إنه هنا لتمدينهم، وهم الذين يحتقرون أصلاً الهنود المسلمين، الذين انطبعت في أذهان العراقيين صورتهم كشحاذين في الأماكن المقدسة، وهذا المقال يذكرنا بما نشرته مجلة «الدبور» اللبنانية أيام الانتداب، وبعد ذلك بسنوات تعليقًا على رسم كاريكاتور يصوِّر زنجيًا عاريًا بثياب الأدغال حاملاً رمحه الذي يوجهه إلى مجموعة من اللبنانيين قائلاً بفرنسية مكسَّرة ـ Moi civilisez-vous ـ أي بما معناه ـ أنا هنا لأمدنكم. . أما الصحيفة العراقية الساخرة التي تسنى لها البقاء والشهرة، فهي «حيزبور» التي أصدرها «نوري ثابت» عام 1931 إلّا أنه رغم تصديه لآفات المجتمع كان حريصًا على تجنب الانتقاد المباشر لرجال السلطة.

بعد الحرب العالمية الثانية، أظهر العراق بعض التسامح مع

الصحافيين، فظهرت مجلة «الوادي» الأسبوعية التي أصدرها خالد الدرّة، واشتهرت بسلسلة من المحاكمات الدعابية التي كانت تنشر تحت عنوان «قفص الاتهام» الذي وصفت به سياسيّي القطر العراقي، وكانت تسخر من نقائصهم وتفنّد أخطاءهم.

ونبقى مع الأدب الساخر في العراق، ونقرأ خالد القشطيني:

«لم يُعرف ساسة العراق بروح النكتة، ولكن رويت عن ياسين الهاشمي رئيس الحكومة في الثلاثينيات، نادرة تعتبر من أطرف ما ورد في الأدب السياسي من استعمال للتورية والملاعبة اللفظية العربية الأصيلة، كثيرًا ما لفظ اسم العراق على الطريقة العامية بضم العين فيقول.. العُراق بدلاً من العِراق بالكسر. وبعد خطاب طويل تردد فيه هذا الاستعمال كثيرًا وقف أحد نواب المعارضة في المجلس فقال له: «إنك تتكلم عن العراق ومصالحه دون أن تعرف حتى كيف تلفظ اسمه فتقول العُراق بدلاً من العِراق» فوقف ياسين الهاشمي ورد عليه: «نعم أقول العُراق لأني أحب أن أرفع عين العراق».

وفي هذا السياق يقول الدكتور جليل العطية إن الإنسان عرف أدب التهكم والسخرية منذ فجر التاريخ، أي منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، عندما انتقل وادي الرافدين ووادي النيل إلى حياة التحضر والمدنية، بمختلف عناصر الحضارة الأساسية المميزة، ومنها الكتابة والتدوين. وهذا يتضح من خلال الأساطير والنصوص الأدبية التي وصلت إلينا. غير أن تأصيل هذا النمط الأدبي تأخر إلى القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، حيث ظهر على يد «عمرو بن بحر الكناني» المشهور بالجاحظ. ومن يقرأ رسالتي «التربيع والتدوير»، والبخلاء يكتشف هذه الحقيقة...

وجاء أبو حيان التوحيدي ليتمِّم ما بدأه الجاحظ، ومرت الأمة العربية

في ظروف صعبة وكوارث أضاعت علينا جزءًا مهمًا من هذا التراث.

وبمجيء القرن العشرين، ودوران المطابع وظهور الصحف، عاد أدب السخرية إلى الانتشار من خلال صحف أتاح لها الظهور إعلان الدستور العثماني عام 1908.

وأورد الدكتور فائق بطي في «الموسوعة الصحافية العراقية» ـ بغداد ـ 1976م، أسماء مجموعة من هذه الصحف، فمنها: «الظرائف» لصالح السيد عبد، صدرت في الثامن والعشرين من شباط/ فبراير 1924 وكانت من الصحف الهزلية الناجحة.

و«مرقعة الهندي» لأحمد حمدي صدرت سنة 1909، واستمرت لمدة سنتين وكانت فكاهية انتقادية أسبوعية.

و«الغرائب» لداود صليوا، صدر منها اثنا عشر عددًا، وكانت مختصة بالأدب الفكاهي. و«كناس الشوارع» التي صدرت أول مرة في الأول من نيسان/ ابريل 1925، وهي أهم صحف تلك الفترة. ذكر رفائيل بطي في كتابه «الصحافة في العراق» المحاورة التي جرت بينه وبين ميخائيل قيس منشئ هذه الجريدة ـ حول تسميته «كناس الشوارع» فقال:

> أردت أن أختار شخصية آدمية كثيرة التجوال في شرايين المدينة وقلبها، دوارة تقترب من الأبواب، وتدخل البيوت، بيوت الفقراء، وقصور الأغنياء، فلم أجد خيرًا من «كناس الشوارع» ثم وددت وإني أعتزم الانتقاد والحملة على العادات والنواقص في الناس والمجتمع، أن أختار اسمًا، يوافقه حمل سلاح للتهويش والضرب. فسميت «مكنسة» «مشهره» يحملها على كتفه، ويكنس بها وينظف. وقد يستخدمها للضرب والدفاع عن النفس عند الحاجة.

وأثناء زيارة الرحالة الأديب اللبناني أمين الريحاني لبغداد نشر قيس نصًا على منوال قصائد الريحاني في تغزله في بغداد، هذا نموذج منه:

زينة البلدان، عجائب الزمان ... عدوة الشيوخ، عشيقة الصبيان
عجائب، خرائب، غرائب مصائب ... أنواع، وأشكال أرناك وألوان
مزابل وأوساخ وأقذار وأوحال ... مبعثرة، مكدسة، مكومة في كل مكان
منازل، وبيوت في الهواء واقفات ... جدران مهدمة وحيطان مهشمات
بعضها داخلات، وبعضها طالعات ... متداعيات، متمايلات، برحمة الله واقفات

استقطبت صحيفة «كناس الشوارع» اهتمام العراقيين الذين تابعوها لأنها كانت تلقي الضوء على الظواهر السلبية في مجتمعهم، وتناصر العمال الفقراء.

ثم برزت جريدة «حبزبوز» لمؤسسها **نوري ثابت**، ونالت «الكرخ»، والصحف الأخرى التي أصدرها **الشاعر الشعبي الملا محمود الكرخي** عناية الشعب العراقي الذي وجد في هذه الصحف ما افتقده في المنابر الإعلامية الأخرى.

وأصدر **خالد الدرة** مجلة باسم «الوادي» نالت اهتمام الجمهور أيضًا. . . وعندما انهار النظام الملكي في عام 1958 لم يبقَ من الصحافة الساخرة غير تلك الموالية للسلطة، فأعرض عنها الناس.

ويتابع الدكتور جليل العطية مقاله عن روّاد الفن الساخر في العراق فيقول:

> «تميّز النصف الثاني من القرن العشرين بظهور كتَّاب سخرية جدد متأدلجين ملتزمين، كان من أبرزهم: عبد الجبار وهبي وشمران الياسري وشاكر مصطفى سليم. وبدراسة تراثهم تبيَّن أن «أبا كاطع شمران الياسري» هو الأكثر شهرة وحضورًا وتأثيرًا في مدرسة السخرية العراقية المعاصرة، وعن تسمية «كاطع ـ أي قاطع»، ذكر الشيخ جلال الحنفي في مقدمة موسوعته «معجم اللغة العامية البغدادية» أن البغاددة يقلبون «القاف» إلى «كاف» وهي المسماة بالجيم المصرية».

ويؤكد الدكتور العطية أن **شمران الياسري** كان في مقدمة المتألقين من مبدعي العراق في السخرية والتهكم. وكان عموده الصحافي في الخمسينيات من القرن الماضي يُقرأ في المقاهي، والدواوين.

ويتابع الدكتور «عطية» بأن الياسري «أبو كاطع» روى له أنه زار في بداية وصوله إلى بغداد أحد الملاهي، فأعجب بأحد فنّانيها، وكان يُعرف «بجعفر آغا» وكان يعمل في صنع الأمشاط الخشبية في الكاظمية، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى، ارتقى المسارح حيث كان يقدم «فصولاً» سياسية ضاحكة. وقد نال شعبية واسعة في العشرينيات والثلاثينيات. إلخ.

أيضًا في مجال الصحافة الفكاهية الساخرة في العراق، كتب نجدة فتحي صفوت عن صحيفة «حبزبوز» وصاحبها نوري ثابت ما يلي:

«حبزبوز» رائد الصحافة الفكاهية في العراق

> في مثل هذا اليوم قبل 56 سنة أي في 12 تشرين الأول/ أكتوبر 1938 توفي في بغداد الصحافي العراقي الساخر نوري ثابت الذي اشتهر باسم جريدته الفكاهية «حبزبوز».
>
> كان حظ الصحافة العراقية من الهزل والكاريكاتور قليلاً لأسباب عديدة، منها أن العراقي عادة جدي المزاج، بعيد عن روح الفكاهة في هذا الزمان، بخلاف المصري مثلاً... إذ هو يحب النكتة، ويعبّر بها عن كثير من خلجات نفسه، ويعلّق على أحداث يومه، ومشاكله الشخصية وآرائه السياسية. كما أن الكتابة الفنية الهزلية والكاريكاتورية بمعناها المعروف في الصحف، كانت شيئًا جديدًا في صحافة بلاد الرافدين، وكان نوري ثابت من الصحافيين القلائل الذين نبغوا في العراق بأسلوبهم الهزلي، وتهكمهم الذي استهوى قلوب القراء... ويمكن أن يُعدّ رائد الصحافة الهزلية في العراق.
>
> ولد نوري ثابت في مدينة السليمانية سنة 1897. كانت تصدر في بغداد في أيلول/ سبتمبر 1925 جريدة فكاهية شعبية اسمها «الكرخ»

وكان يصدرها الشاعر الشعبي المعروف في العراق على نطاق واسع جدًا هو الملا عبود الكرخي، فأخذ «نوري» يكتب فيها أحيانًا بما جُبل عليه من روح الفكاهة، وكانت كتاباته مقطوعات فكاهية تحمل انتقادات اجتماعية لاذعة، يوقعها باسم «جدوع بن دوخة» وقد لفت نوري ثابت أنظار القراء بأسلوبه الخفيف، ولغاته الدارجة، وموضوعاته التي تصف المجتمع العراقي في شتى بيئاته وطبقاته.

وكان من أجمل ما كتبه نوري ثابت من فصول نقدية لاذعة في جريدة «الكرخ» أيضًا ـ تلك التي كانت تظهر في حقل خاص عنوانه «مذكرات خجه خان»، وقد بلغ فيها شأنًا عاليًا من البراعة الفنية في تصوير المرأة العراقية، إذ تناول النساء البغداديات وعادتهن في أعراسهن، وأعيادهن، وحياتهن، ومآتمهن، وجلساتهن، ووصفهن وصفًا عميقًا بأسلوب هزلي مزج فيه العامية بالفصحى، ولم يستطع غيره من الكتّاب أن يصوِّر المجتمع العراقي، والبغدادي بصورة خاصة بملامحه ومميزاته وشخصياته ومجالسه وأزقته ودواوينه مثلما فعل نوري ثابت.

أسس جريدة أسبوعية باسم «حبزبوز» التي صدر عددها الأول في أيلول/ سبتمبر 1931. وكتب في افتتاحية هذا العدد مقالة طويلة حافلة بالنكات، والتلميحات السياسية وبالإشارات إلى زعماء البلاد وأحزابها، وقد جاء فيها قوله:

«إن هذه الصحيفة فكاهية، أدبية، فنية بحتة (على طول الخط) لا علاقة لها (توبة أستغفر الله العظيم) بالسياسة والأحزاب إطلاقًا».

نالت «حبزبوز» رواجًا عظيمًا في العراق، وكان لها تأثيرها في شتى الأوساط والملاهي والفنادق. وكانت جريدة مقروءة من طبقات الشعب من أعلاها مكانة وأكثرها ثقافة إلى أوساط الناس وبسطائهم.

كان نوري ثابت كاتبًا خفيف الظل ذا أسلوب محبب إلى النفوس، تمازجه تعابير دارجة عند الدهماء. . . مطعّم بالأمثال الشائعة،

حافل بالحكايات، والنوادر التي يتناقلها الجمهور، وكان يختزن في ذاكرته محصولاً وافرًا منها، إضافة إلى تأثره بالكتّاب الأتراك الهزليين، وعنايته بالمأثورات، والحكايات الشعبية. أما في حياته الخاصة، فكان شخصًا رقيق الحاشية، طريف المجلس، يحب الرياضة ويجيد العزف على العود، ويلحن الأناشيد المدرسية.

لكن نوري ثابت كان مصابًا بالسل، وبينما كان يُضحك الناس ويبعث في نفوسهم الفرح، كان يعاني من مرضه، ويهدهد آلامه.. إلى أن وافته المنية في العام 1938 عن عمر 56 سنة. وبغيابه غابت أيضًا جريدة «حبزبوز» إلى الأبد. (انتهى مقال خليل عطية).

إذًا كانت «حبزبوز» رائدة الصحافة العراقية الساخرة، وقد صدرت يوم 29 أيلول/ سبتمبر 1939. وعنها وعن الصحافة الفكاهية في العراق في القرن العشرين، كتب الدكتور جليل عطية ما خلاصته:

«وقد نشأت الصحافة العراقية في حزيران/ يونيو 1869م في عهد الوالي مدحت باشا الذي عرف بمنجزاته الإصلاحية، وكان بينها صدور جريدة «الزوراء». أما صحافة الهزل والسخرية، فتأخرت إلى أوائل القرن العشرين، وبالتحديد إلى ما بعد الانقلاب الدستوري».

بالعودة إلى الموسوعة الصحافية التي أصدرها فائق بطي في بغداد 1976، يمكن التنويه بأهم صحف الهزل والسخرية التي صدرت في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الصحافة العراقية.

■ مرقعة الهندي: أول جريدة هزلية عراقية صدر عددها الأول في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1909 ـ صاحبها أحمد حمدي ومديرها محمد حمدي، وهي فكاهية انتقادية أسبوعية مصورة، وصفتها الصحف بأنها «كشكول آداب وفكاهات». أُبدل اسمها لاحقًا إلى «البصرة الفيحاء»، وعُطِّلت في تشرين الأول/ أكتوبر 1911 م.

■ التاج: صدرت في 22 حزيران/ يونيو 1911 لصاحبها محمد نجيب المشراقي، سياسية، فكاهية عُطِّلت في أيار/ مايو 1912م.

■ الغرائب: صدرت في شباط/ فبراير 1913م، بإشراف داود صليوا، وتُعتبر الأولى من نوعها لاختصاصها بالأدب الفكاهي. كانت نصف شهرية، تعرضت لسيرة ناظم باشا والي العراق، بأسلوب فكاهي انتقادي في مقال عنوانه «المحاق في ترجمة (ناظم باشا) والي العراق» فعطلتها السلطة بعد أن صدر منها (12) عددًا.

■ بالك: أصدرها أبو العيناء شكري أفندي في 13 آذار/ مارس 1911م.

■ خان الذهب: أنشأها محمد سعيد أفندي لطفي، في بغداد 23 مارس 1911م.

■ جنه باز: أي الثرثار أو المهذار باللغتين العربية والتركية، أصدرها في الموصل عبد المجيد أفندي خيالي في 27 حزيران/ يونيو 1911م.

■ دو نبلا: أصدرها في بغداد لطيف أفندي فكرت في 5 آب/ أغسطس 1911م، لتحل محل جريدته الأخرى «كرمه ونرمه» أي «حر وناعم». والدو نبلا اسم لعبة.

■ المضحكات: أنشأها في بغداد باللغة العربية محمد سعيد أفندي لطفي 23 كانون الأول/ ديسمبر 1912م.

■ القسطاس: أنشأها السيدان عبد الجبار أفندي الأعظمي، ومحمد هادي أفندي في بغداد، بالعربية والتركية في 5 شباط/ فبراير 1912 وكانت أسبوعية.

وعندما انتهت الحقبة العثمانية، باحتلال الإنكليز للعراق بدءًا من سنة 1914م. لم تسمح الإدارة البريطانية لصحافة الهزل بالظهور، لأن هذه الصحافة تميّزت بالنقد السياسي والاجتماعي للحاكمين والمحكومين معًا.

في هذه الفترة صدرت عدة صحف منها:

■ بابل: فكاهية انتقادية، أصدرها حسن سامي رئيس الكتاب. صدرت في تموز/ يوليو 1923 ولم تعمّر طويلاً.

■ البدائع: أصدرها داود العجيل في بغداد أيلول/ سبتمبر 1923م.

■ جحا الرومي: أصدرها رشيد الصوفي في 19 تشرين الأول/ أكتوبر 1923م.

■ الأدب: هزلية أصدرها محمد باقر الحلب في 7 أيلول/ سبتمبر 1924م، واستمرت حتى نهاية 1925م.

■ كنّاس الشوارع: أصدرها «ميخائيل قيسي» في نيسان/ أبريل 1925م، وتُعدّ من أهم صحف الفكاهة والهزل.

صدرت جريدة «حبزبوز» (أم حبزوز)؟ يوم 29 أيلول/ سبتمبر 1931م واستمرت إلى عام 1938م، وظهر منها (302) عدد ثم احتجبت.

وانتشرت فور صدورها بشكل لم يعرفه تاريخ الصحافة العراقية. ضمت هذه الأسبوعية الفكاهية ـ على قلّة صفحاتها التي لا تتجاوز الثماني ـ أبوابًا مختلفة منها «قنابل حبزوز» و«حبزبزيات» و«مذكرات خجه خان» التي يصور فيها كاتبها مجالس النساء العاميات، ونشرت فصولاً من كتاب مخطوط للشاعر معروف الرصافي عنوانه: «دفع المراق عن كلام أهل العراق»، تناول فيه الأمثلة العامة البغدادية، وكانت أول جريدة أدخلت الكاريكاتور إلى الصحافة العراقية. شنت «حبزوز» حملات قاسية على البرلمان العراقي، وقانون المطبوعات لسنة 1931م، ويمكن القول إنها دخلت معظم البيوت والمقاهي، كما تحولت إلى مدرسة في الصحافة الساخرة. ولعلَّ جريدة «أبو حمد» التي أصدرها عبد القادر المميز في 19 تشرين الأول/ أكتوبر 1933م خير نموذج لهذه المدرسة «حبزوز» هي اسم مستعار «لنوري ثابت».

وفيما يلي نماذج من مقالات ومداعبات «حبزوز». فتحت عنوان «هويات المعرفة»، كتب يقول:

لقد كثر عدد الشعراء والمستشعرين، واختلط الحابل بالنابل، والصالح بالطالح، وانشرح بينهم من لا يميّز بين وزن الشعر ووزنة الشعير، وبين القافية والقفّة. وكذلك كثر عدد الكتّاب، فامتزج الأدباء بكتّاب العرائض، وانحشر «ابن المقفع» بمن يقول عن الألف «باكورة السقام»، الأمر الذي اضطر الشاعر الكبير الأستاذ (الرصافي) أن يقول عن بعضهم:

كم من يد خلقت كيما تقول سوى «جريدة النخل» أمست تمسك القلما

لقد رأينا أن نقترح على من يعود إليهم المحافظة على مركز العراق الأدبي، أن يقرروا صنع بطاقات هوية يحملها الأدباء والشعراء بقلادة فوق صدورهم، أو تكتب على هيئة طوابع، فتلصق على جباههم بعد أن تبطل بالتاريخ. وختم على ملاحظية المطبوعات.
كم باسمك تورمت جيوب الشعراء! وتبجحت جيوب الأدباء! وصدحت بخلاف ما تضمر ألسنة الخطباء! وصفقت لما تدري أيدي البلداء، وتطاولت بدافع الفلوس أقلام الجبناء!
فيا لك من ضعيفة ينهش أبناؤها لحمها، وهي جثة هامدة لا تبدي حراكًا!
وردًا عن سؤال عما يتمناه في الربيع كتب..
ما أتمناه في الربيع.
ماذا تتصورون أتمنى أن أكون خلال أيام الربيع الزاهية؟
أتمنى أن أكون حمارًا!
أجل، أقسم لكم بالله (بكسر الهاء) لو خيِّرت في مصيري خلال أيام الربيع، لاخترت أن أكون حمارًا طليقًا غير مقيد، (لا برشمة ولا بلجام) والأهم من هذه القيود أن أكون غير مقيد بقيد العقل والتفكير.. فإذا صودق على معاهدة من المعاهدات (مهما كانت مهمة) تراني أركض، وأعنفص (أرفس)، رافعًا الذيل والرأس شامخ

الأنف (مشنف)، مكشر الأسنان ضاحكًا في حق المظلوم والمهضوم!
ساخرًا من الجهة القوية القاهرة! وإذا انحلَّ مجلس من المجالس، أهجم على (غزالتي) الجميلة، وأنا أنهق بصوتي الذي هو أنكر الأصوات هازئًا ساخرًا من النواب الذين يتركون بناية المجلس «محنظلين» «منكسي الرؤوس» ضاحكًا على الذقون، عندما يبيعون سياراتهم الضخمة «بقيمة نص».

أما عن الصحافة الساخرة في العراق أيام حكم البعث، وتحديدًا حكم الرئيس العراقي السابق صدام حسين فرغم أنها كانت خجولة جدًا، لم تتعرض يومًا لأي من النافذين، فقد أطلق عليها النظام السابق رصاصة الرحمة، عندما أصدر في 21 كانون الثاني/ يناير 2000 مرسومًا يحظر السخرية من أجهزة الدولة، كما ورد في صحيفة «الشرق الأوسط» في حينه.

كيف حظر صدام حسين السخرية من أجهزة الدولة[34]

كشف مصدر إعلامي عراقي، أن الرئيس العراقي صدام حسين، حظر على الصحف المحلية نشر الكتابات الساخرة، ورسوم الكاريكاتور التي تنتقد أداء الحكومة ومؤسساتها.
وأفاد المصدر الذي كان يتحدث إلى «الشرق الأوسط» أثناء زيارته إلى عمان، وطلب عدم الكشف عن هويته، أن الحظر جاء في صيغة أمر رئاسي أبلغ شفاهة إلى المؤسسات الصحافية، والكتّاب والرسامين الذين قيل لهم إن قاعدة «شر البلية ما يضحك» أصبحت «لا تليق بالتجربة» التي أنجزها حزب البعث الحاكم في العراق، فضلاً عن «الظروف الصعبة المفروضة على العراق».
وأضاف المصدر أن كتّاب الزوايا الساخرة التي كانت تظهر في صحيفة يومية، وست صحف أسبوعية، منعوا من الكتابة أو طلب

إليهم تغيير الطريقة التي يكتبون بها. . .

وأظهرت متابعة للصحف العراقية الصادرة خلال الأيام القليلة الماضية، اختفاء الزوايا الساخرة ورسوم الكاريكاتور خصوصًا ذات العلاقة بالمؤسسات الحكومية وأنشطتها.

وكان مقال ساخر قد نُشر عام 1998 قد أدى بصاحبه «داود فرحان» الذي كان نائبًا لنقيب الصحافيين إلى السجن عدة أشهر ولم يطلق سراحه إلا بعد حملة قوية شارك فيها اتحاد الصحافيين العرب.

ويبقى أن نقول إن صحافة الهزل في العراق بدأت «بمرقعة الهندي» وانتهت «بقرندل» ميخائيل قيس الذي قلَّد أمين الريحاني الصحافي اللبناني الساخر. . .

سوريا والصحافة الساخرة

بدأ فن الصحافة الهزلية في المشرق العربي كما رأيناه هزيلاً كمًّا ونوعًا، ثم بدأ يرتقي تدريجيًا في مصر أولاً ثم في لبنان. . . أما في سوريا فقد ظهرت **أول صحيفة هزلية في نيسان/ أبريل 1909** تحت اسم. . «ظهرلك بالك»، إلّا أنها اقتصرت على الدعابات والنكات الاجتماعية ومقاربة السياسة بخجل وحذر، ولم تعمِّر طويلاً بعد الحرب العالمية الأولى، ووقوع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي.

كانت الصحف الهزلية اللبنانية تجد لها سوقًا رحبة وقراءً متشوقين، **ولم تعرف الصحافة السورية في تلك المرحلة وفرة في الصحف المتخصصة في الهزل السياسي**، رغم أن الصحافة السياسية في دمشق وحلب، كانت تفرد أبوابًا خاصة بالنقد الساخر. . وفي هذا الصدد كتب خالد القشطيني:

«في عام 1948 ظهرت في دمشق «عصبة الاثني عشر» من المحررين الهزليين. لكن نشاطها لم يلبث أن توقف، لأن البلاد وقعت تحت

الحكم العسكري، على أن جيلاً جديدًا من الكتّاب الهزليين، اختط أسلوبًا أكثر حصافة وأدهى حيلة في التهكم السياسي، كان من أبرز أفراده «زكريا تامر»، وكان تامر أصلاً من كتّاب القصة القصيرة، فاستخدم فنه في القصص الأسطوري، والمثل السائر ليشير بإصبع الاتهام إلى سقطات الإدارة، ومن غمزاته النموذجية في إحدى قصصه عن تربية الجيل الجديد من أولاد المدارس في ديار العرب السؤال الحسابي التالي: إذا كان عندنا مليون من البشر، وشنقنا منهم مئة وخمسين فكم يبقى عندنا من الأحياء.

وفي عام 1977 عقدت السلطة مع تامر اتفاق تسوية كلفته بموجبه تحرير عمود في جريدة «تشرين» الرسمية، اتُّفِق على وضعه تحت عنوان عام هو «حكايات جحا الدمشقي» أحيا فيه حكايات جحا القديمة، بعد أن حملها بعض المضامين السياسية الجارية. ففي إحداها يسأل الملك جحا عن رأيه في حماره، فيجيبه: إن حمار الملك ملك الحمير. فألح الملك على جحا أن يعلّم حماره الكلام، لكن المحاولة تفضي إلى أن الحمار علّم جحا النهيق.

غير أن جهود جحا لم تذهب جزافًا، ذلك لأن الحمار عندما تولى العرش بعد وفاة سيده، أثبت أنه أفضل ملك ارتقى عرش ذلك البلد».

ويتابع قشطيني روايته فيقول:

«وفي لقاء آخر يستشير الملك جحا في تأليف وزارة جديدة، فيشير عليه بإنشاء وزارة شموع، تقدم للناس شموعًا ليقرأوا في ضوئها النشرة الرسمية. واستحداث وزارة ثانية للحياة والموت، تتولى إخبار الناس بأن الصحة والمرض بيد الله. ووزارة ثالثة للآداب العامة لتوجيه الناس إلى أن يمتنعوا عن مقاومة القهر، وأن يحوّلوا التنكر للظلم إلى مقاومة الأفلام الخلاعية.

وراحت التلميحات النقدية تزداد صراحة وعنفًا، حتى قررت السلطة منعه من النشر».

ونحن نعتقد أن السبب الرئيسي لعدم وفرة الصحف السياسية الساخرة في سوريا منذ أيام العثمانيين إلى مرحلة ما بعد الاستقلال، يعود إلى كونها بلدًا واحدًا عمليًا في مرحلتي الحكم العثماني والانتداب الفرنسي، فجنوب لبنان كان يتبع ولاية دمشق، والبقاع وشمال لبنان، ارتبطا إداريًا وتجاريًا في كثير من المراحل بالساحل السوري، رغم إنشاء دولة لبنان الكبير. ودمشق كانت كسائر المدن السورية سوقًا واسعة لصحف بيروت.

إلاَّ أنه كان للنقد السياسي الساخر مجال واسع في سوريا، من خلال التلفزيون والمسرح، كما سنرى في فصول مقبلة من هذا الكتاب، **فمسرحيات «دريد لحام» ومسلسلاته التلفزيونية، كانت ولم تزل رائدة في هذا الحقل.**

أيضًا عند الكلام عن الصحف الهزلية في سوريا أيام الانتداب الفرنسي، لا يمكن إغفال ذكر صحيفة «المضحك المبكي» التي أصدرها **«حبيب كحّالة»** عام 1929، وعاشت فترتي الانتداب والاستقلال، حيث توقفت عن الصدور عام 1964. وكان الفرنسيون أيام الانتداب قد أصدروا قرارات أدت إلى تعطيلها لسنوات عدة.

■ وعن الصحافة الهزلية في سوريا، كتبت صحيفة «الدولية» في عددها الصادر في 23 كانون الأول/ ديسمبر 1992 أن:

سوريا عرفت الصحافة الهزلية إبان العهد العثماني، حيث صدر فيها ما يقارب الخمس وعشرين صحيفة هزلية، أي ما يقارب ثلث الصحف السورية. وكانت أول صحيفة انتقادية صدرت في سوريا، جريدة «ظهرلك بالك» التي صدرت عام 1909 في دمشق، وقد كانت الصحافة الهزلية في العهد العثماني قد خاضها مغامرون ومرتزقة. وكانت في مجملها عبثًا وتهريجًا وإضحاكًا، لذلك كانت صحافة ساذجة متخلفة لا

تخدم أغراضها في النقد اللاذع، الذي يقود إلى الإصلاح، أو كونها صحافة رسالة والتزام.

وحين رحل الأتراك عام 1918 ظهرت أول صحيفة هزلية انتقادية بعد الحرب العالمية الأولى في دمشق 1919، وهي «الحمارة» ثم عمّت خلال العشرينيات موضة صحافة الهزل معظم المدن السورية حيث بلغت 24 صحيفة ومجلة أبرزها «المضحك المبكي» و«مارستان الأفكار» و«ماشي الحال» و«المكنسة». وتوزعت الجرائد الهزلية على المدن السورية حيث خرجت ست عشرة جريدة في دمشق، وأربع جرائد في اللاذقية واثنتان في حلب، واثنتان في حماه، أما المجلات العشر فتوزعت بين دمشق وحلب، بينما حُرمت حمص من الصحافة الهزلية في تلك الحقبة.

■ وقد كان رقم الصحافة الهزلية الانتقادية ضئيلاً جدًا، إذا ما قيس بعدد الصحف السورية المعاصرة، حيث صدر في سوريا حوالي (325) جريدة من عام 1918، وكانت نسبة الصحافة الهزلية لا تتعدى واحدًا إلى ثلاثة عشر في حين كانت تمثل فترة الحكم واحدًا إلى ثلاثة. وقد خلقت هذه الصحافة لونًا جديدًا في أساليب الهجاء والنقد والسخرية انفردت به، وكان ذلك اللون بعيد الأثر في نفوس الجماهير، لارتباطه باللهجات العامية والفكاهة والصورة المضحكة. وكان شأنها شأن الصحف السياسية تخوض عباب السياسة ومشاكل المجتمع. ومعظمها كان يولي سياسة الدولة وصراعات الأحزاب والإصلاحات الدستورية أهمية كبرى، وكان يتم هذا بأسلوب انتقادي ساخر. . وكان من أبرز كتّاب هذه الصحف «يوسف الأهرامي» و«علي الغبرة» و«محمد صبحي عقدة» و«محمد عارف الهبل» ومعظم الموضوعات كانت تُكتب بالعامية، أو لغتها مزيج من الفصحى والعامية. وثمة ملاحظة لا بد من ذكرها، وهي أن هذا النوع من الصحافة، لم يعرف فن الصورة أو الرسم الكاريكاتوري، ما عدا صحيفة واحدة كانت ناطقة بالصور الهزلية وهي (النفاخة المصورة).

غير أن رسومها كانت ساذجة ومتخلفة، كما أنه من الملاحظ أن أسماء الصحف الهزلية كانت هزلية ضاحكة. أذكر منها «جحا وأبو

نواس» و«اسمع وسطح» و«أعطيه جمله» و«ظهر لك بالك» و«انخلي يا هلالة» و«ضاعت الطاسة» و«الكشكول».

■ وقد حددت الصحافة الهزلية السورية رسالتها بلسان صحيفة «حط بالخرج» قائلة: جرائد الهزل لا للهزل والضحك. صيغت ولكنها في الحلق كالحسك، مهازلها كبّة طابت مآكلها، وإنما هزلها نوع من الفشك، وقد وجدت الصحافة الهزلية السورية حظها في أنها صحافة التزام، وليست من أجل الإضحاك فقط. لذلك كانت تكثر من الحديث عن الحرية والدستور والصراعات الحزبية، والحوار بين أنصار المركزية واللامركزية، كما تحدثت في مسائل المجتمع، ومشاكل التعليم، والحريات الفردية، والاجتماعية، والعمل، والقضايا الزراعية ومشاكل الاقتصاد، وأخبار المدن، والخلافات العائلية وأخبار النساء.

وجاءت عناوين المواضيع تنطلق من صميم الواقع السوري والعادات الشعبية. وأشهر العناوين (محاورة بين كذا وكذا) ـ موّال ـ قرّادية أعراب ـ تلغرافات، تقويم الجرائد ـ حالتنا الحاضرة ـ زلغوطة ـ تنبؤات وغيرها. كما ظهرت الروح الوطنية والتغني بالعروبة والأمجاد. وكانت تجمع في غالبها بين الجد والهزل، العامية والفصحى، فنراها في صحيفة «حطّ بالخرج» تمدح العرب قائلة:

أولاد العرب موزونة ... ما بردهن ضرب رصاص
إن سحبوا سيوف المسنونة ... سباع الفلا تعاركها

وفي النقد العام نجد في صحيفة «أبي نواس العصري» تحت عنوان «الشعر الخنفشاري»:

إذا هبت ريح الخرطبيل ... وملّ الناس من قال وقيل
تكون يداه كالباع الطويل ... وخذ عنه المعارف والفوائد
أرى بعض البرية كالبواري ... يحبون الحديث الخنفشاري

لقصر عقولهم ظنوا الوراري كأحجار المقالع والصحاري
ولا يدرون ما معنى الجرائد

■ أخيرًا، إذا كان المصريون ينكتون على الصعايدة، فلماذا ينكِّت السوريون على الحماصنة (أي أهل حمص)؟

بعد الكثير من البحث والتدقيق، وسؤال كبار السن وصلنا إلى الحكاية التالية، التي تسببت في جعل الحماصنة هدفًا للنكات.

قيل إنه عندما اجتاح المغول بلاد الشام وعاثوا فيها فسادًا، واعتدوا على أهلها ذكورًا وإناثًا، خاف أهل حمص من اعتداء هؤلاء الغزاة على نسائهم فاجتمعوا وتشاوروا حتى وجدوا الطريقة المثلى لحماية أعراضهم (نسائهم) وتتلخص باصطناعهم الهبل والجنون. وما أن وصلت طلائع المغول إلى حمص حتى وجدوا شعبًا مجنونًا بحركاته وتصرفاته وأقواله.. فمرُّوا بها دون التعاطي مع أهلها. وهكذا نجح أهل حمص في حماية أنفسهم ونسائهم من تعديات تيمورلنك وجنده لكنهم جعلوا من أنفسهم هدفًا للنكات والتنكيت، من باقي الشعب السوري.

هي حكاية سمعناها توضح أسباب اتصاف الحماصنة بالهبل والخبل، ونحن لا نتبناها وإن كنَّا نجد فيها تصرفًا ذكيًا.

الصحافة والمقال الساخر في الأردن

النكتة والسخرية السياسية في الأردن

بطاقة هوية

من أشهر الشخصيات وألمع الأسماء في عالم السخرية السياسية والتمرد على مجرياتها وانعكاساتها الحياتية:

«عرار» أو مصطفى وهبي التل، الذي اشتهر بشاعر التمرد وصاحب النَّور والصعاليك.

ولد مصطفى وهبي التل في مدينة إربد شمال الأردن عام 1899 م. نشأ في بيت كثرت فيه المشاجرات والمشاحنات مما اضطره إلى الفرار منه.

تلقى مصطفى وهبي التل أو «عرار» تعليمه الابتدائي في الأردن (إربد) ثم سافر إلى دمشق لمتابعة دراسته في مدرسة (مكتب عنبر). شارك مصطفى أصدقاءه التلاميذ في المظاهرات ضد الأتراك فنفي إلى بيروت وبقي فيها لبضعة أشهر ثم عاد إلى دمشق، وعلى أثر خلافه مع والده الذي طلب منه العودة إلى إربد والعمل في مدرسة يملكها غادر إربد إلى تركيا في عام 1917 وهناك تعرف بزوجته الأولى ـ تزوج مصطفى (عرار) أربع مرات، ثم دفعه الشوق للعودة إلى دياره ـ الأردن (إربد).

ثم عاد إلى دمشق لمتابعة تعليمه 1919 ـ 1920، ونفي إلى حلب بسبب مشاركته في مظاهرة ضد السلطة الاستعمارية. وحصل على الشهادة الثانوية من المدرسة السلطانية بحلب ثم عاد إلى إربد وعمل في التعليم ـ ثم عمل في القضاء من العام 1933 وحتى عام 1944 ـ وعلى إثر خلاف مع أحد المسؤولين طُرد من عمله وبقي خلف القضبان حوالي سبعين يومًا. وبعد خروجه من السجن افتتح مكتبًا لمزاولة المحاماة في العاصمة الأردنية عمان وكان أكثر زبائنه من الغجر.. واللصوص.. والمفلسين والفقراء.

توفي الشاعر الأردني الساخر «عرار» بتاريخ 24 أيار/ مايو 1949 ودفن في «تل إربد» حسب وصيته..

أما لقبه الشعري «عرار» فقد اختاره من قول الشاعر عمرو بن شاش الأسدي في ابنه عرار:

أرادت عرارًا بالهوان ومن يرد   عرار لعمري بالهوان فقد ظلم

وكان عرار صاحب ثقافة واسعة متنوعة ـ فقد درس الكتب المقدسة

ـ واهتم باللغة العربية والتراث العربي كما اهتم بدراسة الأدب التركي والأدب الفارسي حيث ترجم من اللغة الفارسية إلى العربية (125) رباعية للشاعر الإيراني عمر الخيّام.

نشأ «عرار» ساخطًا على والده الذي حرمه حنان والدته، ومتمردًا على مجتمعه الذي وجد فيه القهر والاستغلال ـ لذلك وقف الشاعر الساخط إلى جانب أبناء الشعب من الفقراء والمظلومين ونذر نفسه للدفاع عنهم ونادى بالعدالة الاجتماعية وطالب بحقوق الغجر «النَّور» أي بمنحهم حقوق المواطنة.

وكان عرار كريمًا مع الفقراء والمحتاجين يمنحهم ما في جيوبه من مال عن طيب خاطر.

كانت حياة عرار ملأى بالطرائف والمتناقضات والانطلاقية البوهيمية العجيبة على حدّ تعبير عيسى الناعوري.

هاجم «عرار» المرابين والجشعين الذين يمتصون دماء الفقراء. فقال يخاطبهم:

قولوا لقبوا ـ علَّ القول يشفيني	إن المرابين إخوان الشياطين
وإنهم ـ لا أعزّ الله دولتهم	قد اطلعوا رغم تنديدي بهم ديني
كأنما الناس عبدانٌ لدرهمهم	وتحت أقدامهم نص القوانين
يا رهط شيلوك من يأخذ بناصركم	يجن على الحق والأخلاق والدينِ
ومن يسهل أمرًا فيه مصلحة	لكم فملعون حقًا وابن ملعونِ
أأسجن الناس إكرامًا لخاطركم	وخشية العزل من ذي المنصب الدونِ
إن الصعاليك إخواني وإن لهم	حقًا، به لو شعرتم لم تلوموني

وتجدر الإشارة إلى أن شعر عرار مليء برائحة الخمر والتغزل بها، وكانت الكأس رفيقته في صحته ومرضه. وكان يسخر من الأطباء إذ ينهونه عن الخمر فيقول:

قال الأطباء: لا تشرب فقلت لهم الشرب لا الطب شافاني وعافاني

كان عرار ناقمًا على مدنية ومجتمع تسود علاقاتها الإنسانية الخداع والالتواء والنفاق فأضحى يقضي أيامه مع النَّور.

■ وأخيرًا وليس آخرًا قدم الفنان الأردني الضاحك «**هشام يانس**» مسرحية سياسية ساخرة حول نظام صدام حسين الذي سقط في العام 2003 تحت عنوان إحنا والصدمة وصدام.

وحول هذه المسرحية كتبت إحدى الصحف الأردنية في زاوية فنون وتلفزيون في 24 كانون الثاني/ يناير 2004 تقول:

> أكّد الفنان الأردني الكوميدي هشام يانس بأنه سيدخل تعديلات جديدة على مسرحيته السياسية الكوميدية «إحنا والصدمة وصدام» التي تعرض في عمان منذ عدة أشهر.
>
> وقال هشام يانس إن التعديلات تتعلق بمشاهد جديدة عن اعتقال صدام حسين والأحداث الأخيرة في العراق في قالب هزلي.
>
> ولم تسلم الانتخابات الأردنية من سخرية هشام يانس لجهة ما رافقها من شراء أصوات أو «كوي» البطاقات الشخصية والمواجهة الدائرة بين الحكومة والنواب الجدد ودخول ست نساء إلى البرلمان من خلال «الكوتا» النسائية.

هوامش

1 ـ القشطيني خالد «السخرية السياسية العربية» ص 82.

2 ـ يعقوب بن روفايل صنوع (1879 ـ 1912) ولد في القاهرة، أتقن التوراة منذ طفولته، ثم درس الإنجيل والقرآن. وكان والده مستشارًا لأحمد باشا حفيد محمد علي الكبير الذي أرسله إلى أوروبا لنباهته لدراسة العلوم العصرية، ثم عاد ليدرس أبناء العائلة المالكة اللغات الحية، وأسس أول مسرح عربي سنة 1870 بمساعدة الخديوي اسماعيل الذي لقبه بـ «موليير مصر» ثم ما لبث أن أمر بإقفاله، فعمد يعقوب إلى تأسيس جمعيتين أدبيتين. الأولى «محفل التقدم» والثانية «محفل محبي العلم». ثم انتقل بعدها إلى عالم الصحافة الهزلية الكاريكاتورية المتخصصة ابتداءً بـ«أبو نظارة زرقاء» في القاهرة وحمل فيها على الخديوي اسماعيل، وأعوانه في القصر فطرده من مصر إلى فرنسا. حيث أكمل مشواره مع «أبو نظارة» حتى وفاته. وقد أقام المترجم له صداقات في أوروبا مع الأمراء والسياسيين وسواهم، وكان يدافع عن بلده مصر باستمرار في وجه الإنكليز حتى منح أرفع الأوسمة نظرًا لإتقانه ثماني لغات على الأقل.
انظر طرزي فيليب (تاريخ الصحافة العربية) ـ المطبعة الأدبية بيروت 1913 ـ المرجع: ناتوت، هلال، «الصحافة المتخصصة في مصر ولبنان»، دار خضر، بيروت 1994.

3 ـ ناتوت، هلال «الصحافة المتخصصة في مصر ولبنان»، ص 186.

4 ـ جريدة «أبو نظارة» ـ العدد الأول تاريخ 21 ربيع الأول سنة 1295 ـ 1877 م.

5 ـ ناتوت، هلال ص 191.

6 ـ جريدة «رحلة أبو نظارة»، العدد 2، أيلول/ سبتمبر سنة 1878.

7 ـ جريدة «النظارة المصرية»، العدد الأول، سنة 1879.

8 ـ ناتوت، هلال ص 200.

9 ـ جريدة «الحاوي»، السنة الأولى العدد 2.

10 ـ ناتوت هلال ص 201.

11 ـ القشطيني، خالد، ص 92.

12 ـ بلدة المؤلف ومسقط رأسه.

13 ـ «مجلة الفكاهة»، العدد 271، الثلاثاء 2 شباط/ فبراير 1932.

14 ـ القشطيني خالد ـ ص 108.

15 ـ المرجع ناتوت هلال ـ الصحافة المتخصصة في مصر ولبنان ص 187 ـ 188.
16 ـ «اللواء»، الأربعاء 26/ 9/ 2001.
17 ـ «الحياة»، العدد (13652) 29 تموز/ يوليو سنة 2000.
18 ـ المنايفة ـ هم أهل محافظة المنوفية.
19 ـ الدمايطة ـ هم أهل محافظة دمياط.
20 ـ راجع الجدول بأسماء الصحف الفكاهية اللبنانية.
21 ـ ناتوت هلال ـ «الصحافة المتخصصة»، ص 213.
22 ـ رئيس وزراء لبنان الأسبق، وأحد أبطال الاستقلال، اغتيل في عمان في تموز/ يوليو 1951.
23 ـ دبّارة ـ تعني حلاً باللهجة اللبنانية.
24 ـ ناتوت هلال ص 220.
25 ـ الشروال ـ هو السروال اللبناني الشعبي.
26 ـ بشامون ـ قرية جنوبي بيروت، مرّ ذكرها.
27 ـ سعيد فريحة: الجعبة 1943، الصادر عن دار الصياد.
28 ـ إدريس ـ سهيل: تحليل لـ«جعبة الصياد» ـ الجعبة، المجلد 2 ، دار الصياد 1993.
29 ـ صحافي لبناني كبير ـ عمل في آخر أيامه سفيرًا للبنان في أميركا اللاتينية، وأصدر قبلها جريدة «النهار» وهو والد الصحافي والوزير السابق غسان تويني.
30 ـ مجلة الأحرار المصورة ـ دار النهار 1993 ص 5.
31 ـ المرجع السابق.
32 ـ ناتوت هلال ـ الصحافة المتخصصة في مصر ولبنان ص 208 ـ 209.
33 ـ القشطيني خالد ـ المرجع السابق ـ ص 108.
34 ـ «الشرق الأوسط» ـ كانون الثاني/ يناير 2000.

الفصل الرابع

النكتة السياسية

تعريف النكتة السياسية

النكتة السياسية التي نتداولها همسًا، ونتعاطاها سرًا، وتدور كالدوامة وتهبط كالصاعقة، وتهرب كالبرق، وتنتشر أسرع من الصوت (خاصة في أوقات الحروب والأزمات)، وتحوّل الترقب إلى منشور، والرأي إلى صنعة، والسخرية إلى شظايا، والضغوط إلى ضربات موجعة تحت الحزام، والشعوب المغلوبة على أمرها إلى ديناصورات.

وهي (النكتة) طائر يعيش في كل مكان، ويحطّ على كل الرؤوس، فوطنه حيث يوجد الإنسان.. لكن لا أحد يعرف من أين جاء، ولا شجرة عائلته، ولا أصل جنسيته ولا إلى من ينتسب. والنكتة جمعها نكات، والفعل «نكت» أي ضرب الأرض بقضيب من حديد، فأثر فيها، وحطم قشرتها.

ويُقال نكت فلان يعني ألقاه على رأسه. وفي القاموس المحيط النكات تشبه الوسخ في المرأة.. والمقصود أنها تشوه الصورة وتطعن أصحابها وتلطخ بغير المستحب.

وقال أحدهم في تعريف النكتة:

إنها (أي النكتة) عند الشعوب المقهورة تعتبر ضرورة مثل رغيف الخبز، وقرص الأسبرين، وكوب الشاي، وإنجاب أكبر عدد ممكن من الأطفال.

وعن ضرورة النكتة في حياة الناس يقول أحمد أمين:

من الملاحظ أن أشد الناس فقرًا، وعوزًا، وبؤسًا، يكاد يكون أكثرهم نكتة وظرفًا.

الشكل وروح الفكاهة ـ الجاحظ مثالاً

قرأت فيما قرأت أن أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ والملقب بالجاحظ لجحوظ عينيه أي نتوئهما، ولد سنة 159 ومات سنة 255هـ، عن عمر يناهز الثمانين. قالوا في وصفه، إنه كان قصير القامة أجهم الوجه، دميم الخلقة، ومع ذلك عُرف عنه أنه كان يمتاز بخفة روحه وظرف حديثه وحسن عشرته وفكاهته الطبيعية، ولعلّه بهذه الصفات كان يخفي أو يستر (دمامة خلقه).. وللجاحظ حصة لا بأس بها من صفحات التراث.. من يمعن النظر فيها يرى فيها (أي في قصصه) تمثيليات قصيرة هزلية. أما المؤكد فهو أن الجاحظ لم يقصد بكتاباته الفن المسرحي الضاحك لأنه لم يكن يعرفه، وإنما جاءت عناصر الهزل في كتاباته عفوية، بثها فيها فكاهته وتهكّمه وسخريته.

ومن أشهر كتبه: «البخلاء»، المتميّز بإنسانيته. ولهذه الأسباب وغيرها قيل فيه إنه أكبر أديب عرفته لغة العرب.

وفي الضحك يقول الجاحظ..

> لو كان الضحك قبيحًا من الضاحك، وقبيحًا من المضحك، لما قيل للزهرة والحلي والقصر المبنيّ: كأنه يضحك ضحكًا، وقد قال الله، جل ذكره: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ فوضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت، والضحك أول خير يظهر من الصبيّ، وبه تطيب نفسه وعليه ينبت شحمه، ويكثر دمه الذي هو علّة سروره، ومادة قوّته.
>
> ويضيف الجاحظ..
>
> ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمي أولادها بالضحّاك، وببسّام، وبطَلْق وبطليق. وإذا مدحوا قالوا: هو ضحوك السن، وبسّام العشيّات، وهش إلى الضيف، وذو أريحية[1] واهتزاز[2].

جاء في كتب التراث[3]، أن من أمتع الرسائل التي خطّها الجاحظ

«رسالة التربيع والتدوير»، وهي رسالة كتبها الجاحظ[4] في هجاء أحمد بن عبد الوهاب الكاتب، وهي آية في السخرية والتهكم. وتعرف أيضًا برسالة الطول والعرض، والتوسع والتدوير، ورسالة المفاكهات. وقد ذاع صيت الرسالة ونشرت بين الناس وطُبعت في مصر ولندن بهذا الاسم الأول. قال فيها الجاحظ:

«وقد كان أحمد بن عبد الوهاب هذا مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول، وكان مربعًا وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورًا. وكان جعد الأطراف قصير الأصابع وهو في ذلك يدعي السباطة والرشاقة».

إلى أن يقول في وصفه الساخر:

«هو يعدُّ أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب»، ويختم الجاحظ قائلاً: «وليس في يده، من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب ـ تجده يطاول السماء وأسبابه لاصقة بالأرض ـ فكأنه الهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد. . . الخ».

هكذا استطاع الجاحظ أن يبدي صفحة الرجل حقًا، وأن يهزأ به ويبلغ منه، فأخذه بأسلوب لاذع، وغمره بفيض من السخرية والتهكم.

وهو القائل في وصف اللسان:

«هو أداة يظهر بها البيان ـ وشاهد يعبر عن الضمير، وحاكم يفصل الخطاب، وناطق يرد به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الأشياء، وواعظ ينهى عن القبيح، ومعزٍّ يردّ الأحزان، ومعتذر يرفع الضغينة، وملحة تونق الأسماع، وزارع

يحرث المودة، وحاصد يستأصل العداوة، وشاكر يستوجب المزيد، ومادح يستحق الألفة، ومؤنس يذهب الوحشة».

محاسن حفظ اللسان

■ قال أكثم بن صيفي: (مقتل الرجل بين فكيه ـ يعني لسانه).
وقال: (رب قول أشد من صول).
■ وقال الشاعر:

وجرح السيف تأسوه فيبرا وجرح الدهر ما جرح اللسان
جراحات الطعان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

■ قال الجاحظ:

في اللسان عشر خصال. أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وحاكم يفصل بين الخطاب، وناطق يردُّ به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الأشياء، وواعظ يعرف به القبيح، ومغرّد ترد به الأحزان، وخاصة تزهى بالصنيعة، وملحة يونق الأسماع.

■ وقال الحسن البصري: إن الله تعالى رفع درجات اللسان، فليس من الأعضاء شيء ينطق بذكره غيره.
■ وفي اللسان، قال خالد بن صفوان:
ما الإنسان لولا اللسان إلا ضالة مهملة، أو بهيمة مرسلة، أو صورة ممثلة.
■ وروي عن النبي (ص) أنه قال: (من يضمن لي ما بين فكيه وما بين لحييه أضمن له الجنة).
وكان الشعراء يهجون من يكرهون، كذلك كان يفعل الأدباء يهجون في نثرهم من لا يطيقون.. أو من يضيقون بهم ذرعاً.

النكتة السياسية
بين «الدعابة الفطرية والحرب النفسية»

لم تعرف الأمة العربية في تاريخها الطويل إلا النكبات والهموم والقلق. وهو تاريخ طويل من الأحداث التي لا تدعو إلى الضحك في أي حال. وتوارثت الأجيال هموم الآباء والأجداد وعبوسهم. وكبرت على عبارة «الأمّة تمرّ في أخطر مرحلة من تاريخها» وارتبط الضحك والسخرية لدى البعض في أمتنا بالخفة، بينما كان العبوس يرمز لديهم إلى الجدية والفضيلة ـ ولم يدركوا بأن الضحك هو موضوع جدي تناوله الفلاسفة الإغريق بكثير من التعمق. ودرسوا علاقته بالخوف والقلق والشماتة والانتقام... الخ.

ومع هذا فقد وجدت النكتة السياسية منفذًا لها فخرجت إلى الملأ وانتشرت وتداولها الناس، تنفيسًا عن الكبت والقهر وكمِّ الأفواه **فكما أن النكتة الجنسية مبعثها الكبت والحرمان الجنسي، كذلك النكتة السياسية مبعثها الكبت السياسي والحرمان من حق التعبير عن الرأي.**

والنكتة السياسية سواء كانت نكتة متداولة أو مقالاً ساخرًا أو مسرحية هزلية، فهي من أكثر أنواع الدعابة التصاقًا بحياة الناس. فهي تنتقد وتعلّق وتسخر من شخصية سياسية، أو قرار سياسي بشكل مباشر أو غير مباشر، حسب كبر مساحة الحرية في البلد.. وفي البلدان الديكتاتورية النظام، تتحول إلى همس تواطئي يشترك به القائل والمستمع، وفي كثير من الأحيان لا يُعرف مصدرها الأساسي شأنها شأن الشائعة. ومنها ما يكون من اختلاق مخيّلة شعبية بريئة، ومنها ما يُستورد سرًا من الخارج من جهة تعي الوضع السياسي في البلد الهدف، وتعي تأثير السخرية السياسية على معنويات الناس وهيبة الحاكم، ومنها ما هو جزء من التكتيك السياسي للمعارضة الداخلية للأنظمة المراد إسقاطها.

ومن جانب آخر تتخذ الأنظمة السياسية الديكتاتورية من النكتة

سلاح ترويج الفكرة أو طعن حالة تهدد استقرارها السياسي. فكثير من النكات السياسية تشيع وتنتشر من دون القدرة على فرز مقاصدها، لأن الفطرة الشعبية تعاملت معها كنكتة خارج مقصدها السياسي، ولا تعي أنها ابتُكرت من قبل خُبراء موظفين في المؤسسات الاستخبارية للأنظمة السياسية، تعي أهمية النكتة وتسخرها كسلاح فعال. وغالبًا ما تبث بعض النكات السياسية قبل اتخاذ قرار ما. وذلك لتحقيق أرضية نفسية للقرار، أو لإعطاء مبررات أولية غير معلنة. أو كما يحصل أحيانًا حين يتداول البعض نكات مضحكة عن وسائل التعذيب في السجون، والمفارقات التي تحدث بين السجين والسجان، إنها وسائل لبثّ الرعب والتحذير بطريقة ما..

ومع هذا فإن الأساليب البوليسية والاستخبارية للأنظمة المستبدة قد تبدو عاجزة عن الحد من النكتة السياسية التي تفضحها وتنتقدها، لأنها ابتكار مخيلة شعبية يومية تتفاعل بسرعة مع واقع النظام السياسي وتشاكسه، معبرة من خلالها عن رأي لا تجد القدرة على قوله بشكل صريح.

وفي لبنان بدأت النكتة السياسية تظهر وتكبر، كلما ضاقت مساحة التعبير السياسي المباشر، رغم أن لبنان هو متقدم بمسافات عن محيطه لجهة الحرية السياسية، فقد قام مسرح الساعة العاشرة على المبدأ القائل بأن كل الشخصيات العامة هي كاريكاتور مباح. حتى أن **المسرحي الشهير شوشو**، تجرأ وسمّى أعضاء المجلس النيابي، وهي أكبر مؤسسة دستورية بـ«99 حرامي».

وفي مقابلة أجرتها مجلة «الشراع» اللبنانية مع رئيس جهاز المعلومات المصرية في عهد الرئيس عبد الناصر **سامي شرف**، قال بها إن الرئيس عبد الناصر. الذي كان يتذوق النكتة، ويتساهل بها، طلب في أحد الأيام من أجهزته وقف النكات السياسية لأنها إسرائيلية المصدر. وفي هذا السياق يقول سامي شرف:

«كثيرون وضعوها كعنوان، بأن عبد الناصر قال: «بطلوا نكت» هذا

العنوان يجب أن يفسر وأن نتوسع في تفسيره، فبعد نكسة عام 1967 مباشرة، كانت الروح المعنوية للقوات المسلحة وللعساكر منهارة».

ويتابع سامي شرف «ونحن كشعب مصري من طبيعته وتكوينه أنه يحب النكت، لأنها تعبر عما يجيش في داخله، والمصري ينكت إذا كان سعيدًا أو حزينًا، منتصرًا أو منكسرًا، فهو يسخر من أوضاعه بالنكت، والنكتة بالنسبة للإنسان المصري هي تعبير تلقائي.

وكانت النكسة، وكانت مصر تخرج من هزيمة، فصدر قرار من الرئيس ومن الشعب بتخطي هذه الهزيمة، وبأن إرادتنا لم تقهر، وطالما الإرادة موجودة، فلا أحد يستطيع قهرنا».

«ولكن المسألة ـ يقول سامي شرف ـ ازدادت تعقيدًا وأصبحنا نسير على خطين متناقضين. الخط الأول: الدولة والنظام ومعهما الشعب، يخوضون معركة البناء لتحرير الأرض، والتجهيز لمعركة جديدة. والخط الثاني: تزايد حدة النكت، إلى درجة أنها بدأت تؤثر على معنويات الناس الذين اتخذوا قرار الاستمرار في المعركة. إذًا كان يجب أن نقف وننتبه إلى ما يحدث».

وردًا على سؤال: هل بدأت النكات تعكس مفعولاً سلبيًا على الناس؟ أجاب رئيس جهاز المعلومات المصري:

> «نعم» وباتت ملحوظة، فبدأنا نقيسها بشكل علمي، عدد النكات، مدلولها، محتواها، ومدى انتشارها. وعندما ظهرت النتيجة، تبين لنا أن هناك نكسة صحيح، ولكن هناك إعادة بناء للقوات المسلحة لخوض معركة التحرير، لكن النكت ما زالت مستمرة.
>
> فوقف أمامها عبد الناصر، وقال هذه الجملة: «بطلوا نكت» أين؟ في المؤتمر العام للاتحاد الاشتراكي العربي ـ التنظيم السياسي في جامعة القاهرة.
>
> وقال: «يا تنظيم سياسي يا اللي المفروض تبني معانا القوات المسلحة، لأن القوات التي تُبنى من جديد هي من أولادك

وإخوانك، حِدّ من إطلاق النكات، لأنها ستؤثر على الروح المعنوية، وقد يترتب عليها أننا نعجز عن عملية البناء السريع الذي نسعى إلى تحقيقه، نريد بناءً سريعًا، ولكن كيف؟ وكلما وضعنا طوبة، قوبلنا بنكتة تحد من هذه العملية، نريد أن نتجاوز هذه المرحلة، ونبدأ مرحلة جادة وليس معركة نكات».

ويتابع سامي شرف: يعني هو لم يقل كلمته هذه للشعب، ولكن عرف لمن وجه كلامه. «لأننا نحن معاونيه والمحيطين به، كنّا ننقل له أحيانًا ما سمعناه من نكت فكان يضحك، وأحيانًا كان يقول لنا: «سمعتوا آخر نكتة؟» فكما ذكرت في السابق، عبد الناصر لم يكن أحادي المصادر، كانت له مصادره المتعددة والمختلفة، حتى أن بعضها لم نكن نعرفه».

وهل كان مصدر بعض النكت المؤذية أعداء مصر، كإسرائيل مثلاً؟

أجاب سامي شرف: «طبعًا، فهناك بعض النكت عندما تسمعينها تدركين على الفور أنها ليست مصرية، بل هجينة.

فالنكتة المصرية لها مفرداتها، ولها أسلوبها الخاص، وهذه يستطيع المصري أن يكتشفها بسرعة، فيعرف من أين مصدرها، الشرق أم الغرب، ويعرف إذا كانت مستوردة أم محلّية».

■ وفي معرض آخر، وفي السياق عينه، أخبرني العماد مصطفى طلاس وزير الدفاع السوري السابق، أنه سمع من الرئيس عبد الناصر خلال لقائه به في منتصف الستينيات في منزله في منشية البكري في القاهرة، أن هناك فريقًا في سفارة الولايات المتحدة الأميركية في القاهرة، عمله الوحيد هو تأليف النكات السياسية التي تركز على نظامه وتضعف من هيبته»[5].

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن النكتة السياسية سواء كانت مقالاً أو مسرحية، أو طرفة متداولة، لا يمكنها أن تنجح إلّا إذا كانت على قياس الحاكم المراد التعرض له. فلم نسمع أية نكتة سياسية تصور الرئيس عبد

الناصر ماجنًا، أو فاسقًا، أو حشاشًا مثلاً.. بل ركّزت على تسلطه وديكتاتوريته وديكتاتورية نظامه. ولنا في هذا بحث مفصل في الفصول الآتية.

أمثلة: قوبل اجتهاد عبد الناصر في إعادة بناء القوات المسلحة المصرية بعد هزيمة (يونيو) حزيران/يونيو بمقولة ساخرة تفاقم الإحساس باليأس وتكاد تدعو إلى الاستسلام كانت قد جاءت على لسان الزعيم المصري الراحل سعد زغلول تقول: «مفيش فايدة يا صفية».

■ فضلاً عن التهكم على الرتب العسكرية. فبدلاً من سيادة العقيد كانوا يقولون سيادة العصير...

■ وعن درجة الاستعداد القتالي، انتشرت مقولة «يا رب تيجي في عينه»...

■ ولتصوير غباء الجندي المصري، أثناء حرب الاستنزاف، أي بعد هزيمة 1967 التي سموها نكسة، انتشرت النكتة التالية:

■ قال جندي مصري لقائده شاكيًا من سلاطة وقبح لسان جندي يهودي متمركز على ضفة القناة:

يا فندم كل يوم الصبح يندهلي يا حسنين، أقول له نعم فيقول لي كذا وكذا لأمك.

فقال له الضابط حاول أن تصحو قبله وأن تبادره بمناداة اسمه وعندما يرد عليك اشتمه كما يفعل هو.

وفي صباح اليوم التالي صحا حسنين باكرًا ووقف على ضفة القناة المصرية ونادى: يا كوهين.

فأجاب كوهين: مين اللي بينادي؟

فقال الجندي المصري: أنا حسنين.

فقال الجندي اليهودي له كذا وكذا لأمك يا ابن الهبلة.

■ وحول توقف العمليات العسكرية على الجبهة المصرية واستمرارها على الجبهة السورية أيام حرب تشرين 1973 في عهد حافظ

الأسد. . . انتشرت نكتة على ألسنة الناس في مصر وكنت وقتها هناك أتابع دراساتي العليا، تقول:

تدخّل الرئيس الأميركي لمصالحة الزعماء الثلاثة: محمد أنور السادات، وحافظ الأسد، وغولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل آنذاك.

وسأل الرئيس الأميركي غولدا أن تختار رجلاً من الاثنين ليزوجها إياه ويتم الصلح.

فقالت غولدا مائير «تلك العجوز البشعة» أريد الزواج من الأسد فقال لها الرئيس الأميركي: إمشي يا «لبوة».

لقد أظهرت مثل هذه النكتة مدى استياء المصريين من توقف القتال على جبهتهم، ومدى إعجابهم بشجاعة ورجولة الأسد الذي تابع القتال منفردًا.

■ أما عن غولدا مائير فيصور إعجابها برجولة الأسد وشجاعته أمام جبن وخنوع محمد أنور السادات.

وفي هذا المجال (النكتة السياسية الساخرة من الوضع أو الحاكم أو. . . أو. . . إلخ) يقول اللواء حسن أبو باشا:

إن النكات تزداد في الأوقات العصيبة حين تشتد الأزمات وفي حالات القلق والتوتر، سواء كانت أزمات سياسية أو اقتصادية، أو اجتماعية. والنكات في كل هذه الأحوال تعبّر عن الرأي العام، واتجاهاته، وترصد الأوضاع التي لا تلقى قبولاً شعبيًا. وإذا عجز الرأي العام عن التعبير عن رفضه من خلال المؤسسات السياسية، أو القنوات الرسمية تنتشر النكات. وأحيانًا تكون إنذارًا مبكرًا لحوادث معينة مثل 18 و19 كانون الثاني/ يناير والانتباه لذلك، وتداركه يقي الوطن من مخاطر هو في غنى عنها.

ويتابع اللواء أبو باشا قائلاً: والميزة الكبرى للنكتة السياسية هي تخفيف حدة التوتر، والتنفيس عن الضيق في الصدور، أو الرغبة في توجيه نظر الحاكم إلى هموم تؤرق الجماهير، وإذا لم يتم الامتثال لوجهة نظر الرأي العام المتمثلة في النكات فقد تنفجر في صورة

اضطرابات تؤثر على الأمن بشكل عام أو بشلل عام. مثلاً وصف الخصخصة بأنها مصمصة.

■ وعن تذمر واستياء الناس من عدم توفر المواد الضرورية في الأسواق، قيل إن رجلاً اصطاد بعض الأسماك وأخذهم إلى زوجته لتحضيرهم لوجبة الغداء.

قال: خذي يا ولية السمكات دول وجهزيهم للغدا.
فسألته: أحضرهم ازاي؟
قال: اشويهم أو اقليهم.
قالت: ما فيش غاز.
قال: ولّعي من الخشب اللي عندك.
قالت: ما ينفعش.
قال: ليه؟
قالت: مفيش زيت.
فغضب وأخذ السمك وعاد وألقى به في النهر (نهر النيل).
قيل: فصرخ السمك وهو في الهواء: يعيش جمال عبد الناصر...
ولا بد من الإشارة هنا إلى أن كل الشعوب قد تلجأ أحيانًا وبسبب شدة الضغوط الحياتية والإحباط إلى قول بعض النكات البذيئة الموجهة إلى الحاكم الذي أذلّها.

وسأحاول ذكر واحدة من هذه النكات بعد أن أهذبها بقدر الإمكان.

■ قيل إن أحدهم (في أحد البلاد العربية) اتصل هاتفيًا بمنزل رئيس الدولة قائلاً:

ألو.. مين؟
أنا زوجة رئيس الجمهورية.
عفوًا أريد أن أسألك: هل أنت امرأة جميلة؟

نعم..
هل ينكحك زوجك كما تُنكح النساء؟
نعم بالتأكيد.
فقال لها:
إذا كنت مثل كل النساء، وإذا كان زوجك ينكحك كل ليلة، فلماذا لا يتوقف زوجك الرئيس عن نكح الشعب كل يوم...
وهذا مثال آخر لنكتة قيلت بعد اغتيال السادات:

■ قال ضابط الاستقبال لجنوده:

بمجرد نزول الحاكم من الطائرة، أطلقوا إحدى وعشرين طلقة.
فقال أحد الجنود:
ماذا لو أصبته من أول طلقة؟...
أخيرًا بقي أن نقول..

إنه لا حاجز يقف في وجه النكتة، ولا فرق عندها بين الحرام والحلال، بين الجنس والدين، بين شيخ سعودي أو كويتي وبين مارلين مونرو. فالنكتة طلقة طائشة مجهولة العيار تنطلق همسًا وتنفجر ضحكًا...

النكتة السياسية وسيكولوجية الدوافع

كانت النكتة السلاح السري الهدّام الذي استخدمه المصريون ضد الغزاة، وقوى الاحتلال، كانت المخرب الذي خرق قصور الحكام، واقتحم حصون الطغاة، فأقلق راحتهم وملأ قلوبهم رعبًا.

كامل الشناوي

رب سائل ما هي الحكمة من إفراد فصل مستقل عن النكتة السياسية ما دامت هذه النكتة كثيرًا ما ترد في المقال الساخر وفي المسرح الهزلي؟ وعلى هذا نجيب بأن النكتة التي يتداولها الناس هي أكثر صراحة وأكثر طرافة وأعمق تأثيرًا من مثيلتها التي تقال على مسرح أو تكتب في حكاية أو مقال. وما ذلك إلا لسبب بسيط هو انعدام المسؤولية التي تترتب عنها، إضافة إلى سعة انتشارها والسرعة في تداولها.

فما هي النكتة؟ ومن أين تأتي؟ وما هو تأثيرها؟

■ جاء في «لسان العرب» لابن منظور:

نكت: النَّكْتُ بقضيب في الأرض، فتؤثر بطرفه فيها. وفي الحديث: فجعل ينكُتُ بقضيب أي يضرب الأرض بطرفه. ابن سيده: النَّكْتُ قرعك الأرض أو بإصبع.

■ وجاء في «المنجد» للأب لويس المعلوف اليسوعي:

«نَكَتَ ـ نكتًا» الأرض بقضيب أو بإصبعه: ضربها به حال التفكر فأثر فيها ـ الناس بالحصى: ضربوا بها الأرض.. الفرس: نبا عن الأرض. يقال: «مرّ فرس ينكُت».. العظم: أخرج مخه. فلانًا: ألقاه على رأسه.. ومنه «لأنكُتنَّ بك الأرض» أي لأطرحنك على رأسك. كنانته: نثرها.

وهكذا أخرجت المسألة الدقيقة بدقة نظر وإمعان فكر الجملة اللطيفة التي تؤثر في النفس انبساطًا ومرحًا، وتترك رواسبها في العقل الباطن لسامعها.

■ يقول فرويد (سيغموند):

إن النكتة ضرب من القصد الشعوري والعملي يلجأ إليه الإنسان في

المجتمع ليعفي نفسه من أعباء الواجبات الثقيلة ويتحلل من الحرج الذي يوقعه فيه الجد ولوازم العمل، وإن النكتة تشبه الحلم في أساليبه وهي التورية والتأويل والاختزال والمسخ والتلفيق، أي جمع الصورة الواحدة من أجزاء صور متفرقة لا تجتمع في الواقع.

■ ولفهم مدى الرسالة التي تنقلها النكتة وسهولة فهم مغزاها وإمتاع السامع بهذا المغزى نرى الكاتب الكبير **عباس محمود العقاد** يصف النكتة وخاصة السياسية منها بأنها:

«ضرب من المران على التفكير السريع وشحذ للفهم وتقويم له على المنطق السديد. ولنكتة واحدة يفهمها السامع حق الفهم، خير من مائة درس في المنطق يقرؤه ويعيده وهو لا يحسن القياس ولا يفقه الدليل».

■ ويقول الأديب اللبناني أنيس فريحة:

«النكتة قدرة عقلية على جمع كلمات أو أفكار، متناقضة أصلاً، في قول يثير فينا الدهشة فالتعجب فالضحك... ولا تقتصر هذه القدرة العقلية على خلق مثل هذه الأقوال المتناقضة فحسب، بل على إدراك المتناقض والمفاجئ والمثير والتجاوب مع الموقف الذي تخلقه هذه المتناقضات».

النكتة شديدة عنيفة تصدر عن تعمد وتصميم وعقل ذكي. النكتة سريعة مفاجئة تستأنف إلى العقل، وهي فنّ فيه خلق وصناعة وذكاء. وأخيرًا النكتة حادة مؤذية قارصة».

والنكتة تنطلق عادة من حالة عذاب نفسي، وهي تعليق غير مألوف على حالة مألوفة أو غير مألوفة وهي وسيلة للتعبير «كاريكاتوريًا»

عن مواقف سياسية أو اجتماعية تتناقض أحيانًا مع مواقف سامعها وراويها.

ومع ذلك لا بد له من أن يتلقفها قبل أن يقذفها باتجاه آخر وهكذا. ومن النكات ما تشكل للبعض كرات من نار إذا جاز التعبير وخاصة إذا كانت إباحية فاجرة أو سياسية لاذعة لا يتورع المرء عن سماعها ومن الناس من يعتذر قبل روايتها ومنهم من يستغفر الله والحاكم قبل أن يلقيها على مسامع جمهوره.

النكتة في الحرب النفسية ـ النكتة والشائعة

يقول صلاح نصر (مدير مخابرات الرئيس عبد الناصر) السابق في كتابه «الحرب النفسية»: «تهدف الحرب النفسية إلى تحقيق الاتصال الجماهيري الذي يوجَّه إلى جمهور كبير.. وهذه الحرب التي تهدف إلى التأثير على الآراء ووجهات النظر هي غير محدودة بزمان أو مكان...».

ويقول صلاح نصر في مجال آخر: «إن النكتة السياسية هي كالشائعة صورة من صور الرأي العام»[6]. وإن هنالك علاقة سيكولوجية بين الفكاهة والشائعة حيث يقول.. «والواقع أن هناك علاقة بين الشائعة والفكاهة، وبالرغم من أن الشائعة عبارة عن قضية مطروحة للتصديق، وتنتشر مبسطة حتى يستسيغها الناس، فإن هناك كثيرًا من القصص تنتشر على أنها شائعات وتكون من وحي الخيال الصرف، ولا تستهدف أكثر من الضحك».

ويتابع صلاح نصر الخبير في الحرب النفسية والذي شغل كما أشرنا رئيس المخابرات في مصر في الستينيات «أنه على الرغم من ذلك فقد تحوي هذه القصص كراهية للحكم، أو نقدًا سياسيًا، أو قد تخفف عاطفة مكبوتة. ولذا فنحن نجد أن الفكاهات والشائعات تتشابهان تشابهًا عجيبًا في الطريقة التي تنتشران بها، وكذا الهدف الذي تحققانه».

فنادراً ما يخلو مجتمع من روح الفكاهة التي تعبِّر عن انطباعاته وأوضاعه الاجتماعية وتفسير كثير من أخلاقه وسلوكه ومعتقداته. فالنكات والقفشات والحزازير (والفوازير) ما هي إلا صورة من تلك الصور العديدة التي تسود كل المجتمعات تقريبًا لتصور أماني المجتمع ورغباته، وتعبر من جهة أخرى عن ثقافته ومعتقداته.

والنكتة السياسية خاصة هي ضد الشائعة التي هي من أخطر الوسائل في الحرب النفسية.

■ وفي القصة التالية التي ظهرت في كل من الحربين العالميتين الأولى والثانية مثل واضح يبين العلاقة السيكولوجية بين الشائعة والفكاهة.

فقد ذاعت في بريطانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى قصة فحواها أن رجلاً إنكليزيًا كان يستحم في بحر المانش، وكان يرتدي لباس بحر اقترضه من صديق أميركي. وكان منقوشًا على «فانلة الاستحمام» العبارة التالية: «لقد كسبت أميركا الحرب» ونادى الصديق على صاحبه الإنكليزي محذرًا إياه من سمك القرش. فرد عليه الإنكليزي وهو يشير إلى الكتابة المنقوشة على الفانلة قائلاً: «لست أخشى شيئًا. فليس هناك سمك يرضى أن يبتلع مثل هذا الكلام».

■ وفي أثناء الحرب العالمية الثانية راجت قصة تقول إن أميركيًا كان على وشك الاستحمام على شاطئ ميامي وكان يرتدي فانلة استعارها من إنكليزي ولما حذروه من سمك القرش مضى قائلاً: «لا تقلقوا فليس هناك سمك يرضى أن يبتلع مثل هذا الكلام» وأشار إلى كتابة على الفانلة تقول «سوف تكون هناك بريطانيا دائمًا».

إن هذا الضرب من الشائعات هو الذي أطلق عليه بيساو اسم «الشائعات الغائصة» حقيقة وليس مجازًا. فقد غاصت القصة في أعماق المحيط الأطلسي لتظهر في الجانب الآخر منه في قارة أخرى بعد جيل من الزمان. وفي خلال غوصها قلبت اتجاه الفكاهة التي تحتويها ووضعت ضحية مكان ضحية أخرى.

وتعتمد كل الشائعات الغائصة على تكرار الأحوال السيكولوجية، فالأحوال في شائعة تتشابه مع الأحوال الأخرى. فكان من نتيجة تحالف البريطانيين مع الأميركيين أن أصبح محتمًا أن يعيشوا معًا في مناسبات عديدة. وحتى الأفراد الذين لم يكونوا يستشعرون الحب نحو الفريق الآخر بسبب تحيز كل فريق لبلاده كانوا مجبرين على الاشتراك معًا في أوجه نشاط واحدة. وترمز استعارة لباس الاستحمام إلى هذه الفكرة ـ فكرة الاتصال الوثيق والصداقة ـ التي تنكرها الشائعة. ومن بين ما تتسم به هذه القصة أنها تعكس هذه الحالة المزدوجة من العلاقات بين البلدين المتخالفين: عداء وصداقة.

وتعتبر هذه القصة من النوع «العدائي» وإن كان عنصر العداوة فيها ليس حادًا. والعاطفة التي تعبر عنها ليست الكراهية نحو الفريق الآخر قدر السخرية من غروره والمنافسة التي بينهما. وعلى عكس معظم الشائعات الأخرى فهذه الشائعة بها فكاهة ـ ولولا أن فكاهتها هادفة لما عاشت لأن درجة أهميتها تافهة ـ نسبيًا ـ للرواة.

غير أن ما نشير إليه هو أن الظاهرة الفكاهية تبرز في هذه القصة لدرجة أننا نجد أنفسنا على حافة «الشائعة». فالقارئ الفطن قد يقول:

«إن هذا لا ينطبق عليه تعريفنا السابق «إن الشائعة قضية للتصديق». المفترض بمن يستمع إلى هذه القصة أن يضحك «لا أن يصدق». فليس هناك خط فاصل بين الشائعات والفكاهة. ولو أن الثانية تميل إلى الخيال بينما تميل الأولى إلى الجدية، ولكن في هذه القصة ـ كما في كثير غيرها ـ نرى الخيال يعبر عن العداء الحقيقي تحت ستار الفكاهة ـ فراوي القصة يقول بطريقة تقييمية تخيلية: «يا لهم من بلهاء هؤلاء الأميركيون أو البريطانيون مغرورون!» والحقيقة أن هذه القصة وإن كانت لا تعتبر شائعة بكل ما في هذه الكلمة من معنى إلا أنها تسلك مسلك الشائعة[7].

والبحث في سيكولوجية الدوافع يقودنا إلى نتيجة مماثلة لدوافع الشائعة، فمعظم الذين يعملون على ترديد النكتة السياسية وتسويقها لا

دافع لهم سوى التنفيس عن كبتهم والترفيه عن أنفسهم واستطرادًا عن رفاقهم أي مستمعيهم وإعطاء الأهمية لشخصهم في محيطهم.

النكتة والشائعة شقيقتان أو قرينتان مصدرهما واحد ودوافعهما واحدة.

وقد تستخدم هذه أو تلك كأداة للتعبير عن شعور الفرد الخاص دون أن يفصح الراوي صراحة عن كنه شعوره. فالشخص الذي تسيطر عليه فكرة الجنس مثلاً لا يعترف بهذه الحقيقة صراحة، ولا حتى لنفسه، ولكنه لأتفه الإثارات يندفع في رواية الفكاهة الجنسية، أو يلجأ إلى التحدث عن الفضائح الجنسية.

من هنا يمكن القول إن النكتة السياسية تنتشر في مجتمع يستسيغها ومعظم المجتمعات في العالم تتقبلها وتستسيغها وتساعد على انتشارها ولو بنسب متفاوتة، تنتشر لأنها تؤدي وظيفتين متلازمتين. **الأولى** تغيير مظاهر التوتر العاطفي التي يشعر بها الفرد، **والثانية** التخفيف من هذه المظاهر.

والنكتة السياسية كالشائعة تنتشر عن طريق الجمهور فهي تعيش منه وعليه. إنها تؤثر على الأفكار وتضبط مجالات نشاطه. ولكن بينما ينمو الرأي العام ببطء فإن كثيرًا من الفكاهات تخرج فجأة بصورة غير متوقعة، وتنتشر كالنار في الهشيم.

ومن هنا يمكن أن نطلق عليها «الرأي العام الطارئ» حيث نجد أن الوصول إلى إجماع عام قد تمّ في غمضة عين دون حاجة إلى القيام بعملية مجهزة من عمليات التقييم كما في حالة الرأي العام.

ولكن كلا النوعين يرتفع إلى درجة هامة في حياة الشعب، وكلاهما وسيلة للتنفيس عن الطاقة الكامنة، وكلاهما من وسائل العرض وسبل له، كما أنهما يؤثران على الجو المحيط بالبيئة والمجتمع.

غير أننا لكي نوضح أن النكتة يمكن استخدامها كدليل للرأي العام يجب علينا أن نحدد مظاهرها، وهذه المظاهر تأخذ في العادة ثلاثة أشكال هي:

إعداد الذهن، حدة النكتة، استيعابها.

والنكتة كالشائعة تحاول عند انتشارها أن تعدّ أذهان الناس، وهي في هذا المظهر تكون قصيرة واضحة سهلة الفهم والإلقاء، وتستخدم القليل من الكلمات والمعلومات كما تقل فيها التفصيلات.

وغالبًا ما يحرص من يروي النكتة السياسية خاصة على عدم التعليق عليها وعدم تأييده لمحتواها أو مغزاها، وهذا ما يعفيه إلى حد بعيد من الشعور بالمسؤولية، كما أن ذلك يعطيه فرصة لتطوير «الحكاية» بأن يزيد بعض التفاصيل التي تجعل «حكايته» مشوقة قابلة للتداول. ويقول علماء السيكولوجيا الجماهيرية إن الإنسان غالبًا ما يتهكم على نقيضه. فالفقير يتهكم على الأغنياء والمتعلم على الجاهل والكريم على البخلاء.. إلخ.

ومن الناس من يتهكم على مثله ليقنع سامعه بأنه ليس من هذه الفئة من الناس تنفيسًا عن عقدة نفسية تؤرق مضجعه. ومهاجمة الشيء الذي يكرهه الإنسان ولو كان داخله يسري عنه ويبرر شعوره نحو موقف ما ويفسر لنفسه وللآخرين ملابسات شعوره ودوافعه.

لقد قام العديدون من خبراء الحرب النفسية بدراسات تجريبية عن كيفية انتقال الشائعة وعن التغييرات التي تحدث لها أثناء انتقالها من شخص لآخر فوجدوا أن جزءًا كبيرًا من مادتها يتغيّر كما تسقط بعض تفاصيلها إلى درجة ملحوظة مع أنه كثير ما يزيد رواتها عليها.

فالانفجار الذي أدى إلى مقتل أربعة عناصر، وهو شائعة أصلاً، تتعاظم نتائجه ليصبح عدد الضحايا عشرين مثلاً، لأن الراوي يزيد شيئًا من عنده لإضفاء الأهمية على ما يروي.

ولم تحظَ النكتة السياسية سوى بالنذر اليسير من الدراسات السيكولوجية رغم أنها تسير في موازاة الشائعة ورغم تأثيرها في الرأي العام. وفي بلد كمصر حيث تعتبر النكتة فيه، أية نكتة، أسرع وسيلة إعلامية وخاصة إذا كانت تتعلق بالسياسة أو بالجنس، يرى المراقبون أن آثارها كانت جلية في التاريخ المصري الحديث لجهة زعزعة الثقة في الحاكم وتفكيك هيبته. وقد عزا **صلاح نصر** في كتاب «الحرب النفسية»

أصول النكتة السياسية في مصر أيام حكم الرئيس عبد الناصر إلى الاستعمار وأعوانه حيث قال:

«ولقد قام الاستعمار والرجعية بترويج كثير من الشائعات العدائية ضد نظام الحكم في مصر في شكل نكات بذيئة، وتضافرت جهود أعداء الوطن على نشرها بين الناس، وهذا النوع من القصص يطلق عليه اسم «الفكاهات ذات المأرب» بدلاً من أن يصرح الرجعي أو الانتهازي بأنه يكره النظام، يلجأ إلى رواية هذه النكات التي تعبر عن أمانيه الشريرة»[8].

ويتابع قائلاً في الموضوع عينه:

«ومن الغريب المخزي أن هناك سفارة أجنبية في القاهرة كانت تستخدم النكات كوسيلة من وسائل الحرب النفسية علينا، وكان بها قسم خاص وظيفته بثّ الشائعات وترويجها في شكل نكات يساعدها في ذلك شرذمة من الخونة والمأجورين»[9].

إلى أن يحذر رئيس المخابرات السابق الشعب المصري من سماع النكات أو روايتها.

«إن كل مصري حر يجب أن يضع في ذهنه أن مثل هذا النوع من النكات لا يهدف إلى التسلية ولا إلى الضحك، إنما يحمل بين طياته رغبات العدو وأمانيه لتفتيت عضد الجماعة، وبثّ الفرقة بين أبنائها وهز الثقة في قادتها والمسؤولين»[10].

والسفارة الأجنبية التي لم يشأ صلاح نصر ذكرها في كتابه لم تكن سوى السفارة الأميركية وقد سماها الرئيس عبد الناصر في إحدى خطبه. واعترف بهذه الواقعة كولونيل أميركي أمام كاتب هذه السطور[11] عندما اختار مصر ليقدم بها أطروحته عن الحرب النفسية.

والواقع أن النكتة السياسية تلعب دورًا في التأثير على معنويات الشعب وإن اختلفت درجة تأثيرها تبعًا لنوعها وطرافتها ودقة إصابتها والدوافع التي تكمن خلفها. فالرئيس عبد الناصر مثلاً كما ذكرنا ونذكّر، الذي عرف بنزاهته وبعده عن ملذات الدنيا لم يتعرض بشخصه لأية نكتة جنسية أو أخرى تتعلق بالفساد أو تعاطي الحشيش مثلاً. واقتصرت النكات التي سادت في عهده على وصفه بالديكتاتور، وكان التركيز على أجهزة القمع في نظامه أكثر منه شخصيًا ولم ينجُ أنور السادات وقبله المشير عبد الحكيم عامر من نكات أصحاب الكيف. ولم تتعرض زوجة عبد الناصر التي عرف عنها ابتعادها عن الحياة العامة لأية نكتة بينما طالت النكات «الجنسية» زوجة السادات نظرًا لجمالها وسلوكها الاجتماعي المتحرر.

والنكات الجنسية هي من أخطر النكات على الإطلاق لما تتضمن من إهانة ومن تشهير ومن افتراء واضح في أغلب الأحيان وخاصة إذا كان من أهدافها زعماء وقادة ورغم أن الكثيرين من الناس يخجلون من سماعها فكيف من روايتها؟

وتهدف «نكات الجنس» التي تجعل رجال السياسة محورًا لها النيل من سمعة هؤلاء عن طريق القدح والذم بهم مع الاطمئنان إلى وجود من هو مستعد لترداد هذا القدح مجانًا.

ويرجع الدافع الذاتي الأساسي لإطلاق هذا النوع من نكات الجنس إلى ما حبسناه من حياتنا الجنسية في الغرفة الخلفية من عقولنا واصطلح على تسميته «الكبت». فنحن حينما نهاجم فئة من الناس بترويج نكات من هذا النوع ضدهم فإن الدافع الذاتي يكون في أعماق نفوسنا ويعكس رغبتنا الكامنة. نحن نحب أن نظهر محترمين أمام الناس فنتظاهر بأننا نخالف تلك الفئة المنحلّة التي تسيطر عليها فكرة الجنس، ولذا فنحن نحاول أن نستمتع سرًا بما تقوم به تلك الفئة بتصديق ما يقال عنها وترديده لا سيما إذا اتسم بالطرافة.

وكلما كان المجتمع مقفلاً كان الجنس عاملاً هامًا في حياة أفراده

بحيث يشغل جزءًا ضخمًا من تفكيرهم. ويحاول أفراد المجتمع أن يعوّضوا عن كبتهم الجنسي إما بالنكات المكشوفة، وإما بترك خيالهم ينسج من القصص ما يروي ظمأهم العاطفي ويفسر رغباتهم الدفينة. وليست جميع نكات الجنس بذيئة أو مؤذية ومنها ما يؤلم ولا يترك جرحًا. وهذا ما يتقبله الناس لطرافته.

وقد عُرف العراقيون أكثر من غيرهم بنكات الجنس المرتبطة بالسياسة رغم أن العراق كما ذكرنا سابقًا لم يشتهر يومًا بالحس الظرفي أو بالروح الدعابية إلا أن السمة التي ميزت لهجة العراقيين هي القذف والشتم والبذاءة[12].

■ وهنا يروى أن مطربة لبنانية معروفة سافرت مع زوجها إلى العراق وسألها موظف الأمن في المطار عن صنعتها، فقالت فنانة. وعاد إلى السؤال، إيش يعني فنانة؟ فقالت إنها تغني على المسرح وترقص أحيانًا... فأشار إلى زميله بأن يكتب: قحباء وعاد ليسأل زوجها عن عمله ولما أجاب بأنه زوج السيدة... أمر العراقي زميله بأن يكتب: قواد القحبة. ومن روايات العراقيين، أن أحد الوزراء أخذ يومًا على رئيسه إغلاظه بالشتم واستعمال التعابير البذيئة.. فأجاب معتذرًا بعبارات أكثر بذاءة!

وقد عرف العراقيون أنهم كثيرًا ما يعبرون عن إعجابهم بسياسي أو زعيم بعبارة «ابن قحبة». ويشابهون بذلك أهالي زحلة في لبنان الذين يُروى أن سائق سيارة أجرة منهم كان ينقل مسافرين من زحلة إلى بيروت ومنهم «وبينهم راهبة» وحيث تضايق السائق من أحد المسافرين الذي أدان هذه الحالة وهذه الدنيا قائلاً:

أخت هالحالة.. إلخ. فانبرى السائق قائلاً له..

... هيك بيحكوا قدام الماسَير (أي الراهبة).

ونكات العراقيين السياسية الجنسية شحيحة حاليًا بسبب عنف النظام

وعدم استساغته للمزاح ومع ذلك فقد تسرب البعض منها أو أنها انطلقت من خارج القطر. وأطرفها:

■ «إن صدام حسين رغب مرة بتزويج أخته العانس فوجد لها شابًا من كبار موظفيه، وبعد إقامة حفلة الزفاف وفي ليلة «الدخلة» سأل العريس عروسه بكل احترام وخجل إذا كانت ترغب بشيء وابتعد عنها ونام في زاوية الغرفة وهكذا طيلة ستة أشهر.. حتى تسرّب الخبر إلى أهل العروس وبدأ الحديث بأن الرجل عاجز جنسيًا، وهنا استدعاه صدام سائلاً إياه بحدّة:

إنت تشكي من علة جسدية؟

ـ لا يا سيدي.

تشكي من علّة نفسية؟

ـ أبدًا سيدي.

فبدأ صدام يشرح لصهره بأن الزواج على سنة الله ورسوله إلخ...

فطلب الرجل الأمان قبل الجواب فذهل صدام لتصوره بأن العلّة من أخته وسأله بأن يحكي.

فقال: سيدي في بغداد اللي يفتح تـمّه تذ... أخته! شلون اللي يذ... أختك؟

ولنا عودة إلى العراق في الصفحات المقبلة.

النكتة في لبنان

تعتبر الطرائف التي يتداولها الناس عادة في مجالسهم الخاصة بمثابة فسحة فكرية يروِّحون بها عن أنفسهم لغسلها من الهموم التي تغلفها. فالضحك، كما هو معروف يسمح لنا بتخزين كميّة من النشاط داخلنا، يعطينا فيما بعد قوة إضافية للانطلاق من جديد إلى عالمنا المرهق.

واللبنانيون كغيرهم من الشعوب، يجدون في النكتة وسيلة للاسترخاء، وطريقة فعّالة للتخلّص من موجات الاكتئاب التي تنتابهم أحياناً، لذلك عُرف عنهم تعلقهم الشديد بتداول أحدث النكات.

النكتة «دواء للكآبة، وغمز من قناة السياسة». وتقول الصحافية **فيفيان حداد**:

> الواقع أن للطرفة رجالها وأربابها، فمن يجيد روايتها فهو فنان، إذ يجب أن يتمتع بمجموعة من القدرات.
> بدءًا من القدرة على الإلقاء مرورًا بخفة الدم، ودماثة الخلق فكم من مرَّة سمعنا الطرفة نفسها من شخصين مختلفين، ضحكنا لأحدهما، وبالكاد ابتسمنا للثاني.

وفي لبنان أكثر من شخصية اشتهرت بظُرفها، وذاع صيتها حتى وصلت أخبارها إلى العالم العربي، أمثال **آل الخازن** المنحدرين من منطقة جبل لبنان، وعلى رأسهم «فيليب ورشيد الخازن»، وهما كاتبان صحافيان قديمان أشاعا المرح بين الناس وساهما في إيصال البسمة للآخرين.

فالنكتة الخازنية كانت جزءًا لا يتجزأ من السياسة اللبنانية، مارس أصحابها العمل الوطني، فكانوا أعضاء بارزين في البرلمان والحكومات المتعاقبة، فنقلوا النكتة إلى الحقل السياسي، مما خفف من الحدّة التي كانت تتسم بها تلك الحقبة الممتدة من عهد المتصرفية حتى الانتداب الفرنسي على لبنان.

وعرفت النكتة الخازنية باللمحة الخاطفة والإيجاز البليغ. إذ كان آل الخازن يرتجلونها في لحظاتها ولا يتورعون عن التنكيت مع الناس وعلى الناس، وحتى على أنفسهم حين يتطلب الموقف، حتى لو كان حزينًا. ويحكى أن الشيخ يوسف الخازن توفي في مدينة روما حيث نفي

إليها في الحرب العالمية الثانية، وهو على سرير مرضه الأخير، وعاده طبيب إيطالي لبناني المولد، وقرر إجراء فحص دم له ليحدد الدواء المناسب، فالتفت إليه الشيخ يوسف وقال له بصوت خافت: «بشرفك يا دكتور مارديني هل تريد أن تسحب مني دمًا لتفحصه أم لتزنه؟».

والمعروف أن النكتة، هي تمامًا كالشعر والأدب والموسيقى والرسم، فن تعبيري بحد ذاته، فيه من الأبعاد والشفافية والجمالية ما يضعها في مصاف هذه الفنون. ويُعتبر عمر الزعني أحد روّاد الطرفة في لبنان، وقد طوّرها ليحولها إلى مونولوج يحكي متاعب الناس، وينتقد أعمال السياسيين. وكان الزعني لاذعًا يهابه السياسيون ويخافون من سطوة لسانه، فيحسبون ألف حساب لانتقاداته، وقد ذاق الأمرّين منذ أيام الحكم العثماني وحتى الانتداب الفرنسي لعدم رضوخه لنصائح السياسيين بضبط لسانه. ويُحكى أن سعر الفرنك الفرنسي في تلك الحقبة شهد هبوطًا ملحوظًا، فأطلق بالمناسبة أغنيته المعروفة: «يا فرنك يا فرنك حاسب» انتقد فيها الاقتصاد الفرنسي المنتدب ساخرًا، ما حرمه من دخول امتحانات نهاية السنة الجامعية، ونيله شهادة الحقوق في الجامعة اليسوعية. وبعد ذلك جرى نقله من مقر عمله في بيروت إلى البترون (شمال لبنان) بقرار صادر عن رئيس الجمهورية في ذلك الوقت شارل دباس.

نكات موسمية وخفيفة

والنكات أنواع، منها السياسية ومنها الاجتماعية أو الموسمية أو الخفيفة، وكلها تهدف إلى رسم الابتسامة على ثغر سامعيها، وهنالك أيضًا النكات المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بكاريكاتيرات معينة، كتلك المبتكرة حول شخصية أبو العبد مثلاً، أو التي تتناول أهالي منطقة بعينها.

رؤساء مولعون بالنكات

يبدي السياسيون اللبنانيون حرصهم على سماع أحدث النكات في

البلد، والرئيس الراحل رشيد كرامي كان من أرباب النكتة السياسية، يخلقها ويرويها دون أن يضحك. كذلك الرئيس سليم الحصّ الذي يضحك ببراءة الطفل عند روايتها وعند سماعها، ويحكى أن الرئيس الراحل الياس سركيس كان مولعًا بالنكات البيروتية العريقة. أما الرئيس الراحل كميل شمعون فكان أفضل من «نكّت» وأثار الضحك من حوله. فيما يعتبر الرئيس الراحل الياس الهراوي صاحب سرعة بديهة في إطلاق النكتة.

ويروي المقربون منه أنه من الصعب الجلوس في حضرته من دون التطرق إلى مواضيع ضاحكة بعضها يستحدثها بنفسه.

وتعتبر النكتة ظاهرة من ظواهر الفكر عند الشعوب، وملمحًا من ملامحهم وتنم عن خصوصياتهم وعاداتهم. وهي نوع من التراث الذي يتعرف عليه الأبناء عبر أهاليهم، فيضمن تقليدًا يتداولونه أبًا عن جد..

والجعبة اللبنانية لا تخلو أبدًا من روح النكتة. ففي كتاب **النكتة اللبنانية** ـ للدكتور **أنيس فريحة**:

■ «قال خوري الضيعة للمصلين: هلق أنا راعيكم، وبتعرفوا شو بيعمل الراعي بالغنم؟
فرد أحد المصلين: بيجزّلن صوفن!».
أما النكتة التي أصبحت مثلاً.. وكثيرًا ما يرددها الناس وهي «بق البحصة» فما هي قصتها يا ترى؟

■ قيل إنه كان لأحد المطارنة خادم مغرم بكيل الشتائم، وكان المطران ينهاه عن ذلك، فيعتذر بقوله: هي عادة يا سيدنا تملكت فيَّ فلا أستطيع منعها. فأعطاه المطران حصاة صغيرة ليضعها تحت لسانه حتى إذا غضب يتذكر نصيحة سيده فيمتنع عن التفوّه بما لا يجوز.. نجحت عملية المطران ومرت على خادمه أنطون أيام عديدة لا ينطق بكلمة قبيحة. وفي أحد الأيام كان المطران والخادم مسافرين وإذا بامرأة تصيح من فوق تلّة «دخيلك يا سيدنا حوّل من

هنا.. حوّل من هنا..» فقال أنطون: دعها يا سيدنا فإن الطريق صعبة المرتقى لا تستطيع أن تسلكها الخيل. فأجاب المطران: إن الواجب الديني يا ابني يقضي علينا بالذهاب إليها مهما كلَّف الأمر...، وعليه ترجل المطران وخادمه وتركا فرسيهما في الوادي وأخذا في الصعود بين الصخور والأدغال والأشواك.

وبعد شديد العناء بلغا قمة الجبل حيث مزرعة صغيرة فأقبلت عليهما المرأة بلهفة.

فسألها المطران وهو يلهث والعرق يتصبب من جبينه: ما هي حاجتك يا ابنتي لنقضيها لك؟ فأجابت: وضعت يا سيدنا البارحة، عددًا من البيض تحت دجاجة. فأريد من سيادتك أن تبارك لي القرقة (الدجاجة) بفشخك فوقها لكي تفرخ بيوضها كلها.

فلما سمع المطران ذلك أخذته حدة الغضب والتفت إلى الخادم وقال له: بق البحصة يا أنطون...!

وسواء بق أنطون البحصة أم لم يبقّها طلعت النكتة حلوة من المطران وعليه وإن كنا نحن اللبنانيين كلنا أنطون صاحب البحصة، يبقى علينا دائمًا أن نضحك وأن لا نخاف من «الشردوقة» لأن بحصتنا من النوع الذي لا يتزحزح، لا بقحة ولا ببحة ولا بضحكة.

وإذا كانت التناقضات هي من أساس النكتة الناجحة كما يُجمع العلماء فنحن خير الضاحكين بلا منازع أمام الوضع العام المشبع بالشيء ونقيضه في آن واحد.

ولذلك «اضحكوا قبل ما يغلا الضحك» وقولوا الله ينجينا من شر هالضحكات؟!... ورحم الله وسيم طبارة صاحب هذه المقولة والتي جعلها عنوانًا لإحدى مسرحياته.

هوامش

1 ـ خصلة تجعل الإنسان يرتاح إلى الأعمال الحميدة وبذل العطايا.

2 ـ الاهتزاز ـ من اهتز إلى الشيء: ارتاح له.

3 ـ «جمع الجواهر»، للمصري، ص 212.

4 ـ يعتبر القدامى الجاحظ مؤسسًا للبيان العربي، ويعدون كتابه «البيان والتبيين» أول كتاب عربي أدبي.

5 ـ لقاء مع العماد مصطفى طلاس في مكتبه في دمشق في نيسان/ ابريل 1999. برفقة القاضي نصري لحود.

6 ـ صلاح نصر «الحرب النفسية»، الصفحات 338 ـ 339.

7 ـ المرجع السابق، صلاح نصر.

8 ـ صلاح نصر، «الحرب النفسية» ص 341.

9 ـ المرجع السابق.

10 ـ المرجع السابق.

11 ـ كان المؤلف يتبع دراسات في الحرب النفسية في فورت براغ في كارولينا الشمالية سنة 1979.

12 ـ خالد القشطيني، «السخرية السياسية العربية» ص 110.

الفصل الخامس

المسرح والتلفزيون

المسرح والتهكم السياسي

المسرح أو «المرسح» هو قديم في بلادنا قدم التاريخ حيث يؤكد الكاتب الفيلسوف **سعيد عقل** «أن كلمة مرسح» بالحرف تمامًا تجدها في الأدب الفينيقي. وما أروع ما يذكرنا ذلك بأننا قبل الأغارقة بأكثر من ألف سنة كان لنا «مرسحنا».

لقد عرف لبنان كما عرفت مصر المسرح منذ زمن بعيد وقد عرف المسرح أوجه عصره الذهبي منذ العشرينيات أي قبل بلوغ السينما سن الرشد فكان في **بيروت مسرح فاروق** الذي غيّر اسمه بعد ثورة الضباط الأحرار عام 1952 إلى مسرح التحرير وكان هنالك **مسرح التياترو الكبير** وغيره. كما عرف لبنان عددًا من الفرق المسرحية التي كانت تجوب المناطق لتقديم مسرحيات درامية أو كوميدية مقتبسة أو معرّبة، وقد عرفت مسارح القاهرة انتشارًا ونجاحًا كبيرين بين الحربين.

أما المسرح السياسي فلم يعرفه لبنان بمعناه الحقيقي إلّا في منتصف الستينيات مع **مسرح شوشو** في سينما شهرزاد في بيروت. . .

وعندما توقف هذا المسرح بوفاة صاحبه خلال أحداث حرب السنتين، أخذ المسرح السياسي في لبنان قيلولة طويلة وراح في سبات عميق.

وبعودة قصيرة إلى البداية نجد أن المسرح السياسي في لبنان اعتمد الواقعية وقام بتصوير العلاقات الإنسانية بين الحاكم والمحكوم بطريقة كاريكاتورية مبالغة تظهر تسلط الحاكم وضعف المحكوم.

وتعدّت الحركة المسرحية في لبنان حدود هذا البلد إلى المنطقة العربية بأسرها وخاصة البلاد العربية القريبة والعرب المقيمين والزائرين،

فظهر الفلسطيني اللاجئ والمقاوم، والخليجي الزائر والمصطاف ثم تطرّق إلى الخلافات السياسية العربية على أرض لبنان. وهكذا فإن المسرح السياسي اللبناني كان يدور حول محورين محركين.

المحور الأول: اكتشف أفراده أهمية النظرة السياسية وصاروا يستخدمونها في سبيل تحقيق الواقع وربطوا مصيرهم الفني والعملي بمصير هذه المنطقة وعكس هذا المصير على المسرح[1].

ولما كانت السياسة جزءًا من الواقع، فقد أدى تصوير الواقع بالضرورة إلى تصوير الواقع السياسي كجزء من العلاقات البشرية.

وهكذا يصبح المسرح السياسي بمعناه الشامل هو المسرح الواقعي، وبصورة أخرى يصبح المسرح الواقعي هو المسرح السياسي باعتبار أن واقع العلاقات البشرية خاضع للأوضاع السياسية.

وقد تابع هذا التيار الواقعي الطليعي تطوره حتى توصل سنة 1969 ـ عبر مسرحية رائد هذا التيار في لبنان جلال خوري «جحا في القرى الأمامية» ـ إلى كشف الأوضاع الاجتماعية عبر الأفراد وكشف الأفراد عبر العلاقات الاجتماعية في لعبة ديالكتيكية فنية رائعة فهزَّ ضمير الجمهور المسرحي بهذا الكشف الذي يعتبر من أخطر ما أثاره عمل فني في لبنان حتى الآن. ويقول الدكتور فاروق الجمال في كتابه «شوشو»:

«إن توصل المسرح الواقعي إلى كشف الأوضاع الاجتماعية أمام الجمهور بمثل تلك البساطة سيؤدي إلى الكشف أمام الجمهور عن صورة الظلم الاجتماعي الذي تمارسه الطبقة السائدة في الواقع، وعن حقيقة الدور الذي تلعبه الطبقة الحاكمة في حياة البلاد وعن الأسباب التي تدفع الإنسان إلى هذا الموقف أو ذاك، وعن واقع البائسين وبؤسهم وعن قدرتهم على التخلص من بؤسهم والطريق إلى إلغاء البؤس، وجميع هذه الصور والعلاقات موجودة في العالم الطبقي.

هذه الصورة تخشاها الطبقة المسيطرة لأنها تخشى الحقيقة، وأن

يدركها الناس لأنهم إن أدركوها يكونوا قد خطوا الخطوة الأولى في طريق الخلاص منها.
والمسرح الواقعي بهذه البساطة المتناهية قد أصبح يشكل خطرًا تخشاه الطبقة المسيطرة ويخشاه الفنانون البرجوازيون».

ويعتقد الكثيرون من العاملين في «الحرب النفسية» أن للمسرح تأثيرًا كبيرًا على نفسية الجماهير لأن الأفكار التي يبثّها يمكنها أن تتجسَّد بالجماهير وتؤثر على معتقداتهم وبالتالي على سلوكهم.

إلا أنه وأمانة للتاريخ لم يكن وراء «شوشو» أو نبيه أبو الحسن كما سنرى أية جهة حزبية أو سياسية بل إن كليهما شعر بهموم الناس وآلامهم واستشعر آمالهم فحاول أن يعرض صورة عن الواقع وعرض تناقضات الوضع الاجتماعي دون أن يعطي حلًا للمسألة المطروحة.

والواقع أن المسرح هو فن تشخيص الحياة وليس هو الحياة بحد ذاتها والمسرح السياسي في لبنان قام بعرض وإبراز «المدينة الفاسدة» ولم يحاول يومًا أن يعرض على المشاهد كيف تكون «المدينة الفاضلة».

وما يميِّز المسرحية عن الرواية القصصية أو الصورة أو المقال أو النكتة هو **التشخيص**. أي اتخاذ نفر من الناس لشخصيات، أو سمات، أو طبائع، أو ذوات غير شخصياتهم أو سماتهم، أو طبائعهم أو حركاتهم، ويختلف هذا التشخيص عن محاولة امرئ ما أن يرتدي رداء إنسان آخر فيقوم بتقليده بإبراز العيوب، وهنا يتشابه مع الرسم الكاريكاتوري في هذا المجال.

وبقدر ما كان المسرح السياسي محايداً أو على الأقل مظهراً لهذا الحياد، بقدر ما كان ناجحًا، لأن الالتزام الحزبي أو الأيديولوجي في المسرح يحدّ حتمًا من حرية الإبداع المسرحي وقيمة هذا الإبداع.

وقد مرّ المسرح السياسي في لبنان **بثلاث مراحل**... **مسرح قبل الحرب** التزم الحرية فأبدع، ثم **مسرح سني الحرب** عندما انقسمت

بيروت إلى شرقية وغربية فالتزم المسرحيون من حيث لا يدرون سياسة الأمر الواقع في مناطقهم فتحزبوا، فكان مسرح الشانسونييه لوسيم طبارة في المناطق التي كانت تسيطر عليها قوى اليمين متعاطفًا معها، كما ظهرت السمة اليسارية على أعمال زياد رحباني في بيروت الغربية. وهنا وبالمناسبة نذكّر من ادعى بأن حرب لبنان الأهلية كانت طائفية بأن زياد رحباني كان ولا يزال مسيحيًا ووسيم طبارة ولد مسلمًا ولم يزل.

مسرح الرحابنة

يمكن أن تتفاوت آراء الناس وتختلف تجاه فنان ما. إلّا أن الأكثرية الساحقة من اللبنانيين والملايين من العرب يرون في الأخوين رحباني والفنانة فيروز مدرسة فريدة في حد ذاتها في مجال الأغنية العربية والمسرح الغنائي العربي.

لا يمكن اعتبار مسرح الأخوين رحباني مسرحًا تهكميًا رغم أنه يبرز أحيانًا موقفًا أو يمرِّر عبارة تهكمية ضاحكة. لذلك ورغم الأهمية الكبرى لهذا المسرح لا يسعنا التوقف طويلاً عنده لأنه خارج عن موضوع بحثنا. بعكس مسرح زياد رحباني. الذي يعتبر في نظر الجميع حالة مستقلة خاصة ومنفصلة عن مسرح الرحابنة الأهل لاختلاف مسرح زياد أسلوبًا وفكرًا وفنًا عن مسرح أهله بالإضافة إلى الظروف الوطنية والسياسية التي أحاطت بكل من المسرحين.

قامت مؤسسة الأخوين رحباني وترعرعت في العهد الشهابي[2] مستفيدة من بعض الأجواء الديمقراطية التي أتاحها هذا النظام فكان دورها إصلاحيًا وطنيًا حيث ساهمت بالمجهود الذي بذله النظام الشهابي من أجل تحقيق الوحدة الوطنية على أثر فتنة 1958 لدمج الطوائف المتنافرة ومد يد السلطة المركزية إلى كل المناطق اللبنانية.

أما مسرح زياد رحباني فقد قام على أسس مختلفة وفي ظروف مغايرة. لقد كان للحرب الأهلية 1975 في لبنان الأثر الكبير في انطلاق هذا المسرح ونموه وازدهار تجربته.

يضاف إلى ذلك اختلاف الشكل الفني والمضمون الأيديولوجي، إذ على النقيض من مسرح أهله، تناول زياد القضايا السياسية والاجتماعية بنقد جدّي جارح يشوبه التهكم والسخرية.

فزياد المسيحي ذو الميول اليسارية وجد نفسه في سياق المدّ الطائفي في موقع لا يحسد عليه فانعكس تمرده وتنكره لهذا المد على خشبة المسرح.

لقد سخر زياد من النظام اللبناني بأسره حيث رأى في مسرحية «بالنسبة لبكرا شو؟» 1977 أن أساس المشكلة هو في الطبقية والصراع الطبقي، وكذلك في مسرحية «نزل السرور» 1974 حيث يتواجد المفكر الأيديولوجي مع تاجر الخردة. ولم يخفِ زياد تعاطفه مع الحركة الوطنية الثورية في لبنان ولكن ضمن حدود التعاطف دون الانتماء. إذ إنه في مسرحيته «فيلم أميركي طويل» 1980 انتقد وسخر من واقع القوى الوطنية اللبنانية وبالتالي دخول هذه القوى الحرب العبثية دون أهداف واضحة مع الارتباط بعناصر داخلية وخارجية مشبوهة، مما أدى إلى فشل القوى الديمقراطية في تحقيق التغيير المطلوب، وهذا ما نراه واضحًا في مسرحية «شي فاشل»، عن هذه المسرحية كتب أحمد الأمين في دراسة جامعية:

■ «شي فاشل» هي «قصة بروفة» على مسرحية «جبال المجد». نور يروي قصة جبال المجد لصحافي من جريدة «السفير» فيقول: القصة هي قصة كل ضيعة عايشة بمحبة وسلام. عندهم هالكروم، هالمواسم، بيفرحوا، بيغنوا وعايشين مبسوطين مزقزقين، وفي عندهم هالجرة محطوطة بنص هالساحة وهالجرة هي كل شيء بالنسبة لهم. تصور مش معقول بيوم من الأيام يجي هالغريب يلي هو الغريب جاي من بعيد على الضيعة بيشوف الجرة.

الصحافي: وبياخدها؟

نور: بتعرفها إيه؟

الصحافي: لا مفهومة.

نور: طبعًا يلي بيصير إنو أهل الضيعة بيصيروا يشكّوا ببعضهم البعض. . . بالنهاية بتجي الصبية وبتكشف السر.

والضيعة هي رمز لبنان الواحد الذي يتعرض لعدوان الغريب ولكنه رجع إلى حالته الأولى بعد أن انكشف السر ورجعت الجرة إلى أصحابها وذلك بهمة المختار وشاويشه طبعًا، وبفضل الصبية رمز الأمل[3].

المجتمع اللبناني بمختلف شرائحه تلتقي به على مسرح زياد رحباني كما تلتقي بمختلف شرائح المجتمع في قاعة المسرح أي في صفوف المتفرجين، فبينما تضحك الطبقة البرجوازية من تهكم زياد عليها، يجد الفقير في هذه السخرية إعادة لاعتباره. وفي هذا يقول أحمد الأمين في دراسته الجامعية عن زياد الرحباني:

■ «بالنسبة لبكرا. . شو؟» هذا السؤال يكاد يكون علامة الاستفهام الفولكلورية التي يطرحها أي مواطن عربي في وجه الحياة والتاريخ والمستقبل. واللبناني يطرح هذا السؤال كضرورة قصوى لأنه التلخيص المأساوي لتردي الوضع في لبنان.

مسرحية «بالنسبة لبكرا. . شو؟» هي من المسرحيات التي أثارت بلبلة في حقل النقد المسرحي في لبنان طوال فترة عرضها فاختلفت وجهات النظر حولها، منهم من رأى أنها قمة المسرح السياسي، ومنهم من سلخ عنها الصفة السياسية. هي جيدة الشكل وضعيفة المضمون حينًا وقوية المضمون إلى درجة أن الشكل لم يستوعبه حينًا آخر. . . لكن النقد رغم الاختلافات استطاع في هذه البلبلة أن يضع يده على جوانب هامة من المسرحية التي لخصها زياد الرحباني بأنها حكاية إنسان يعيش في بلد لا مواد أولية فيه.

المسرحية هي قصة شخص يدعى زكريا ـ بارمان في مقهى «ساندي سناك» في شارع الحمراء الشهير في ستينيات بيروت ـ استدعى زوجته من القرية لتعمل معه مساعدة له على أمل أن يزداد مدخولهما المالي ويتعاونا على مصاعب الحياة وتعليم طفليهما. . ثم نفهم أن هذا الأمل

سيحتاج لكي يتحقق إلى أن تبيع ثريا (زوجته) جسدها..

ثم يبرز زياد رحباني بتهكم يداخله إعجاب شطارة اللبناني الذي يجسِّده الخواجة عدنان المنغمس في صفقات تجارية يحيكها حول الشيخ «دعفوس» الخليجي الذي يحب لبنان وبنات لبنان.

أما ما هو رأي زياد بزياد؟

يقول زياد الرحباني:

إن مسرحية «بالنسبة لبكرا.. شو» تعالج (وضع فئة من الناس غير مصنفة طبقيًا) ـ وهي فئة نموذجية تدخل في صلب النظام الاقتصادي اللبناني ـ وأعني بها العاملين في قطاع الخدمات.

هذه الفئة تتمثل في المسرحية في (الغارسون) الذي يعمل في مطعم ويعيش من جراء تقديم خدماته للآخرين، وتطوره المعيشي رهن بمدى تأمينه لهذه الخدمات. فهو إنسان غير ملتزم بحكم وضعه غير المستقر وبحكم عدم وعيه لانتمائه[4].

ويتابع الرحباني:

«هذه الشخصية أردت بها تجسيد الوضع اللبناني بصورة عامة. فلبنان هو «الغارسون» الكبير الذي يعيش من جراء تواجد الرساميل الأجنبية والعربية دونما كيان اقتصادي مستقل له، بل هو مجرد نقطة انطلاق والتقاء اقتصادي للبلدان الأخرى»[5].

كره زياد الرحباني الطائفية وأدرك أن الكثيرين من الناس ينجرُّون وراء النزعات الطائفية لافتقارهم للوعي السياسي الديمقراطي.

وعندما أدرك أن مسرحياته لم تعد قادرة على تحويل الجماهير عن الموجات الطائفية آثر التوقف عن الإنتاج المسرحي لاقتناعه بعدم جدوى المسرح مع «هكذا جماهير» كما قال.

وليس زياد رحباني الوحيد في هذه العائلة الفنية الذي اعتمد المسرح الساخر، فمروان نجل منصور رحباني والذي ظهر نبوغه الفني وهو يافع

(عرفه المؤلف في بداية حياته الفنية وهو في الثامنة عشرة من عمره وتوسم به عبقرية فنية حضارية تتماشى مع العصر دون إغفال التراث)، رغم أن مروان قد اتجه منذ البداية إلى الإنتاج التلفزيوني حيث يرأس حاليًا شركة ناشطة في هذا الحقل، فقد فاجأ اللبنانيين في بداية عام 1998 بمسرحية رائعة اعتبرت في نظر المعلقين الأولى من نوعها في لبنان لجهة ضخامة العمل وارتفاع المستوى الفني وحدة النقد السياسي وهي «آخر أيام سقراط» التي عرضت على مسرح كازينو لبنان لمدة طويلة، وقد تناولها النقاد في كل الصحف اللبنانية.

وقد كتبت عنها صحيفة «السفير» البيروتية:

«أنها مسرحية قوّالة من قوة الانحياز السياسي... ومن شكل خطابها السياسي وتشظّيه في الفصول وفوقها، في الدقائق وفوقها، في اللحظات وفوقها.. هكذا اخترقت سيرة الفيلسوف اليوناني بعشرات الإيحاءات السياسية»[6].

أما عن السخرية السياسية في المسرحية فقد سماها مروان رحباني «السخرية السوداء»[7].

وقبل أن نترك الرحابنة نرى من المفيد التنويه بكليب غنائي تلفزيوني أنتجه ونفذه غسان رحباني بعنوان: «إذا زعجك شيلو» وهو ذو مضامين سياسية جريئة، وغسان بالمناسبة هو ابن الملحن الفنان الياس رحباني الشقيق الثالث للأخوين عاصي ومنصور.

المسرح الغنائي أو الشانسونييه

شكّل انتشار عروض الشانسونييه قبيل مطلع الألفية الثالثة ظاهرة لافتة، فقد كانت حتى منتصف السبعينيات (تاريخ بدء الحرب اللبنانية) تقتصر

على عروض محددة لفرقتين شهيرتين هما:

مسرح الساعة العاشرة (التي ورثت اسمها الفرقة الحالية) و«**السيغال**» فيما كانت الفرق الطارئة نادرة. واشتهرت في هذا الميدان أسماء أبرزها «بيار جدعون» و«غاستون شيخاني» وعبد الله بنوت (دودول) وإدمون حنانيا وإيفيت سرسق، ورينيه حلو، وألك خلف، ووسيم طبارة، وطوني أيوب، ومحمد شبارو وغيرهم.

وبما أن فكرة الشانسونييه فرنسية المنشأ، فقد كانت العروض مطعّمة دائمًا بالفرنسية، لغة ونكتة ومضمونًا وحتى أداءً. أما اليوم فالشانسونييه باتت ملبننة إلى حد بعيد، واستغنت عن الكثير من المقومات الأساسية الخاصة بها. لكن عروضها ازدهرت وشهدت أوج انتشارها.

وسيم طبارة ومحمد شبارو
«اضحكوا قبل ما يغلى الضحك»

فرقة الشانسونييه التي تضم وسيم طبارة ومحمد شبارو، والتي احتفلت في العام 1994 باليوبيل الفضي لتأسيسها، لا تزال تقدم عروضها، ولو أن محمد شبارو تركها بعد ربع قرن ليؤسس مقهى أبو العبد البيروتي الذي يقدم اسكتشات سريعة ينتقد بها ويسخر بلهجة ابن بيروت الأصيل ولباسه التقليدي.

وقد واكب الثنائي طباره وشبارو الأحداث السياسية في مسرحياته وسرق الحزن من قلوب الناس، ووضع مكانه الضحكة والابتسامة. ومسرحيات هذا الثنائي كانت دائمًا انتقادية سياسية واجتماعية مدتها ساعتان، وتتضمن بين 15 و18 لوحة، تتخللها أغان سياسية تهكمية. فـ «اضحكوا قبل ما يغلى الضحك»:

تبدأ بأغنية الافتتاح، ومن ثم تقدم لوحة عن مشكلة اجتماعية حصلت وتُعرض بطريقة الدراما، ثم اللوحة نفسها تعرض بطريقة الميلودراما ثم بطريقة الكوميديا.

واللوحة الثانية، عن الغلاء، ولكن ليس غلاء الأشياء، بل غلاء الضحك الذي أصبح اليوم يخضع لضريبة.

واللوحة الثالثة، المناظرة التلفزيونية بين الشيخ بيار الجميل، والرئيس صائب سلام، ولكن بطريقة مغايرة ومعطيات جديدة.

ثم اسكتش عن التلفزيون اللبناني وتلفزيون القوات اللبنانية المزمع افتتاحه ثم مناظرة بين الأباتي بولس نعمان، ومفتي الجمهورية اللبنانية حسن خالد. . وبدون مداخلات خارجية.

ثم اسكتش تأليف وزارة لتقي الدين الصلح في المنفى ولوحة سباق الخيل، الوحيد الذي يجمع اللبنانيين في وحدة وطنية وحوار الطرشان ولوحات أخرى ضاحكة.

المسرحية تعالج الواقع اللبناني بكل ما فيه من تناقضات بقالب فكاهي هزلي.

■ تابع وسيم طبارة مسرحياته زمن الحرب بإطار عفوي بعيد عن التجريح ساعيًا إلى انتزاع الضحكة من الناس من خلال انتقاد السياسيين والسخرية بشكل مهذب، إلى أن أطلّت بشائر السلام في لبنان بعد اتفاق الطائف فجاءت مسرحية (وآخرتها معكم) كأنه يودع قوى الأمر الواقع، التي حكمت البلد فعليًا خلال عشرين عامًا من الحروب العبثية.

وقد اشتهر هذا المسرح كثيرًا في التسعينيات بمسرحيتين خصّ بهما الرئيس رفيق الحريري.

■ فجاءت «ناموا على حريري» عام 1993 إثر تولي الرئيس الحريري رئاسة الحكومة اللبنانية، وهي تحوير للمثل اللبناني الشائع «ناموا على حرير». أي لا هموم بعد اليوم. وقد كتبت عنها الصحافية «أنطوانيت عازار»[8] تقول:

منذ أكثر من ثلاثة أشهر يستمر مسرح الشانسونييه مع وسيم طبارة ومحمد شبارو والفرقة في تقديم لوحات مسرحية «ناموا على حريري» من لوبون نهر الكلب. وقد شاهدها حتى الساعة عدد كبير من جمهور

هذا المسرح من سياسيين، ورجال أعمال، وصحافة وفن، ومجتمع. وهو يسهر ليليًا دون انقطاع. وتتابع قائلة:

ومع الاسكتشات الظريفة هذا العام يمضي الجمهور سهرته لساعتين متواصلتين مع الضحكات والقهقهات والابتسامات..

وتتابع إلى أن تقول: في «ناموا على حريري» يأخذك وسيم ومحمد إلى مطارح من حياة اللبناني، وإن هي طاولته في الصميم فإنها تضعه وجهًا لوجه أمام واقعه ويومياته الحياتية التي لا تنفصل عنه مجموعة من اللوحات واللذعات تسهر معها من دون أن تفارق الضحكة شفتيك، فيتعاطف الجمهور مع الخشبة وهذا ما درج عليه مسرح الشانسونييه وهو إشراك الناس في همومه وقضاياه وإن بقالب من الضحك والسخرية.

■ أما تحفته الأشهر فكانت «الرفيق وقت الضيق». صيف 1994 وقد تناولت الصحف مسرحيات طبارة واستعملت عناوينها مادة للكاريكاتور السياسي.

فنشرت جريدة **البيرق** في 28 نيسان 1994 رسمًا لمواطن لبناني يقول لرئيس الحكومة «خي من هلق ورايح صار فينا نقول ناموا على حرير المشاريع». وقد حضر معظم السياسيين اللبنانيين وخاصة الذين طالتهم قفشات طبارة، وعلى رأسهم رفيق الحريري الذي كتب في سجل الفرقة «لكم وأنتم الحكم» وذلك بعد حضوره مسرحية «الرفيق وقت الضيق»، فكانت هذه موضوعًا للكاريكاتور، نشرته صحيفة الديار في 11 كانون الثاني/ يناير 1994.

وعن هذه المسرحية كتبت مجلة «الشبكة» الفنية اللبنانية في 28 آذار/ مارس 1994 تحت عنوان:

«النائب باخوس على خشبة المسرح»:
ما زالت الضحكات عالية في مسرح الشانسونييه مع وسيم طبارة ومحمد شبارو وفرقتهم في «الرمال».
والطريف أن النائب أوغست باخوس كتب مقطعًا لمسرح وسيم

طبارة سماه: «الزيزي في خطر» ودعا بعض الوزراء والنواب لحضوره.
وقد لاقى مقطع النائب التقدير المصحوب بالضحك المتواصل، الأمر الذي حمل وسيم على دعوة النائب إلى المسرح، حيث ألقى كلمة أمام الجمهور، ناشد فيها جميع السياسيين الكتابة للمسرح والتعبير عما لا يقدرون على التعبير عنه في مجلس النواب.

وعن هذا الموضوع كتبت «الشبكة» في 7 شباط/ فبراير 1994 تحت عنوان: «عندما يضحك الوزراء».

إلا أن الدولة لم تكن دائمًا متسامحة وواسعة الصدر أمام النقد السياسي. ففي عهد المغفور له الرئيس الياس سركيس وتحديدًا في العام 1988، أصدرت مديرية الأمن العام اللبناني قرارًا يمنع عرض مسرحية «شي مثل الكذب» لوسيم طبارة وإيفيت سرسق ومحمد شبارو والتي كانت تعرض في مقهى «لو بون» ـ نهر الكلب.
أما أسباب المنع.. فيلخصها ناطق بلسان الأمن العام آنذاك بقوله: «إن المسرحية المذكورة تمس بشخص رئيس الجمهورية الأستاذ الياس سركيس بصورة مباشرة، وعن طريق الصوت والصورة».
وقد اعتمد وسيم طبارة في الاسكتش الوحيد والخاص برئيس الجمهورية على قدراته وخبراته الفنية في التلاعب بالصوت وبالتالي الخروج بمونتاج مركب بلسان الياس سركيس.

أعلام المسرح السياسي التهكمي

حسن علاء الدين «شوشو»

الفنان «شوشو» أو حسن علاء الدين المولود في شباط/ فبراير عام

1940 والمتوفى في تشرين العام 1975 (مع بداية الحرب اللبنانية)، هو بلا شك رائد المسرح السياسي التهكمي في لبنان.

أنتج شوشو وأخرج للمسرح وشخّص خلال عشرة أعوام من 1965 ـ 1975 خمسًا وعشرين مسرحية، بقيت حديث الناس خلال فترة طويلة من الزمن ولم تزل.

والواقع أن شوشو استقطب جماهير الناس في لبنان من مختلف طبقات المجتمع، من بائع الفلافل وسائق التاكسي إلى الوزير والموظف الكبير مرورًا بالطبيب والتاجر والمهندس والمعلم... إلخ.

كما استقطب شوشو المفكرين والمتعلمين وأنصاف المتعلمين وحتى الأميين، ولم يكن جمهوره محصورًا بسن معينة، فارتاد مسرحه الطفل كما الشيخ... قدم شوشو مجموعة أفلام سينمائية، وحلقات فكاهية في التلفزيون والإذاعة لا علاقة للسياسة بها..

إلّا أنه قدم للمسرح خمسًا وعشرين مسرحية كما أسلفنا معظمها ذات طابع سياسي، تختلف حدَّته بين مسرحية وأخرى، وهذه المسرحيات حسب تسلسلها الزمني:

شوشو بك في صوفر ـ مريض بالوهم ـ شوشو عريس ـ الدكتور شوشو ـ الأستاذ شوشو ـ شوشو والقطة ـ حيط الجيران ـ شوشو والعصافير ـ الحق عالطليان ـ حب تحت الصفر ـ البخيل ـ محطة اللطافة ـ اللعب على الحبلين ـ كفيار وعدس ـ فرقت نمرة ـ جوة وبرة ـ فوق وتحت ـ وراء البرفان ـ وصلت للتسعة وتسعين ـ حبل الكذب طويل ـ طربوش بالقاووش ـ آخ يا بلدنا ـ خيمة كركوز ـ الدنيا دولاب.

وقصة شوشو مع السياسة والسياسيين والانتقادات السياسية والمعاناة التي مرَّ بها طويلة. فعنوان إحدى مسرحياته «آخ يا بلدنا» التي عرضها عشية الحرب اللبنانية 1973 على خشبة المسرح الوطني «شهرزاد» أصبح على كل شفة ولسان، فأصبح أي مواطن يتذمّر من الوضع الاقتصادي والفساد السياسي وتسلط المحازبين والأنصار يردد بصوت عالٍ «آخ يا بلدنا».

صحيح أن الدولة لم تتعرض لمسرح شوشو، ولم تحاول إيقافه كما يجري عادة في معظم دول العالم الثالث، وصحيح أن المسؤولين حضروا مسرح شوشو، وصفقوا له، وانهالوا عليه بالقبلات والتهاني وتكرّموا عليه بالأوسمة وشهادات التقدير. إلّا أنهم اشترطوا (مع أنفسهم) بأن يبقى النقد داخل جدران المسرح وعلى خشبته، وعندما تحوّل الفنان المسرحي شوشو إلى حالة جماهيرية، وصار الناس يرددون أقواله وأغانيه التهكمية في الباصات وسيارات التاكسي عيل صبر السلطة في حينه، دهم رجال الأمن مكتبه وصادروا (153) أسطوانة من أغنية «شحادين يا بلدنا» وجدوها في أدراجه، وانطلقوا إلى الأسواق يجمعون ما تبقى منها لإتلافه.

تقول كلمات الأغنية المصادرة التي تنبأت بالمصير الأسود الذي لاقاه لبنان بعد أقل من سنتين من إطلاقها:

أراضينا للبيع للأغراب يا بلدنا
ضمايرنا للبيع للسفارات يا بلدنا
ليش بنسرق ما سألتونا
بنسرق لأنهم سرقونا
وليش بنبيع ما سألتونا
بنبيع لأنهم باعونا
سرقونا الكبار وباعونا الكبار
ونحنا حرامية دراويش
صغار صغار...

رحم الله شوشو، لقد انتقده أصحاب النظام لسخريته منهم، كما انتقده أعداء هذا النظام مدَّعين أنه كان يتعامل مع المشكلة الاجتماعية السياسية من الخارج ـ يهزأ بها ظاهريًا ولا يحرِّض من أجل الثورة عليها

ـ إلّا أن مسرحه في الواقع تمكن من تخطّي الانتقاد والتهجُّم، وأثبت وجوده في صلب الحركة المسرحية اللبنانية.

نبيه أبو الحسن «أخوت شانيه»

تروي حكايات التاريخ أن الأمير بشير الشهابي الثاني أراد مرَّة جرَّ المياه من عين دارة إلى قصره في بيت الدين، وقد أجمع المهندسون على أن متطلبات هذا المشروع تفوق قدرة الأمير المالية، وحكموا باستحالة تنفيذه. وكان هنالك في قرية تدعى شانيه رجل مجنون/ عاقل يدعى حسن طلب مقابلة الأمير زاعمًا أن لديه حلاً للمشكلة دون أن يتكبد الأمير الحاكم أية تكاليف. وقال للأمير «سيدنا المير اجمع العسكر من عين دارة إلى بيت الدين على صف واحد وكل جندي يحفر مكانه» وهكذا وبكل بساطة حُفرت القناة وجرّت المياه دون أية تكاليف تُذكر!..

تقمص نبيه أبو الحسن شخصية حسن هذا وعصرنها، وطرح حلولاً لمشاكل المواطن مع الحاكم رغم أنه آثر الحفاظ على اللباس والطابع الفلكلوري وشخصية الأمير بشير.

«أخوت شانيه» ـ وأخوت باللهجة اللبنانية تعني المجنون وهو الشخصية التي لبست نبيه أبو الحسن (توفي نبيه أبو الحسن في حادث سيارة في منتصف الثمانينيات) والتي أحبها اللبنانيون على اختلاف مذاهبهم، ورددوا كلامها وعباراتها طويلاً.

وقد جمع نبيه أبو الحسن بين المأساة والملهاة، فلا تعرف أين تضحك منه وعنه، وأين تحزن عليه وعليك.. كان حواره في معظم الأحيان مع أمه، في إحدى مسرحياته قال مرَّة:

«عندنا في لبنان اليوم، الواحد إذا عطس ما بيحكي، وإذا حكي ما بيعود يعطس». كان يعبِّر عن كتم حرية التعبير في وقت كانت فيه الميليشيات الحزبية تعيث فسادًا وتهدد المواطنين في أرواحهم.. ثم

يتحسّر على وطنه لبنان حين يقول بلسان حاله «أنا قتلوني بضو الشمس وتحت نظر العالم وما حدا سأل عني».

والحقيقة أن أخوت شانيه هو اللبناني المراوغ الحكيم، الحاد الذكاء. يعرف كيف يدعي الخوتنة (ويدقق في أنها تختلف عن الجنون) لتعميم حكمته. يعلم أنه ضمن عالم أخوت حيث الخوتان عقلاء فيما الغير معرضون لكثرة الرضوخ للأمور المفروضة عليهم بالقوة، حريته في حبه للجميع دون الارتباط بفرد معين ـ المال له جلاد إذا اقتصر على أقلية ووسيلة عيش إذا عمم. يبدو وكأنه يضحي بشخصيته لصالح الجماعة. إنما بالفعل يحتفظ ويتحصن بأفضل ما لديه، وهو الحق في التعبير الحر والدفاع عن اعتقاداته وحقه في الأصالة. يحتقر الشهرة والصيت لأنه يعرف أن ثمنها فقدان الأمانة مع النفس. ولأنه يهرب من الشهرة فهي تلاحقه وتجعل منه الرجل الذي يستشيره (الكبار). يهزأ من القامعين، ومن المسيطرين، بعد أن عثر على النبرة اللازمة لإطلاق أكثر الحقائق حدة.. دون أن يترك لمن يهاجم إمكان إسكاته، وتحت ستار العقل الخفيف، يقدم أخوت شانيه مرآة الحقيقة إلى الذين يشوهون الحقيقة، مجبرًا إياهم على مواجهة أنفسهم، ومن حيث اللباس يرفض أي تنكّر، ويجد في زيّه المحلي الشعبي عاملاً آخر لتوطيد أصالته[9].

بالمقارنة بين شوشو (حسن علاء الدين) وأخوت شانيه (نبيه أبو الحسن) نجد أن كليهما تعلقا بالواقع الاجتماعي والسياسي المحلي، واتخذا الموقف الانتقادي حياله. وإذا كان حسن علاء الدين قد اكتفى في الكثير من الأحيان بمحاربة الوضع السياسي برفق، فإن نبيه أبو الحسن جعل من النقد الاجتماعي والسياسي ركيزة شخصيته الفنية ومحيطها.

دريد لحام وريث الريحاني؟!

كما نجيب الريحاني في مصر، جاء دريد لحام الفنان السوري فارضًا على المسرح التهكمي شخصيته الطاغية. فهو المسرحية، وهو النص. ذو حضور غريب تفرضه القناعة المسبقة والإعجاب المتأصِّل.

قدَّم دريد لحام مسرحيات عدة، كان للسياسة بها الحصّة الكبرى من رئيس مخفر الحي «بدري أبو كلبجة» الذي يشخص الحاكم والحكومة إلى الزمن العربي الرديء.

ازدهرت مسرحيات دريد لحام في السبعينيات ولاقت تلك التي صُوِّرت تلفزيونيًا، وعمت أرجاء الشرق العربي نجاحًا لا مثيل له. ففي «كاسك يا وطن» تهكم دريد لحام من الوضع الذي آل إليه الوطن العربي الكبير، وكلامه مع والده المتوفى في الآخرة.. الذي سأله عام 1973 يا ابني هل حررتم فلسطين؟ فأجاب دريد: يا والدي هل بعد 25 سنة نضال يُسأل هذا السؤال. هذا الحوار وهذه العبارة أضحكت الناس في أرجاء الوطن العربي، وأبكتهم على واقعهم المرير.

ومن أهم مسرحيات دريد لحام (ضيعة تشرين) و(الحدود)، وهذه الأخيرة تروي حكاية مواطن عربي شاء له القدر أن يفقد بطاقة هويته (جواز سفره) وهو على الحدود بين بلدين عربيين شقيقين، فلم يسمح له بدخول أي منهما.. فكان أن نصب خيمة على الحدود، وتحولت مأساته إلى ملهاة فبعد أن اضطهده الفريقان أصبح كلاهما يطلب ودّه ليتجسس على الآخر...

«شوشو»: صرخ «آخ يا بلدنا»... ومات!

المهرّج العبقري...

وفي تحية لشوشو من مجلة «المسرح في لبنان»، الصادرة عن وزارة الثقافة والتعليم العالي، مديرية شؤون السينما والمسرح والمعارض، العدد الثاني، سنة 1996 جاء فيها: «يكاد «شوشو» أن يصبح مشهورًا ومجهولاً في الوقت نفسه. كبر الاسم وتلاشى الشخص، كبطل خرافي لا يُعرف إذا عاش حقًا أم لا».

سيرة شوشو

- اسمه الأصلي: حسن علاء الدين.

ـ ولد عام 1940 في بلدة جون، قضاء الشوف.
ـ يدعى والده خضر ووالدته تدعى نوار حيدر.
ـ توفي والده وهو في العاشرة من عمره ليعمل مستخدمًا في البنك السعودي.
ـ بدأ بممارسة الفن مع فرق أطفال وقدم مسرحيات في الهواء الطلق.
ـ أطلق عليه الكاتب محمد شامل عام 1960 اسم شوشو في برنامج إذاعي للأطفال.
ـ وقع الخلاف بين شوشو ومحمد شامل حين «خطف» ابنته فاطمة، المطربة السابقة، ورزق منها ولدين وبنتًا هم: خضر، محمد ونوار.
ـ شكل فرقة صغيرة من نوع «الشانسونييه» في الزيتونة ـ بيروت.
ـ أسس «المسرح الوطني» عام 1965، بالاشتراك مع نزار ميقاتي وحوّله إلى «مسرح شوشو».
ـ قدم أول مسرحية واسمها «شوشو بك في صوفر» واستمر عرضها ستة أشهر متتالية.
ـ قدم خلال حياته الفنية 28 مسرحية وخمسة أفلام سينمائية إضافة إلى المسلسلات التلفزيونية.
ـ آخر مسرحية قدمها كانت «1 ـ 2 ـ 3» التي توقفت بسبب الأحداث ومرض شوشو.
ـ توفي عام 1975.

فكان الطبيب البارع والحاذق الذي كتب على رأس «الروشيته»: الفنان الحقيقي لا بد أن يلتحم بالجماهير. رحمه الله..

ملك الكوميديا والسخرية السوداء

وعن ملك الكوميديا والسخرية السوداء ذكر الدكتور فاروق الجمال، في كلمة ألقاها في المركز الثقافي الروسي في الذكرى الـ26 لرحيل حسن علاء الدين:

إن حسن علاء الدين كان فنانًا قديرًا وصاحب مدرسة راقية في فن الكوميديا، وقد استطاع النهوض بالحركة المسرحية منذ بدء مشواره الفني، وبفضل ذلك تربع على عرش الكوميديا وقدم أشهر المسرحيات التي أمتعت «ولا تزال» المشاهدين، فكلما شاهدنا مسرحية له نظل نضحك ونستمتع كما لو كنا نشاهدها للمرة الأولى.

وفي مستشفى البربير في الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 1975 سطر القدر كلمة النهاية في حياة «فنان الشعب ـ شوشو». هذا الذي أغمض عينيه ورحل عن الدنيا قبل احتراق بيروت تاركًا وراءه ثروة فنية عظيمة ضمنت له خلود اسمه في «جبين» التاريخ المسرحي اللبناني المعاصر كواحد من أنبغ نجوم المسرح. فكان أول من أسس في بيروت ـ في تلك الفترة مسرحًا يوميًا. ولأن الأعمال العظيمة تبدأ بالحلم، والحياة تتغير بالحلم فقد امتلك هذا الفنان القدرة على تحقيق هذه الأحلام. شوشو ـ في مسرحه اليومي ـ صورة عبرت بأسى عن حالة بيروت، فارتبطت نهايته مع بداية الحرب، مات لأن القلب الصغير الذي حمله بين ضلوعه والذي اتسع لكل الوطن بمحبة، لم يستطع تحمل ما رآه وتنبأ به.

شوشو أحب الناس فكبرت عطاءاته، وفي ذلك اليوم أسدلت الستارة على حياته.. فأبكى الناس وهم يضحكون مع أخباره وذكرياته.

في ذكرى غروب شمس شوشو السادسة والعشرين، نحاول الاقتراب من «عرش الملك» الذي كان وحده نسيجًا فنيًا متفردًا... إنها السيرة الحزينة.

شوشو المغامر الذي حقق «المعادلة الصعبة» في المسرح... ومسرحياته، بدءًا من «شوشو بك في صوفر»، وانتهاء بمسرحية «آخ يا بلدنا»، ناقشت قضايا شديدة الأهمية في إطار كوميدي.

الكاتب الساخر غازي قهوجي يفيض تهكّمًا أسود ولا أستطيع أن أتخيل ثقيل دم في الجنة!

قهوجي في سطور

غازي قهوجي المدير والمشرف الفني لفرقة الرحابنة والسيدة فيروز على مدى 20 عامًا. وهو أستاذ الدراسات العليا في الديكور والتصميم المشهدي وهندسة الديكور والسينوغرافيا المسرحية والغنائية والتلفزيونية وتاريخ الأزياء في الجامعتين اللبنانية واليسوعية. عمل على مسارح وفي استوديوهات عربية وعالمية عدة. كتب مسرحيات عدة وأعمال تلفزيونية كثيرة لأشهر المسرحيين والفنانين اللبنانيين والعرب[10].

هو من ألمع كتّاب السخرية السياسية حالياً في لبنان الأستاذ غازي قهوجي حيث يكتب أسبوعياً الصفحة الأخيرة في مجلة «الكفاح العربي». ويتميز الأستاذ قهوجي بعبارة لاذعة وجملة متينة وجرأة نادرة، ويحرص الكثيرون ونحن منهم على قراءة المجلة ابتداءً من آخرها حرصاً على قراءة مقال غازي قهوجي. وأخيرًا صدرت له سلسلة كتب بعنوان «قهوجيات» جمع فيها مقالاته الساخرة التي كتبها في العديد من المجلات اللبنانية والعربية.

وهنا مقتطفات من مقال كتبه بعنوان «كلبنة» قارن فيه بين الإنسان والكلب («الكفاح العربي» 28/ 7/ 2008) وختمه بعبارة «فقد آن الأوان بعد كل ما جرى ويجري أن يرتقي البعض من السياسيين إلى مستوى الكلاب».

كَلْبَنَة. . . !

منذ القديم دجّن الإنسان الكلب، فأصبح بمرور الزمن رفيقه وحارسه، ومراقب قطيعه، وناطور حقله ومسكنه. ولقد وُصف على الدوام بالوفاء والأمانة والنخوة والشهامة والإقدام، وتناولته

قرائح الشعراء بالعديد من الصفات الحميدة، حتى أمسى أقرب حيوان مُدجَّن إلى قلب الإنسان، وبالمقابل باتَ الإنسان، الحيوان «الوحيد» المميز الذي أنسَ به واستراح إليه الكلب!!!

وبعد أن نشأت وتشكّلت الحواضر والمدن، انحصرت مهمات الكلاب الوظائفية في الريف، وفي المزارع والمراعي والمروج، أما الكلاب، التي جَلَبَها الإنسان معه إلى المدينة، أو التي استوردها فيما بعد بأنواعها المتعددة وفصائلها المتنوعة، فإنها تطبّعت بعادات وتقاليد وأمزجة «مدينية» متحذلقة، بعيدة كل البعد عن المضمون القيّم لمفهوم «الكَلْبَنَة» الأصيل!! واقتناها البعض واحتفظ بها ـ فقط ـ على سبيل الهواية والغواية والاستعراض، إلى أن انقلبت وتبدّلت الأدوار، وتماهَت المقاصد والأهداف، إذ وَجَبَ أن يكون مالك الكلب هو نفسه: الحارس والمراقب والناطور، حتى لا نقول، الكلب الأمين لكلبه!!

وفي آخر المعلومات الطبية الجادّة في رصد مكوّنات تركيبة جسد الإنسان، تبين أن 75٪ من جيناته، موجودة بشكل دقيق عند الكلاب! ولقد أجرى العلماء قراءات مستفيضة على رسوم وتخطيطات جينات الكلاب، التي هي عبارة عن بيانات تشرح تفاصيل المركّبات الفيزيولوجية والنفسية والاجتماعية والوراثية. . . لأهم وأميز وأوضح النابحين بين ظهرانينا، وأرشق وأهضم من هزّ ذَنَباً تقرّباً وتودداً من بين جميع بني حيوان على الإطلاق!!! وذلك للإفادة منها ومقارنتها مع طبائع الإنسان!!

وألقت هذه الدراسة القيّمة الأضواء على حقائق مثيرة للاهتمام، وثبتت فائدتها للباحثين والاختصاصيين والمتعمّقين في فقه النباح، وفلسفة العواء، الذين يهتمون بأمراض الإنسان والكلب على السواء، حيث يستوي ويتساوى الاثنان في طريقة العلاج وفي نوع الدواء! وقال علماء من الولايات المتحدة الأميركية، حيث يوجد أكبر عدد من الكلاب في العالم ـ حسب إحصاءات جمعية الرفق

بالحيوان ـ إنهم تمكنوا من استخلاص معلومات فائقة الدقة من جينات الكلاب، وقاموا بدراسات محورية مكثّفة حول حاسة الشم عندها.

وانطلاقاً من ركائز علم الجينات المقارن «الكلبو ـ بَشَر»، تبيّن أن الكلب والإنسان يجتمعان ويتوافقان ويتوحّدان بحاسة «الشم»! هذه «الوحدة» التي قيل بأنها أهم من «الوحدة العربية»!! أو على الأقل أقوى وأفعل من التضامن العربي المزعوم.

وقد استطاعت الكلاب استعمال كل قدراتها «الشمسيّة» في كشف واستكشاف المواد الممنوعة والمحظورة، من مخدرات وسموم ومتفجرات، والتقصّي الدؤوب، وبكفاءة عالية لتعقيدات وملابسات جرائم القتل والخطف والسرقات، كما استطاعت، وبدقّة متناهية التمييز بين الصديق والعدو، وبين اللطيف و«السئيل»، وبين الوطني والعميل!... وبين النملة والفيل..!!

وكثيراً ما يصف الإنكليز حياة الرغَد والسعادة بجملة: DOG'S LIFE! أي حياة كلاب! وذلك للدلالة على منتهى الرفاهية والعيش الهنيء!!

وبما أن علم الجينات «الشمسيّ» قد حَسَمَ أمر الأخوّة والعمومة والخؤولة مع الكلاب، فقد آن الأوان، خصوصاً بعد كل ما جرى ويجري أن يرتقي البعض من السياسيين إلى مستوى الكلاب!!!

■ ويقول الكاتب الساخر غازي قهوجي: إن كتاباتي تهكمية ومسلية... مع هذا فاللافت هو أنها جزء لا يتجزأ من جوهر الأدب الملتزم، عن طريق جمع ذروة الهَزْل إلى ذروة الالتزام.

ويبقى السؤال: أهي قدرة الكاتب أم هي قدرة اللغة على التوحيد بين النزعتين؟ أم هما القدرتان معًا؟

ويضيف: أكتب لأعلن موقفًا، ولا أرى الضحك إلا في أكثر المسائل جدية.

التلفزيون

وعلى ساحة السخرية والتهكّم السياسي في لبنان، وبعد انتشار القنوات الفضائية انتشارًا لا حصر له، دأبت بعض محطات التلفزة اللبنانية، على تخصيص أكثر من نصف ساعة اسبوعيًا لبرنامج نقدي تهكمي، يهدف أولاً لاستقطاب المشاهدين ثم لإيصال رسالة نقد سياسي لاذع، فيتناول معظم الساسة اللبنانيين دون تحفظ، لا سيما في السنوات الأخيرة وخلال الأزمة السياسية التي مرت بلبنان.

بدأت محطة LBC منذ أكثر من ثلاثة أعوام (2005) ببرنامج «بسمات وطن» لشربل خليل. ثم تبعته المحطات الباقية كمحطة NEW TV، التي تميزت ببرنامج «اربت تنحل»، الذي يتجدد يومياً خلال شهر رمضان هذا العام 2008. ثم محطة أو تي في OTV، ومحطة المستقبل Future، فظهرت تلفزيونيًا مسرحيات (Les Diseurs)، أي القوالون، التي انبثقت من فرقة عريقة اسمها «مسرح الساعة العاشرة»، والتي كان من أقطابها غاستون شيخاني، وايفيت سرسق ووسيم طبارة وكان تسمى بالفرنسية (Les Dix Heurs).

كذلك رأى المشاهدون أسبوعيًا برنامج «دمى كاتير»، وهو كاريكاتوري على غرار برنامج «بابيت شو» على التلفزيون الفرنسي.

لاقت هذه البرامج التلفزيونية الساخرة نجاحاً كبيراً، ولم تزل تمثل متنفساً للبنانيين الذين تستهويهم السخرية من سياسييهم.

كذلك على صعيد المسرح، استمرت فرقة سامي خياط بعد ثلاثين عاماً من انطلاقتها، وظهرت فرقة «الدبابير» منذ أعوام، ولم تزل، وفرقة أخرى لا تزال في انطلاقتها، والحبل على الجرار كما يقال «والخير لقدام».

هوامش

1 ـ الجمال، فاروق: «شوشو . .»، ص 47.

2 ـ عهد اللواء الأمير فؤاد شهاب 1958 ـ 1964 ثم بعهد الرئيس شارل حلو 1964 ـ 1970.

3 ـ مجلة «الحداثة»، العددان 11 و12 خريف 1995 ص 85.

4 ـ «الحداثة»، المرجع السابق ص 83.

5 ـ المرجع السابق.

6 ـ «السفير»، 16 شباط/ فبراير 98، ص 17.

7 ـ مكالمة مع المؤلف بتاريخ 16 شباط/ فبراير 98.

8 ـ أنطوانيت عازار ـ مقال ـ «الديار» 2 كانون الثاني/ يناير 1993.

9 ـ الجمال، فاروق: «شوشو . .» ص 439.

10 ـ «شؤون جنوبية»، العدد 58، شباط 2007.

الفصل السادس

السخرية السياسية في الشعر

الشعر الظريف والشعر الساخر
في مصر وسوريا ولبنان

هنالك خيط رفيع يفصل بين المقال الساخر، والقصيدة الساخرة. وهما ينتميان معًا مع شقيقهما الأدب الشعبي إلى أب واحد هو الأدب الساخر.

والشعر على أنواع.. منه الكلاسيكي ومنه الزجلي ومنه الحديث الذي عُرف بمدرسة نزار قباني.

والشاعر المرحوم نزار قباني حالة فريدة في الشعر العربي، ففي شعره السياسي يبدو نزار قباني ناقدًا، ساخرًا وساخطًا على ما وصلت إليه حال الأمة بسبب قياداتها...

ومن يعرف نزار قباني معرفة شخصية «وأنا شخصيًا أعتز بهذه المعرفة»، يجده أنيسًا ظريفًا، على درجة كبيرة من الثقافة وعلى درجة أكبر من الثقة بالنفس، وفي الجلسة معه متعة وفائدة. لم يفهمه خصومه فاتهموه بالنرجسية «أي بعشق الذات» لسبب بسيط أنهم لا يعرفون ذاته. فقد وجدوا في شعره مرآة تنعكس بها صورته النفسية، ففي شعره تعالٍ أو (هو متعالٍ) وهو دائمًا النجم وهو المحور. ورغم ذلك فالموضوعية تحيّده عن ساحة الشعراء الظُّرفاء ولكنها في ذات الوقت تصنفه الأول في مجال السخرية. وسخرية نزار قباني قاسية لاذعة تؤلم وتجرح وتدمي.

فالوضع العربي بنظره دائمًا مأساة.. وهو بذلك لا يتجنى كثيرًا... ولسخط نزار قباني أسباب عديدة منها ما يتعلق بنشأته، ومنها ما يتعلّق

بمسيرته السياسية والشعرية. فهو ابن العائلة الأرستقراطية الذي شاهد أفول نجم هذه الطبقة من قمة الحكم والسياسة في العالم العربي وبروز نجم أبناء من كانوا يسمون بالكادحين. . وقد ترك نزار منصبه الدبلوماسي سفيراً لبلاده ليهرب إلى شعره ونقده ناسبًا هروبه إلى عدم تآلفه مع البيروقراطية. ثم إن مقتل زوجته ورفيقة دربه «بلقيس» في ظروف مأساوية ترك ندوبًا عميقة في قلبه، تبرز بين حين وآخر بسخط قاتل على العرب وحكام العرب. وفي هذا قال:

لا تسافر بجواز عربي
لا تسافر مرة أخرى لأوروبا
فأوروبا كما تعلم ضاقت بجميع السفهاء
لا تسافر بجواز عربي بين أحياء العرب
فهم من أجل قرش يقتلونك
وهم حين يجوعون مساء يقتلونك
لا تكن ضيفًا على حاتم طي
فهو كذّاب ونصّاب. . .

كان نزار قباني يعبّر عن سخطه لنظرة الغرب إلى العرب، فلم يوجه اللوم إلى الحكومات الغربية وتأثير الصهيونية على قراراتها وممارساتها كما يفعل جميع الكتّاب العرب. بل وجد العلّة في الشعب العربي منذ حاتم طي حتى يومنا هذا. .

ومن أكثر قصائد نزار قباني تهكمًا على الإطلاق قصيدة كتبها في لندن عام 1994، أحدثت ضجة لا تزال أصداؤها تتردد حتى اليوم، فبين مؤيد بخجل إلى مهاجم لنزار دون وجل. . حتى طالب البعض بمحاكمته، وإذا تعذّر ذلك حرمانه من جواز سفره. .

كان عنوان القصيدة: **متى يعلنون وفاة العرب؟**

وهي تستحق النشر في مؤلفنا هذا بكاملها، إلّا أن المجال لا يتسع

لها. . لذلك سنحاول الأخذ منها رغم صعوبة بترها. .

يبدأ نزار قباني القصيدة بـ:

أحاول منذ الطفولة رسم بلاد
تسمى مجازًا بلاد العرب
رحلت جنوبًا. . رحلت شمالاً. .
ولا فائدة. . .
فقهوة كل المقاهي لها نكهة واحدة. . .
وكل النساء لهنَّ ـ إذا ما تعرين
رائحة واحدة. .
وكل رجال القبيلة لا يمضغون الطعام
ويلتهمون النساء بثانية واحدة. .
أحاول، منذ كنت طفلاً، قراءة أي كتاب
تحدث عن أنبياء العرب. .
وعن حكماء العرب. . وعن شعراء العرب
فلم أرَ إلّا قصائد تلحس رجل الخليفة
من أجل حفنة رز. . . وخمسين درهم. . .
فيا للعجب!!
ولم أرَ إلّا قبائل ليست تفرّق ما بين لحم
النساء
وبين الرطب. .
فيا للعجب. .
ولم أرَ إلّا جرائد تخلع أثوابها
الداخلية
لأي رئيس من الغيب يأتي.

وفي إشارة إلى الأنظمة العسكرية في بلاد العرب وبلاد النفط التي تكدّس الذهب يقول نزار قباني:

أحاول أن أتصوّر ما هو شكل الوطن؟
أحاول أن أستعيد مكاني في بطن أمي
وأسبح ضد مياه الزمن...
وأسرق تينًا، ولوزًا، وخوخًا
وأركض مثل العصافير خلف السفن..
أحاول أن أتخيّل جنة عدن..
وكيف سأقضي الإجازة بين نهور العقيق
وأي عقيد على جثة الشعب يمشي
وأي مرأب يكدس في راحتيه الذهب
فيا للعجب!!

والعرب في رأي نزار قباني يرعدون ولا يمطرون، وهم مكروهون من الجميع حتى من أولادهم. يقول:

أنا منذ خمسين عامًا
أراقب حالة العرب
وهم يرعدون ولا يمطرون..
وهم يدخلون الحروب، ولا يخرجون
وهم يعلكون جلود البلاغة، علكًا
ولا يهضمون...
أنا منذ خمسين عامًا
أحاول رسم بلاد
تسمى ـ مجازًا ـ بلاد العرب
رسمت بلون الشرايين حينًا
وحينًا رسمتُ بلون الغضب
وحين انتهى الرسم، ساءلت نفسي
إذا أعلنوا ذات يوم وفاة العرب..

ففي أي مقبرة يدفنون؟
ومن سوف يبكي عليهم..؟
وليس لديهم بنات...
وليس لديهم بنون...
وليس هنالك حزن...
وليس هنالك من يحزنون...
إلى أن يختم قائلاً:
أنا بعد خمسين عامًا
أحاول تسجيل ما رأيت...
رأيت شعوبًا تظن بأن رجال المباحث
أمرٌ من الله.. مثل الصداع.. ومثل
الزكام..
ومثل الجذام.. ومثل الجرب..
رأيت العروبة معروضة في مزاد الأثاث
القديم...
ولكنني ما رأيت العرب!!.

وقد سبقت هذه القصيدة قصيدة «بلقيس» التي كتبها في عام 1981 بعد فترة وجيزة من مقتل قرينته «**بلقيس**» وهي قمة في الشعر العربي وقمة في السخط والسخرية والترحم على أمة العرب...

■ من المعروف أن جنوب لبنان المسمى «جبل عامل» عرف حرمانًا مقيتًا طيلة خمسة قرون من الزمن أو أكثر.. إلا أن الجنوب اللبناني ورغم هذا الحرمان، عرف نهضة فكرية وأدبية واسعة. فقد خرج منه إلى إيران والعراق علماء كبار قدِّروا بالمئات، كان لهم أثر كبير في نشر الفكر الإسلامي الشيعي، وكان أكثر من نصف أساتذة جامعتَي «قم» في إيران و«النجف الأشرف» في العراق عامليين. أما في الجنوب فكان

الشعر الكلاسيكي منه والشعبي ينمّ عما تميَّز به هذا الشعب من ذكاء وفطرة وثقافة واسعة. .

وقد كتب الصحافي الراحل «رياض حنين»[1] تحت عنوان: الجنوب الزكي. . ما يلي:

«بين تشرين الأول وتشرين الثاني سنة 1945 قام رئيس الجمهورية بشارة الخوري بثلاث رحلات إلى المناطق اللبنانية زار خلالها الشمال والجنوب والبقاع. .

وفي أثناء زيارته للجنوب، استراح وصحبه في دار «عادل عسيران» في القاسمية، وتناول الطعام إلى مائدته ـ وقد انبرى الشعراء والخطباء للترحيب به وبرفاقه، وأجادوا في قصائدهم على السليقة والفطرة»، والتفت النائب الشيخ فريد الخازن إلى عادل عسيران، وقال مازحًا:

«إذا كان بلا مدارس وهيك، كيف لو عملتلكن الحكومة مدارس؟».

■ من جبل عامل الزكي نقتطف باقة من عيون الشعر الطريف الذي يطال المجتمع كما يطال الساسة، ذلك المجتمع الظالم الذي حصر نعمة العلم بين أبناء الأثرياء الإقطاعيين، ورغم ذلك وكمن ينحت العلم من الصخر برز شعراء عظام، ترى السخرية الأليمة والمؤلمة في شعرهم الذي يرسم صورة كاريكاتورية تهكمية لمجتمع ذلك العصر الظالم وأسياده.

من هؤلاء الشاعر الراحل الشيخ «محمد نجيب مروّة» وهو من مواليد قرية الزرارية في جنوب لبنان. وله ديوان في الهجاء يعتبر من عيون الشعر.

خاطب الشيخ في إحدى قصائده الأغنياء بلسان الفقراء بقصيدة عصماء نقتطف منها:

معاشر أهل المال حتَّامَ نشتكي ... إليكم بهذا الدهر فقرًا وإعوازا
ونسألكم إسعافنا فنراكم ... تولوننا منكم ظهورًا وأعجازا
أليس حرامًا أن يكون طعامكم ... مدى الدهر من قوت الخلائق ممتازا
وطبخكم والخبز لا تأكلونه ... بأبياتكم يومًا إذا لم يكن (طازا)
وأطفالنا لا تستقر إذا رأت ... من الناس طباخًا هناك وخبازا
أليس حرامًا أن نرى الشخص منكم ... لأفخر أنواع الملابس قد حازا
وواحدنا لا يستطيع بعامه ... بأن يكتسي إلا قميصًا وغنبازا

وقال في قصيدة أخرى يصف بها اضطهاد السلطة العثمانية لأبناء بلده ومعاملتهم كالعبيد:

وأقبلت رسل السلطان مسرعة ... إليهم بين مأمور وأمّار
فصادرتهم وساقت بعض فتيتهم ... للسجن من بعد هذا سوق أبقار
قوم من الفهم والإدراك مذ وجدوا ... ومن فنون الترقي شعبهم عاري
قوم غدت منهم الأخلاق فاسدة ... وأصبحوا كعبيد غير أحرارِ

وفي مجال تهكمه على الزعماء الإقطاعيين:

دخل ذات يوم على بعض الزعماء فلم يكترث له، ورآه يهشّ للأشقياء والقبضايات وما شابه، ويستقبلهم بترحاب زائد فقال:

أضحى الزعيم مقدما ... ربَّ الرذائل والبدَعْ
وغدا يؤخر دائمًا ... ربّ الفضائل والورع
فسألت ذا معرفة ... وخبرة في المجتمع
ماذا يريدُ أخو العلى ... بالناس فالخرق اتسع
فأجابني: هذا امرؤ ... ما في زعامته طمع

إلى أن يقول..

دعـــــه إذا أنـــــــذرتـــــــه في ظـلـمـة الـقـبـر اضـطـجـع
وإذا تـــــهــكــــم قـــل لـــه بـيـتًـا يـهـون بـه الـوجـع
مــا طـار طـيـر فـي الـعـلـى إلّا كـــمـــا طـــار وقـــع

وقد تألم الشيخ نجيب مروّة لمعاملة الإقطاعيين للفلاحين في جبل عامل ونظم قصيدة رائعة يهجو بها رجال الإقطاع، ويسخر منهم، وقد روى حكاية هذه القصيدة وظروفها[2] . . ويقول الشيخ محمد نجيب مروة:

أتيتُ مرَّة مدينة صور راجعًا من بيروت، فعرض لي غرض في قرى منطقة صور، فاستأجرت حمارًا لرجل هناك حتى وصلت إلى وادٍ، وإذا بجماعة من الفلاحين يحرثون بجانب ذلك الوادي. منهم من يحرث على حمارين ومنهم من يحرث على ثورين هزيلين، ومنهم من يحرث على بقرة عجفاء وحمار، وبينهم ثلاث فتيات (ينكشن) الأرض في المواضع التي لا يستطيع الفدان حراثتها، وهم جميعهم حفاة وشبه عراة، فآلمني منظرهم وما هم عليه من الفاقة مع هذا الجهد المتواصل.

ثم استوقفني رجل كبير السن منهم وطلب مني «سيكارة» فأعطيته ثم أخذ يشكو ويتألم للحال الذي هم عليه من جور أصحاب الأملاك الإقطاعيين، وما يلاقونه من ضروب الأذى والهوان.

والتفتُّ ورائي فرأيت شخصًا كبير الجثة مترسمًا راكبًا على فرس وبيده «كرباج» طويل، فجاء حتى دنا من ذلك الشيخ المسكين، وضربه ضربات متواصلة أدمى منها وجهه، ثم تقدم إلى الباقين وأخذ يضربهم واحدًا واحدًا وهو يزمجر ويقول: «يا عكاريت»، نكلفكم ببعض الحوائج فلا تقضونها، إنَّ هذه الأرض أرضنا وليس لكم فيها شيء. فدنوت منه، وكلمته برفق ولطف. . . وقلت له: يا حضرة (الأفندي) رفقًا بهؤلاء القوم فإنهم فقراء الحال ضعفاء، فلا

ينبغي أن تعاملهم بهذه القسوة، فأخذ يكلمني بحدَّة وبغضب: يا شيخ نحن نعرف شمس بلادنا من أي جهة تطلع، والله ما جرَّأ هؤلاء الهمج علينا وعلى أمثالنا إلّا أنت وأمثالك كأنك تجهل قول الشاعر:

أهلُ الفلاحة لا تُرجى مودتُهم غُبر الوجوه إذا لم يُظلَموا ظَلموا

ويتابع الشيخ «مروّة ـ نجيب» قائلاً:

ثم رجعت لبلدتي فلم أنم في تلك الليلة، بسبب ما انتابني من ألم ذلك المشهد، ومن جور الإقطاع وحالة الفلاحين البؤساء معهم، ولم تغمض لي عين حتى نظمت هذه الأبيات:

رأيت بجنب وادٍ فوق صور أناسًا يحرثون على الحمير
وقد كثُر الشخيرُ هناك منها فريع القلب من ذاك الشخير
وخلفَهم صبيّاتٌ ثلاثٌ جميلاتُ المناظر كالبدور
وكلُّ صبيّة منهنَّ أضحت و(معولها) يؤثر في الصخور
وأبصرتُ الرجالَ بلا نعالِ فغاب لحالِ فقرهمُ شعوري
وشبَّت عند ذا أسفًا وحزنًا عليهم في الحشا نارُ السعير
وأوقفتُ الحمار وكاد دمعي يفيضُ وقد أتى وقت الفطور
فقامَ إليَّ فلاحٌ صغيرٌ وأجلسني إلى جنب الغدير
وجاؤوا بالقرى فأكلت تينًا وزيتونًا وخبزًا من شعير
وصار كبيرهم بالسنّ يشكو إليَّ نوائب الزمن العسير
وقال: أظن أن الصبر خيرٌ فقلتُ له هنيئًا للصبور
وحين أردتُ أبغي السيرَ قالوا رويدك لا تُعجّل بالمسير
أجرنا من مهاجمة (الأفندي) فها هو جاء كالذئب المغير
فقمت بسرعةٍ، فرأيتُ شخصًا عظيم الجسم ذا رأس كبير

وفـي يُـمـنـاهُ (كـربـاجٌ) طـويـلٌ شـراه لـلـمـهـمّ مـن الأمـور
فـحكّـمَ ذلـك (الـكـربـاجَ) فـيـهـم وصـال كـصـولـةِ الأسـد الـهـصـور
وكـسّـر بـالـحـجـارة كـل عـودٍ بـه حـرَثـوا هـنـاك وكـل نـيـر
وقـال إذا أردتـم فـاشـتـكـونـي غـدًا عـنـد الـمـحـافـظِ الـمـديـر

والشاعر نجيب مروّة شأنه شأن معظم شعراء جبل عامل، نشأ وترعرع بين أناس يُخيِّم عليهم الجهل، أناس سذَّج لا يعرفون سوى المحراث والحقل والبيدر، لم يدخل كأقرانه أية مدرسة، سيَّما والمدارس في ذلك العهد المظلم لم يكن عددها يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة وكانت نعمة العلم محصورة بأبناء الوجهاء والعلماء إلّا أنه تعلَّم على نفسه.

■ أيضًا من أطرف شعراء لبنان الشاعر الراحل **محمد كامل شعيب** الملقَّب بالعاملي، وكان لديه هاجس طيلة حياته بأنه سيكلَّف بترؤس الحكومة اللبنانية، فكان فور استقالة أية حكومة يلازم منزله ينتظر قرب الهاتف استدعاءه من قبل رئيس البلاد لتأليف الحكومة، وكانت له مساجلات هامة مع الراحل جبران تويني الذي نشر له قصيدة اشتهرت في العشرينيات من القرن الماضي. فكتب عنه جبران في جريدة «الأحرار المصورة»:

في العدد (42) الصادر في «15 نيسان 1927» نشر تويني قصيدة سياسية نقدية ساخرة توَّجها بالعنوان، والمقدمة التاليتين:

> «سوزان والبرلمان» للشاعر الخنذيذ [المجيد] محمد كامل شعيب العاملي: قذف إلينا البريد في أول نيسان بكتاب مطوق (أي خال من طابع بريدي) عليه عنوان فندق الكونتيننتال ببيروت، ففضضناه وإذا فيه هذه المنظومة الفريدة ـ بتوقيع الشاعر الفحل محمد كامل شعيب العاملي فأردنا أن لا نحرم القرَّاء منها، لأن ناظمها تلاعب بين سوزان والبرلمان، فأخرج لنا من العشق والسياسة وصفًا، قد

يقذف به إلى مسند الوزارة، أما القصيدة غير القصيرة فقد تضمنت نقدًا طريفًا ولاذعًا للحكومة.
قال الشاعر:

سوزان قد شطَّ ريقي ... كالماء في الإبريق
وكدت أقفز شوقًا ... إليك فوق الطريق
لمّا رأيتك تمشي ... بقدِّك الممشوقِ
والخصر واهٍ نحيل ... والردف كالمنجنيق
والصدر كالتل باد ... والخد كالشقشقيق
سوزان إن جئت يومًا ... مجالس التقريق
وطاب شرب الحميا ... مع الغزال الرشيق
تذكري برلمانًا ... قد ضمَّ كل صديق
أعضاؤه أهل فنّ ... في مهنة التطبيق
سلي الوزارة عنهمُ ... وسائلي سولوميقي[3]
في المجلسين رجال ... ذوو لسان طليق
يدافعون ولكن ... عن غير أهل الحقوق

وظل العاملي حتى وفاته في الخمسينيات على طموحه المزدوج للشعر والوزارة بل الرئاسة، متجلببًا بلباس رسمي يجعله موضع استهزاء ولو محبًا ـ لأنه قال ـ لا يعرف ساعة استدعائه إلى الحكم.

■ الفقر والظلم والاضطهاد التي عانى منها المواطن اللبناني عمومًا والجنوبي بصفة خاصة، كان من نتيجتها موجات الهجرة التي احتوت آلاف الشباب الذين يمموا شطر أميركا وأفريقيا السوداء. وتحت عنوان رحلت عن العبيد إلى العبيد، قصيدة نظمها الشاعر الكبير الراحل موسى الزين شرارة وفيها يقول:

تعاتبني وقد غادرت قومي ... وأوطاني إلى البلد البعيدِ

تقول أراك ما أذللت دمعًا | على وطن الأبوة والجدودِ
ولا أبرزت غانية القوافي | غداة البين لاطمة الخدودِ
فقلت لها علامَ النَّوْحُ إني | رحلت عن العبيد إلى العبيدِ
أراني بين قوم مثل قومي | تدير أمورَهم كفُّ العميدِ
هنا أرض الحياة فلا زعيمٌ | تُساق له الغلالُ بكل عيدِ
ولا ذو عمة يبكي «حسينًا» | رياءً وهو أفظعُ من يزيدِ

وعن الشاعر شرارة كتب الدكتور حسن موسى:

وهكذا صوَّر الشعر تفاصيل كل المسرحيات الملهاة التي لجأ إليها الإقطاع حيث كانت الانتخابات مناسبة لامتصاص مصطنع لنقمة الجماهير وفرصة للسيطرة على كل نوازع وأحلام التغيير.

وصوّر إحباطات الناس من نتائج وإمكانات الإصلاح عبر الانتخابات كوسيلة سلمية للتغيير المرتجى، وللسلوك الديمقراطي، وعبثية الأمل في تحسين الحال أو تغييره لأن الإقطاع بكل امتداداته وعناصره كان مسيطرًا على اللعبة، ممسكًا بقوانينها، مخضعًا لنزواته ومصالحه كل تداعياتها ونتائجها.

وقد أسهب الشاعر «شرارة» تهكمًا من الزعماء في عصره ومن شنباتهم المعكوفة، فقال عنهم، في مهرجان انتخابي في مرجعيون عام 1937 محرضًا الشعب على زعمائه ضمن لومه الشديد له لانقياده لهؤلاء الزعماء[4]:

وشوارب (أثرية) معقوفة | لم يحوِ عنتر مثلها والزيرُ
والسيد (المختار) عاش وزلمه | زلمًا لنا والسيد (الناطور)
وبيارق من ذلكم وصغاركم | نسجت وقلتم مخمل وحرير
وخزائن سمنت بفضل هزالكم | ومزارع مسلوبة وقصور
وبنادق ومسدسات خلفها | أبواقنا والطبل والزمّور
ونضارنا الوهّاج فيه يشتري | شرف رخيص منكم وضمير

ووعودنا بالماء يجري أنهرًا — والكهرباء يعم منها النور
والكوخ يصبح (يلدزًا) أو جنة — غنـاء روض داره وزهور

ومن أروع ما قاله شاعرنا «شرارة» عن موجة الجراد التي اجتاحت البلاد مهددة بالمجاعة:

عُد يا جراد كما أتيت فعندنا — علق يمصُّ دماءنا وقراد
ماذا تؤمل أو تريد فكلنا — حقل وكل الحاكمين جراد
لا يخدعنك منك كرش واسع — رحب وأسنان عليك حداد
لا تختشي رحب الكروش فكرشنا — قد ضاع شعب ضمنه وبلادُ

■ أما عبد الحسين عبد الله، فقد كان شاعرًا خفيف الروح، حلو الدعابة، بارع النكتة، لاذعًا في هجوه إذا هجا.

والهجاء والظُّرف عماد شعره، لذلك نرى أن أغلب قصائده هي من طراز الهجاء، وهو طراز وحده في هذه الناحية المرحة التي وقف عليها خياله وبراعته قد كان لشعره في الهجاء شهرة واسعة بين أبناء الجنوب، وله كثير من الأبيات سارت مسير الأمثال:

يا مدير الاقتصاد الوطني — دلني من أين أصبحت غني
لم تهاجز لم تتاجز لم ترث — عن أبيك الفذ غير الرسنِ

ونرى في شعر عبد الله نوعًا من الهجاء الاجتماعي، ويراد به ذلك الهجاء التهكمي يذم زمانه، وينعى على معاصريه تلونهم ونفاقهم وظلمهم. يصوِّر قومه ويعدد عيوبهم، ويحرِّضهم على إصلاحها فهو يذم العيوب الاجتماعية المتفشية.

الله عونك يا جنوب فكلما — ودّعت نائبة لقيت نوائبا

ما إن أزحتَ الأجنبيَّ ونيره حتى رأيت سواه فوقك راكبا
تقتات من دمك المُراقِ عصابةٌ سَمُنَتْ ونَمَتْ على المذلَّة ساغبا

وحسبنا من هذا الشاعر أن يصوِّر ما يختلج في صدره من عواطف وأحاسيس وأن ينقل إلينا مشاعره الخاصة لا أن يتستر وراء سُدف كثيفة مصطنعة من المجاملات والنفاق الاجتماعي، والمدح الكاذب، وقد يتجلى ذلك في حملته على رجال الدين.

الشرع أصبح فوضى ما بين غرٌ وعالِم
كلٌ يؤول شكلاً ويدعي ما يُلائمْ
متى أناقش شيخًا يجيبني بالشتائمْ

وقال:

ما لي على أهل الجوامع طاقةٌ فإذا دخلت لها فؤادي يجفلُ
هذا يبسبس لست أفهم وذا بالشاي مشغولٌ وهذا يسعلُ

وله أيضًا:

يا قائد العشرين ألف مجاهد نسفوا مقرَّك يا جناب القائدِ
ما للأشاوس عندما ناديتهم للذود عنها ما ظفرت بواحدِ
ليست رجالك للحروب وللوغى فهمُ رجال ولائم وموائدِ
قد فرَّ جندك واليهود وراءهم «حوَّطت» جندك من عيون الحاسدِ

وقد تهكم بها والأسى يقطر منه، مخاطبًا جيش الإنقاذ «فوزي القاوقجي» إبان حرب فلسطين 1948.

وله أيضًا:

قرودٌ على كرسي الشريعة تجلسُ وأقزام أقوام علينا ترأسُ

حكومة هذا اليوم كالأمس لم يزل   يقرب فيها الخائن المتجسسُ

ولم ينجُ بعض رجال الدين من لسان هذا الشاعر الساخر، فعنهم قال:

بين العمائم واللحى   إبليس يبحث عن جحا
قد ألقموها فتنةً   دارت بنا دور الرحى
سكرٌ بغير إفاقةٍ   يا رُبَّ سكرانٍ صحا

هذا ومن جنوب لبنان الذي عانى الأمرَّين في تاريخه السياسي الطويل من تعسُّف العثمانيين إلى تحيّز الفرنسيين مرورًا بتعنُّت وظلم الاقطاعيين من رجال السياسة، من هذه التربة نبت أكثر من شاعر ساخر طريف، عبقري ومبدع، مُطلقًا سخريته السياسية والاجتماعية السوداء معبّرًا بجرأة لا حدود لها عن الواقع السياسي الأليم في عصره..

وفي لبنان دائمًا عشرات الشعراء الساخرين، ومئات القصائد التي يمكن إدخالها ضمن إطار النقد السياسي بتهكم باسم أو بسخرية قاتمة.

■ ورشيد سليم الخوري المعروف بـ «الشاعر القروي» لم يكن يومًا من الشعراء الساخرين. وكونه شاعراً مهاجراً فقد أحب الوطن بكل مشاكله وارتضى الحاكمين مع كل أخطائهم وآثامهم.

إلّا أن بضعة أبيات له قالها بكل مرارة عمَّن تولوا الحكم عن طريق الذل، وتعفير الجبين، وتسلطوا على أهلهم وأحبائهم وأبناء بلدتهم وتكبّروا وتعجرفوا عليهم بينما كانوا ينحنون لتقبيل أعتاب أسيادهم ومن أوصلهم إلى الحكم.. عن واحدهم يقول الشاعر إنه منبطح ولو كان في القمة:

قوم إذا قعدوا في منصب شمخوا   ناسين كم قرعوا بابًا وكم ركعوا
إذا تولّوا على أحبابهم، ضربوا   وإن تبدّت لهم أربابهم خضعوا

الأديب والشاعر اللبناني الجنوبي نزار الحر

حين الحديث عن الأدباء والشعراء اللبنانيين وخاصة «الجنوبيين منهم»، لا بد لنا من وقفة مطوّلة مع الأديب والشاعر اللبناني الجنوبي نزار الحر. الذي أعرفه شخصيًا وأعتز بصداقته... ولمن لا يعرف عنه ما يكفي أقول:

هو إنسان متواضع رقيق محب مرهف الحس.. رسخ نفسه وشعره حرًّا كاسمه..

هو ليس مدينًا لأحد من السياسيين والنافذين بدليل أن القارئ لشعره (لدواوينه الثمانية)، لا يجد فيها بيتًا، أو قصيدة مدح في أي من الزعماء قديمهم وحديثهم.. لذلك جاءت قصائده بعيدة عن الالتزام بأي تيار آني، أو حركة ناجمة عن العاطفة والهوى تزلّفًا أو تكسبًا.

ونزار الحر.. خصّ الوطن، وجيش الوطن، والمقاومة الوطنية بصفحات مشرقة من الشعر المقاوم والأناشيد الوطنية والعسكرية. وحاز عن جدارة على عدد من الأوسمة وشهادات التقدير.. ولشدة رقته تغنّى بالعديد من قصائده الغزلية والعاطفية وأناشيده الوطنية كبار المطربين والمطربات في العالم العربي.

وإثباتًا لشاعريته خاض وأبدع في فنون ومرامي الشعر السامية ووضع أناشيد قوى الأمن الداخلي والأمن العام والصليب الأحمر وحركة أمل، وتغنى كثيرًا بوطنية وتضحيات وشهامة الجيش اللبناني ونال تهنئة رئيس الجمهورية العماد إميل لحود، وقبله الرئيس الياس الهراوي ومنحاه وسامين عاليين تقديرًا لشاعريته ووطنيته.

(نال وسام الأرز الوطني عام 2000 ووسام الاستحقاق اللبناني عام 1994...).

يقول نزار الحر:

يكفيني فخرًا أن كلماتي تُغنّى بحناجر عمالقة الغناء، وعلى رأسهم

وديع الصافي، وصباح، وسعاد محمد، ونجاح سلام، ونور الهدى، وسميرة توفيق...

ويتابع نزار الحر قائلاً:

يكفيني فخرًا يا صديقي أنني عايشت فطاحل الأدب والشعر والزجل.. وكان لي مطارحات شعرية وصولات وجولات.. مع فحول أمثال بشارة الخوري (الأخطل الصغير) والجواهري وبدوي الجبل وعمر أبو ريشة وأحمد الصافي النجفي وأمين نخلة وسواهم.

ونحن نتحدث عن هذا الشاعر الجنوبي الرائع لا بد من الاعتراف بأنه نسيج وحده، إنه يجد نفسه نبعًا لا يستطيع أن يحبس ماءه وتدفّقه لمزيد من النماء والعطاء. وحين تسأله عن نفسه يقول أنه متبتّل في محراب الشعر، وإنه لا يمرُّ بحالة إلا ويشعر بعطش للتعبير عنها.

أخيرًا وليس آخرًا، فشاعرنا الكبير عضو اتحاد الكتاب اللبنانيين، وعضو المجلس الثقافي الجنوبي والرئيس الفخري لجمعية المؤلفين والملحنين. يعمل في الصحافة اللبنانية منذ الخمسينيات.

ولشاعرنا في كل موقف كلمة حرَّة...

وهذه بعض من أشعاره، فتحت عنوان «ولا هم سامعون»، يقول نزار الحر:

لعنة الله عليهم أجمعينا   ما بهم نحن تُرانا فاعلينا؟!
فقدوا كلّ اعتبار وبدا   كلهم في أعين الناس معمهينا

ويتابع قائلاً بعجب واستهجان:

عجبي من وطنٍ فيه نرى   ساسة تشرى وشعبًا مستكينا

وبه نُبصر ساطين على مال هذا الشعب ليسوا آبهينا
في البدايات بزيِّ الأوفياء تزيَّوا وتناهوا سارقينا

وفي قصيدة أخرى تحت عنوان (إني لأعجب من شعب):

إني لأعجب من شعبٍ يجوع ولا يهبُّ مقتحمًا أبراج حكّامه
إني لأعجب منه كيف يُقعده يأس ولا ينتهي فتكًا بظلاّمه

ويتابع:

تبًّا لساسته المستعبدين له والطوق في عُنقه والنكس في هامه
أيامه البيض صارت جدّ قاتمة فيهم وكم يشتكي من سود أيامه

ويتابع:

يا ويله هل تُرى تقوى شكيمته ويشتفي من مذلّيه بإقدامه
وينتهي كلُّ جبّار بلا أسفِ وتطهرُ الأرضُ من آثار آثامه

ويصرخ الحرُّ... تحت عنوان (قادة العرب):

أنتم يا قادة العرب أمركم يدعو إلى العجب
جُلُّكم في الغيّ موغلٌ وبكم ما أضيعَ النسب!
فِعلُكُم بالفِعلِ شائِنٌ مثلكم لن يبلغ الأرب
صرتم أشباه ساسةٍ بلقاكم ليس يُحتَسَبُ

ومما أبدعه شاعرنا الكبير نزار الحر...

جور علـى ذا وتـعـفـيـر الـجـبـيـن لـذا كـنـائِـم الـسـطـح مـطـروح ومـرتـفـع

أما في سوريا، فقد نبت العشرات من الشعراء الساخرين الظُّرفاء، منهم بدوي الجبل الذي اعتُبر أحد عمالقة الشعر الكلاسيكي المعاصر. وكان قاسيًا في هجائه الساخر حين قال على أثر هزيمة 1967م:

إســـفـيـــن دُقَّ بـــأســـفـــلـــنـــا مـــن شـــرم الـــشـــيـــخ إلـــى ســـمـــع

والشاعر من مواليد محافظة اللاذقية عام 1903.

■ أما فخري البارودي المجاهد الوطني (1886 ـ 1966) فقد توفي قبل هزيمة حزيران 1967، وعنه يقول الكاتب هاني الخير[5]:

كانت شعبيته الكبيرة في الشارع الدمشقي ترجع أساسًا إلى قدرته الخطابية إلى جانب حماسة البالغة. كان يتقن أسلوب استخدام لغة التخاطب مع الجماهير وكان يحمل خطبه بالنوادر ويعرف كيف يضحك جماهيره.

وكان البعض في سوريا يميل إلى اعتبار فخري البارودي نكتة وطنية ويقولون إنه سياسي غير جاد ـ ومع ذلك أثبتت قدرته وشعبيته لدى الجماهير من على منصَّة الخطابة مما جعل حماسة الناس له يفوق قدراته السياسية.

■ وللأردن في ميدان السخرية حصّة. نختار من نوابغها الشاعر الساخر مصطفى وهبي التل الملقب بـ«عرار» الذي سُمي «شاعر التمرد» و«صاحب النَّور»، و«رفيق الصعاليك». وهو من مواليد إربد[6] سنة 1899. وقد مرّ ذكره معنا.

كان سخط «عرار» على مجتمعه كبيرًا، وكانت سخريته أكبر من سخطه. هاجم الفساد، والعادات البالية والمرابين والجشعين، ولم

يسلم من لسانه الساخر حتى الأطباء ـ حيث قال فيهم، وقد نهوه عن شرب الخمر..

قال الأطباء لا تشرب فقلت لهم   الشرب لا الطب شافاني وعافاني

سعى «عرار» قبل وفاته عام 1949 إلى المدينة الفاضلة، وقد رأى في الغجر (النور) مجتمعًا وتقاليد ومناخًا نفسيًا يقارب المدينة الفاضلة فقال مسميًا إياهم بالخرابيش:

بين الخرابيش لا عبد ولا أمة   ولا أرقاء في أزياء أحرار
ولا جناة ولا أرض يضرجها   دم زكي ولا أخاذ بالثار
بين الخرابيش لا حرص ولا طمع   ولا احتراب على فلس ودينار
الكل زط مساواة محققة   تنفي الفوارق بين الجار والجار
بين الخرابيش لا كذب ولا ملق   ولا وشاة ولا روّاد أخبار
بين الخرابيش لا حبر ولا ورق   ولا يراع ولا تدوين أسفار
ولا سفاسف كتب أذهبت عمري   قراءة بين توريد وإصدار

■ أما بيرم التونسي (1893 ـ 1960) فهو فنان الشعب ذو الموهبة الخصبة الغزيرة. وقد ترك خلفه آلاف القصائد والمقامات والمسرحيات والتمثيليات... وهو صاحب الثقافة الواسعة، التي نهلها من حفظ القرآن الكريم، والشعر العربي القديم، وكنوز التراث.

«وهو من الذين لم ينظروا إلى الفن على أنه مجرد لغة أو وسيلة ترفيه ولكنه أداة تغيير وتحرر، فقد ارتبط بالناس، وجنَّد قلمه من أجل الدفاع عنهم والعمل على تبصيرهم بكل الأمراض التي تهدد مستقبلهم. وهو فوق كل هذا من أبرز شعراء مصر الذين اشتركوا في الكفاح الوطني وناضلوا ضد الاستعمار والاستغلال والقصر.

ودفع ثمن ذلك عشرين سنة في المنفى بعد أن طرده الملك فؤاد، وأصدر أمرًا بترحيله إلى فرنسا، ليتحمَّل من أجل الكلمة الشريفة مرارة الجوع والتشرد في شوارع ليون ومارسيليا وباريس».

كان بيرم التونسي يحنّ بقوة إلى مصر وخاصة إلى الأحياء الشعبية ونهر النيل، وهذا ما دفع به إلى السخرية بتورية، من إهمال الحكم والدولة للنيل الخالد، هذه الثروة الطبيعية التي حباها الله مصر ويتمنى يومًا يزول به هذا الحكم «شدّة وتزول» ومن وراءه من المستعمرين دون أن يذكرهم.. حين يقول:

عطشان يا صبايا عطشان يا مصريين
عطشان والنيل في بلادكم متعكّر مليان طين
ولا نهر الرين يرويني ولا مية نهر السين
ودموع العين ما بتروي نار القلب الحزين
شدّة وتزول يا معوض سبحانه رب يعين

وعلى الرغم من أن بيرم التونسي اهتم في مطلع حياته بكتابة الزجل والشعر والقصة، إلّا أن شهرته كزجّال فاقت كل الألوان الأخرى، وأصبح أسلوبه اللاذع، ومعانيه الصريحة الواضحة تجذب جمهورًا عريضًا من الذين وجدوا فيه مدرسة جديدة في فن الزجل.

الأولة آه، والثانية آه والثالثة آه
الأولة، عيروني إن إنا فلاح
والثانية أزرع واقلع للي نام وارتاح
والتالتة آه اللي احبه شط مني وراح
الأولة عيروني إن انا فلاح بدفيه
والثانية أزرع واقلع للي نام

وارتاح في دهبيه
والتالتة آه اللي احبه شط مني
وراح ـ في صبيحة
. . . .
الأولة مش بإيدي قضا محتوم
والثانية ومسيرها ناس تفرق وناس حا تقوم
والتالتة ميت هم يرحل ألف هم يدوم
الأولة آه
والثانية آه
والتالتة آه

الزجل الارتجالي الناقد في لبنان أو التعبير عن واقع الحال بالأزجال

بالعودة إلى لبنان، نجد أن للزجل تأثيراً على الناس لا يضاهيه سوى تأثير النكتة في مصر. فالزجل في لبنان هو جزء من حياة الشعب اللبناني وتراثه.

وقد عالج الزجل كل المواضيع الاجتماعية، وتطرّق إلى السياسة، وجعل منه واضعوه «مرآة» لهموم المجتمع وأوجاعه. يقول جوزف أبو ضاهر[7] عن شعراء الزجل:

■ من أبرز شعراء الزجل في لبنان الذين كانت السياسة في دمهم وبالتالي خبزهم اليومي، النائب والوزير السابق «إميل لحود» 1898 ـ 1954 وهو سليل الدوحة اللحودية العريقة في المتن وعم العماد «إميل لحود» قائد الجيش الأسبق ورئيس الجمهورية السابق. وقد اشتهر إميل لحود (العم) ببلاغته، وطلاقة لسانه وطرافته، بالإضافة

إلى سعة صدره وتحمله النقد الطريف، وسرعة بديهته بما هو أطرف منه وأبلغ.
على أثر تولّي كميل شمعون رئاسة الجمهورية اللبنانية عام 1952 كلّف الأمير خالد شهاب برئاسة الحكومة، وكان رجلاً طيبًا لا يتمتع بالسطوة المألوفة عند الزعماء، وقد أتى بحكومة على طرازه، أي من خارج النادي السياسي المعروف في حينه، وقد سمّى وزيرًا شابًا جديدًا على السياسة متعلمًا هو الدكتور سليم حيدر، والسيد موسى مبارك الذي وزّر لأول مرة مما أثار حفيظة السياسيين التقليديين الذين عبّر إميل لحود بلسانهم قائلاً متهكمًا:

مهما تصبر وتجالد بهالعهد منحكي مجالد
العهد تغنّى وتكنّى حتى جاب المير خالد
وصار يتشكى ويتغندر ومنشان توسيع البيدر
وزاد البيدر بمبارك والفلّة بسليم حيدر

ولم تكن هذه هي المرّة الأولى التي يتهكم بها لحود على الحكومات، فقد سبق له ذلك بزمن، أن أعطى رأيه بعبد الله اليافي الذي شكّل أول حكومة في حياته سنة 1937 حيث قال:

اليافي طالع عا بالك تركب والأرز قبالك
بحياة الله ودخل الناس خبّرني مصدّق حالك[8]

بحياة الله ودخل الناس طالع براسو وسواس
ع مين تركت المكتب ودشّرت قضايا الناس[9]

قالوا روكز بالنيّة متعبّط بالعدلية[10]
منشان حفظ موال الناس لازم يعطوه المالية[11]

كنت محمّي حديدك ع الداخلية وجريدك
صفّيت مثل منام فضّول وعيت ومتاعك بإيدك[12]

بيروكز بذّلتوني وبالوزارة نكبتوني
قال عنو بيبلع عامود بيبلع «مورس» و«مركوني»[13]

أما أطرف ما قاله إميل لحود على الإطلاق في مجال السخرية من السياسيين فهو بيتان من الزجل ارتجلهما بعد زيارته لمنطقة الهرمل في الخمسينات وكان زعيمها الراحل صبري حمادة رئيسًا لمجلس النواب. وهذان البيتان لا يزالان يترددان على ألسنة اللبنانيين حتى يومنا هذا:

طريق الهرمل عالميلين كل جورة فيها مترين
لو كان (. . .) مطرح صبري كان زفّتها من سنتين

■ أما فارس جبرا فهو شاعر زجل يجهله الكثيرون لأن شعره بقي بمعظمه بعيدًا عن النشر، والسبب هو انتقاده الفاضح لرجال السياسة ورجال الدين. وقد دخل السجن عام 1959 بسبب قصيدة هجاء. قال فارس جبرا مرّة في سياسي مهووس بحب النياشين، دعي إلى حفل رسمي، فوقع في حيرة! أي نيشان يختار؟ الأكبر. . . ولكن «فارس جبرا» يكمل القصة:

حط نيشان وشال نيشان ت حضي بنيشان كبير
بيوزن وقة بالميزان وشريطه مترين حرير
لقحوع صدرو وفزعان صار خايف إنه ما يبان
بان ولكن، بعدو زغير

وفي العام 1943 اتهم أحد رجال الدين بالتلوّن في سياسته. فرسمه

فارس جبرا «بقرّادية»:

مطران صاحب سيادة تمو نبعة مبادي
ما بين الفيّ والشمس أحمر أخضر ورمادي

من عبكرا قداسي وبعد القداسي؟ سياسي
ومن بعد منها ناسي البيعة ووصايا الفادي

■ ونحن نعبر جنان الزجل اللبناني خاصة ذا الطابع السياسي لا يمكننا إغفال أسعد سابا (1913 ـ 1971) الذي انتُخب عام 1940 رئيسًا لجمعية الزجل اللبناني. انتقد سابا السياسيين وحمّل شعره أحيانًا فوق طاقته وقسم كبير لا يُستساغ نشره...

قال في إحدى قصائده التي يسخر بها من أحد الزعماء السياسيين وكان بدينًا وأصلع:

واوي وأكل ترنيخة مرنّش ومقفقف ع وجاق
مخو متل البطيخة القرعة ما بدّا حلاق

بيكره كل الموهوبين الشاطر بيعدّو وقواق
بيتلولق ع الكذابين وهو (شاهنشاه) نفاق

■ أما «جرجس أبو شبكة»، وهو من مواليد كسروان 1923 والذي اشتغل مذيعًا لفترة طويلة فقد اشتهر بروحه الساخرة وبزجله الانتقادي الظريف ونشر مجموعة قصائد في مجلة «الدبور» متناولاً المواضيع العامة والخاصة[14].

ومن أجمل ما قال «أبو شبكة» في باب انتقاد الدولة والضريبة

ورجال السلطة قصيدة بعنوان «ورقة ميّة» نختار منها ما يلي. . .

ضريبة دخل وتعتير — من عدا دفع الإيجار
حراسة وكناسة وتنوير — ومراسيم الدولة كتار
شغلتنا شقا وتعتير — وقبرنا الفقر بهالكار
يومية «كروز» سواكير — من عبكرة لعشية

الضريبة مندفعها منين — لحضرة جناب الشاويش
اللي بيتاجر بالدين — يدفع للدولة ما فيش
ما بقي اللي إيدين — تفرشي طقومي وطرابيش
والصبي يناقرع العين — ت يسقي الأفندية

وللزجل اللبناني ملوك وأمراء، ولو أن بعضهم تجنّب السياسة التي هي موضوعنا في شعره. . إلّا أنه من الجهل إذا لم يكن من التجاهل عدم ذكر الشاعر الملهم أمير القوافي **أمين نخلة** الذي حلّق عاليًا في كل أنواع الشعر وعَروضه، كما لا يمكن إغفال اسم **أسعد الخوري الفغالي** (1894 ـ 1937) **الملقّب بشحرور الوادي** نسيب الفنانة الكبيرة صباح، وكان حقًا أميرًا من أمراء الزجل، ورغم أن السياسة قلّما دخلت في شعره، فلا بد لنا من ذكر أجمل وأبلغ بيتين من الزجل قالها الشحرور في مدح بلدة دير القمر. . وهي:

الشمس في الأفلاك عملت مؤتمر — وقررت ترك الكواكب والقمر
ونزلت عا سطح الأرض تعمل راهبة — عا شرط يبقى ديرها دير القمر

ولأسعد الخوري الفغالي «شحرور الوادي» زاوية مضيئة في تاريخ الأدب الشعبي اللبناني، وقد قيل فيه إنه كان سيد مواقفه على المنبر وفي شتى المناسبات.

فلو تحدثنا عن الانقسامات الطائفية في لبنان لوجدنا أن أسعد الخوري الفغالي واحد ممن حاولوا معالجة هذه الآفة التي حاول آخرون معالجتها بالاتكال على كلمات أصبحت غير فعّالة ـ كالوحدة الوطنية ـ واللبنانيون أخوة ولو افترقوا إلى طوائف ومذاهب.

لقد أثبت شحرور الوادي أنه كان الأجرأ في التصدي لهذه الآفة المزمنة بحيث وضع النقاط على الحروف بلا مناورة ولا مداورة، وهو الذي ينسب إليه أنه قال يومًا في إحدى المناسبات وفي حضور أبيه الخوري لويس الفغالي «خليل سمعان» واصفًا اللبنانيين في ذلك الزمان:

النصراني إن صاروا ملاح رزقاتو بيقعد يرتاح
والسنّي بيروح بحج حتى بصير من الصلاّح
والمتوالي بيتجوّز والدرزي بيستقني سلاح

فقاطعه أبوه الخوري لويس الذي كان شاعرًا هو الآخر وقال:

بيكفي يا أسعد سكّر عالباقي وخبي المفتاح

فقال أسعد:

الكذب بيرضي كل الناس بس الحقيقة بتجرح
شو بدي خبي وبيتي مغارة ما إلها مفتاح

فأي مغارة كانت تلك التي عناها شحرور الوادي في كلامه في ذلك الزمان؟

ومات الشاعر شحرور الوادي سنة 1937 فندبه شعراء الزجل كثيرًا. ومن بليغ ندبهم قول أحدهم:

شحرور مدعو عا السما واللي دعوك
جبران ولامارتين والشعرا الملوك
اختلفوا على عرش الإمارة في السما
وودوا وراك عالعرش حتى ينصبوك

■ أما إذا استثنينا الحديث عن نخوة الرجال وصون الحرمات، فلا بد لنا من تذكّر القاضي زين الدين الذي حُفظ اسمه من خلال تسمية أحد الجسور باسمه «جسر القاضي».

فما هي قصة جسر القاضي؟

يقال إن القاضي زين الدين التنوخي أحد أمراء لبنان في القرن الخامس عشر كان بصدد إنشاء مطحنة له فوق مجرى نهر الصفا. وقد أحضر العمال والمواد اللازمة لذلك حين أرادت امرأة أن تعبر فوق النهر وشمّرت عن ساقيها لئلا يبتل ثوبها، ولما رأت العمال ينظرون إليها خجلت وأرخت ثوبها فتبلل.

قيل إن القاضي زين الدين أخذته النخوة «نخوة الرجال» حيث سمع الخبر فأوقف العمل في بناء المطحنة وبنى جسرًا عوضًا عن المطحنة حتى لا يبتل ثوب أي امرأة أخرى. وسمي الجسر باسمه إلى يومنا هذا..

وفي مقهى شعبي متواضع قرب «جسر القاضي» كانت فرقة شحرور الوادي تحيي إحدى حفلاتها حين نظر شحرور الوادي إلى الجسر وقال:

يا جسر من بين الجسور بتنعرف   بفضل قاضي العمّرو، الدهر اعترف
من أجل حرمة النهر بلل ثوبها   عمّرو حتى يحافظ عالشرف

فقال الشاعر علي الحاج مخاطبًا القاضي زين الدين باني الجسر:

بالمطحنة ضحيت تتصون الأدب ونسيت أن المطحنة «مزراب ذهب
من دون نهر اليوم صاروا يشمّروا النسوان عن سيقانهم يا للعجب

أما الشاعر أنيس روحانا فقال:

بدّك تعمّر جسر تتخلّص مرا من العيب، شفتا من بعيد مشمّره
مهندس غشيم والملتزم مش مستقيم بيروح نص المال هدر وسمسره
العمران شو ما صار واجب أوّلي حتى جيوب الناس ترجع تمتلي
لو كل قاضي شاف حرمة مشمرة بدّو يعمر جسر «يا ليلى انخلي»

ستون ألف حمار في لبنان؟!

حكي أن بعثة النقطة (البعثة) الرابعة الأميركية التي أرسلتها الولايات المتحدة الأميركية إلى لبنان في الأربعينيات لتطوير الزراعة في لبنان، قد أنفقت بعض أموالها وجهودها في الإحصاءات لكي تبني على الشيء مقتضاه.

وجاء أخيرًا تقريرها النهائي وفيه أن عدد الحمير في لبنان «يناهز الستين ألف حمار» مع توصية بتحسين نسل الحمير وتطوير أنواعها في البلاد (لبنان).

وقيل إن تقرير النقطة الرابعة الأميركية أغضب الشاعر **يوسف عون** فقال:

قالوا النقطة الرابعة وذت خبير نمشي برأيو عند تقرير المصير
بدّو يعد رجال من أهل الكمال وليش حتى بلّش بعدّ الحمير

فتناول **أبو ملحم** (أديب حداد) موضوع تقرير النقطة الرابعة الأميركية وأجاب:

ستين ألف حمار هالمبلغ كبير	**يمكن يكون غلطان بحسابو الخبير**
لما بدا يعد الرجال يمكن يكون	**تغلبط ببعض الناس خمنهم حمير**

أما **النقيب رياض طه** الصحافي اللبناني الشهير الراحل فعلّق يومئذٍ بكلمة حيّا فيها جهود النقطة الرابعة التي استطاعت أن تحصي لنا عدد الحمير في لبنان، في حين يتعذّر علينا إجراء أي إحصاء لعدد اللبنانيين بعد آخر إحصاء رسمي سنة 1932.

وبعد الزجل يأتي الشعر الشعبي غير الموزون بالضرورة، والذي يمكن وضعه بين الكلاسيكي والزجل الآنف الذكر.. وأبرز من حلّق في هذا المجال، خاصة السياسي منه، هو **عمر الزعني** (1895 ـ 1961) وقد تركنا عمر الزعني لآخر هذا الفصل لكون هذا الشاعر الخالد يستأهل لوحده مؤلفًا بعد أن ملأ الدنيا، وشغل الناس بشعره التهكمي السياسي الذي طالما عبّر عن مشاعر الشعب في عهدي الانتداب والاستقلال. وعمر الزعني كان شاعرًا متعلمًا حاز شهادة الحقوق.

سجنه الرئيس بشارة الخوري عام 1949 لمدة خمسة وأربعين يومًا بسبب قصيدة «جددلو» وهي من أروع قصائده التهكمية السياسية حيث إن رئيس الجمهورية في ذلك الحين، وقد قاربت ولايته على الانتهاء سعى من خلال النواب إلى التجديد لست سنوات أخرى، نجح في البقاء في السلطة لمدة ثلاث سنوات منها إذ اضطُر إلى الاستقالة عام 1952 على أثر نقمة شعبية عارمة.

بلغ مجموع القصائد السياسية التي قالها الزعني وردد الناس معظمها.. **أكثر من مائة قصيدة**[15]. نختار منها لضيق المجال مقتطفات من ست قصائد، تمثّل قمة التهكّم السياسي وكان لها الأثر الكبير في تحريك الجماهير بعد شحنها نفسيًا، لا سيما أن كان دورها تحريك الألم في نفوس الناس لطابعها **الحزين، وليس إضحاكهم**...

وقد كتب الدكتور فاروق الجمّال مؤلفًا كبيرًا عن الراحل عمر

الزعني يعتبر مرجعًا أساسيًا لدراسة هذا الشاعر العظيم[16].

في بداية انطلاقته الشعرية وعلى أثر الحرب العالمية الأولى عام 1918 قال الزعني قصيدة «الدنيا قايمة» وفيها:

الدنيا قايمة والشَعْبْ غافل
راحت بلادكم ما حدا سائل
الحق عليكم والا عا مين؟

شوفوا البلايا شوفوا الرزايا
والشعب قايم على الملاية
نسيو الحماية، نسيو الوصاية
ما حدا فاهم إيه الحكاية
والطاسة ضايعة، يا مصلحين

عيونكم نايمة يا رجال غليظة
والدم فاير زي الكازوزة
قمتو عا حيلكم عالعنطوزة
وهمّتكم رخوة زي البالوظة
بتبيعوا الأوطان بسلة تين

إلى أن يقول:

كل البلية من الأجانب
افتروا علينا زي الثعالب
يفرقونا شوفوا المصايب
يعلمونا كل المعايب
قوموا عليهم يا مصلحين

أما قصيدة «بدنا بحرية يا ريس» التي نظمها عام 1926 مخاطبًا بها رئيس الجمهورية آنذاك شارل دباس فقد ترددت على ألسنة الناس خلال عقود طويلة من الزمن وفيها يقول:

بدنا بحرية يا ريس
صافيين النية يا ريس
بزنود قوية يا ريس
أبدًا ما تحلّس يا ريس

البحر كبير يا ريس
بحرية حمير يا ريس
فرحان كثير يا ريس
لأنك ريس يا ريس

العنبر فاضي يا ريس
والعمر ماضي يا ريس
والقاضي راضي يا ريس
لأنك ريس يا ريس

ما في صابورة يا ريس
ولا شابورة يا ريس
بس قاعد صورة يا ريس
وبالاسم ريس يا ريس
إلى أن يقول:
أمر الله وحكم يا ريس
وعطيوك العلم يا ريس

وبغطّة قلم يا ريس
عملوك ريس يا ريس

كما اشتهرت في تلك الفترة قصيدة «حاسب يا فرنك» وبها يخاطب الفرنك الفرنسي عملة لبنان في ذلك الحين، وكان قد ارتفع سعره وسبَّب بذلك مشكلة اجتماعية. وبها يقول:

حاسب يا فرنك يا فرنك حاسب
فهّمنا فين بعدك ساحب
ما خليت لا محب ولا صاحب
أهلك جفوك والأجانب
فرحانين، شمتانين
ناويين محوَك، ما بناسب
يا فرنك دخلك حاسب

حاسب يا فرنك وشوف بقى شو وراك
تسعين مليون رايحين في هواك
ما عاد إلهُم معين سواك
عايفين سماهم دخيل سماك
صفرانين.. حيرانين..

أما قصيدة الزعني في شارل دباس أول رئيس للجمهورية اللبنانية زمن الانتداب 1926 فتخللها الكثير من الطرافة والشفقة على رئيس نزيه إنما لا حول له ولا قوة:

يا هو يا ناس
مسكين الدباس

لا باع بلاده
ولا ضر الناس

من سبع سنين
قاعد مسكين
لا خالف مذهب
ولا خالف دين
لا هدّم شارع
ولا شيّد جامع
ولا هدّ كنيسة
ولا شال شماس

وينهي قصيدته هذه متهكمًا على المفوض السامي الفرنسي صاحب الشأن والسلطة الحقيقية في البلد دون أن يسميه حين يقول:

في إيد من فوق
بتمشّي الجوق
إن خالفوها
بتشد الطوق
بطّير الريّس
بتحل المجلس
بتهد أركانه
من الأساس

أما خاتمة القصائد والتي أودت بعد ثلاث سنوات من ترديدها على ألسنة الناس بحكم الرئيس بشارة الخوري الذي اتهمه الزعني مع حكمه بالفساد، وغمز بها من قناة السيدة الأولى التي «شبعت سفر» وابنه خليل

«نال الوطر» وإخوانه الذين يقصد بهم الشيخ سليم الخوري الذي لُقِّب بالسلطان سليم لسطوته ونفوذه الذي يتجاوز نفوذ رئيس الوزراء في حينه، وبطل الاستقلال رياض الصلح، والذي كان السبب الرئيسي في الخلاف بين ركني الاستقلال بشارة ورياض، . . فكانت ولا ريب قصيدة «جذِّدلو» حيث أودت بصاحبها كما ذكرنا إلى إقامة طويلة ليست بالمريحة في سجن الرمل المشهور في ذلك الزمن. .

وها هي القصيدة كما هي:

جدّدلو ولا تفزع
خلّيه قاعد ومربّع
بيضل أسلم من غيره
وأضمن للعهد وأنفع

تاري حساب السرايا
غير حساب القرايا
في الزوايا خبايا
وفي الخبايا بلايا
بيّن سوء النوايا
والمطران فقص المدفع

وش عرفناه وجربناه
وعرفنا غايته ومبداه
ووافق هوانا هواه
قدام خصمه يا محلاه
ما زال ظهرت نواياه
ما عاد في مانع يمنع

لا تخاف إلا من الطفران
الطفران غلب السلطان
المحروم والجوعان
بيضل بمالك طمعان
أما المليان والشبعان
من لقمة صغيرة بيشبع

هو بأمنيته ظفر
ومدامته شبعت سفر
والمحروس نال الوطر
وإخوانه شبعوا بطر
ما عاد في منهم خطر
ما عاد إلهم ولا مطمع

ذاتًا ما خلى جواهر
ولا مخلفات عساكر
ميرة وكوتا عالآخر
وفرغت كل العنابر
وانقطع القطع النادر
والتابلاين مد قساطر
ما عاد ممكن حدا يبلع

هوامش

1 ـ رياض حنين، نكات خازنية، الجزء الرابع.
2 ـ علي مروة، روائع الأدب الفكاهي العاملي، ص 81.
3 ـ سولوميقي ـ مندوب المفوض السامي.
4 ـ مقال للدكتور حسن موسى ـ مجلة الشراع 26 آب 1996.
5 ـ هاني الخير، مشاهير وظرفاء القرن العشرين، دار الكتاب العربي، دمشق، ص 103.
6 ـ إربد ـ بلدة أردنية. راجع المزيد من المعلومات، هاني الخير، ص 79 ـ 81.
7 ـ جوزيف أبو ضاهر، شعراء ظرفاء، دار كنعان، بيروت.
8 ـ كان عبد الله اليافي حديث السن وحديث العهد بالسياسة.
9 ـ وكان قليل العمل في المحاماة وحديث العهد فيها.
10 ـ وكان يتشبث بها فلم يُفلح
11 ـ وكان مشهورًا عنه أخذ المال.
12 ـ لم يعطَ إلا وزارة البريد والبرق، والبيت إشارة إلى رجل اسمه فضول حلم أنه قبض 99 ليرة وأراد الحصول على المئة. ولما أشرف على الاستفاقة من نومه رضي بالـ99 ليرة ومد يده ليتناولها فإذا به يفيق ويده قابضة على ذكره.
13 ـ كان الشيخ فريد الخازن يقول: أعطوا روكز وزارة البريد حتى لا يستطيع البلع لصعوبة بلع عواميد التلغراف.
14 ـ أبو ضاهر ـ جوزيف، المرجع السابق.
15 ـ لعمر الزعني عشرات القصائد السياسية التي يصعب جمعها دون استثناء في خانة السخرية السياسية.
16 ـ الجمّال فاروق، عمر الزعني «حكاية شعب» منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت 1983.

الفصل السابع

السياسة في الكاريكاتور

السياسة بالكاريكاتور

تُعتبر مؤسسة «غالوب» Galop الأميركية من أهم مؤسسات استطلاع الرأي في العالم، إذا لم تكن أهمها على الإطلاق. وكثيرًا ما يعتمد الأميركيون إحصاءات هذه المؤسسة لقياس آراء الجماهير بموضوع معين، ابتداءً من الانتخابات الرئاسية، وانتهاءً بتشريع الإجهاض، مرورًا برأيهم بوجبات «الهامبرغر» التي تقدمها مطاعم ماكدونالدز. وللدلالة على أهمية هذه المؤسسة، سُئل الرئيس الأميركي جيمي كارتر ذات مرة أثناء مقابلة تلفزيونية أجرتها معه شبكة NBC، الأميركية سؤالاً أضحك جوابه الأميركيين طويلاً، وذلك خلال شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 1979. إذ فاجأه المذيع بالسؤال التالي:

- هل لا تزال مسز كارتر تحبك سيدي الرئيس؟

فأجاب الرئيس بسرعة، وبعفوية ظاهرة: «According to Galop, Yes» أي استنادًا إلى استطلاعات «غالوب» الجواب هو نعم.

وفي ما يتعلّق بالكاريكاتور، توصلت مؤسسة غالوب في استطلاع أجرته في حزيران/ يونيو 1995 إلى أن عدد مطالعي الكاريكاتور بالنسبة إلى سائر مواد التحرير في الصحف قد ازداد بنسبة أربعة إلى واحد. وهذا الأمر يدل على مدى نجاح هذا الفن في إرضاء ذوق الجماهير، وتأمين فسحة من الراحة والحرية، يجد فيها القارئ متنفسًا له.

لم يتصل بعلمنا أي إحصاء أو استطلاع أجرته مؤسسة مماثلة في البلاد العربية، إلّا أن سؤالاً طرحناه على عشرات الأشخاص من قارئي الصحف في لبنان، ومن مختلف المستويات الثقافية عن أول ما يلفته في

الصحيفة؟ أجاب حوالي 80% منهم «الكاريكاتور» و15% أجابوا أنها صفحة الوفيات، ثم الكاريكاتور، ولم يزد عدد الذين يهتمون بالمقال الافتتاحي على 5%.

فالصورة الكاريكاتورية تضاهي في كثير من الأحيان مقالة رئيس التحرير أو المعلّق اليومي، فتجد غالبية القراء المطّلعة تلقي نظرة سريعة على المانشيت، وعنوان الافتتاحية، ثم تنقل نظرها إلى الرسم الكاريكاتوري حيث يتمعّن فيه القراء ويستوعبونه ويفهمون خلفياته ومقاصده، كل حسب ثقافته، ومعتقداته.

ولا يقتصر هذا الاهتمام على قرّاء الصحف، فمنذ أن شرعت بعض محطات التلفزة في لبنان، خاصة الـ LBC والـ MTV والـ NTV، باعتماد الكاريكاتور في نهاية نشراتها الإخبارية، بدأ المشاهدون يبدون اهتمامهم بهذا الفن الساخر، فتجد الذين يتلهون عن سماع أخبار العالم وتصريحات الساسة بأحاديث خاصة، يتوقفون فجأة عن الكلام لرؤية «كاريكاتور بيار صادق» مثلاً في نهاية نشرة أخبار الـLBC، أو الإنصات إلى حوار المواطن اللبناني مع ساسته من خلال «الدمى كاتور» التي تبثها محطة الـ FTV (المستقبل) في نهاية كل نشرة إخبارية.

وعن فن الكاريكاتور نشرت صحيفة «البلد» اللبنانية مقالة «لأسماء وهبة» بتاريخ 28 آذار/مارس 2007 نقتطف منها ما يلي (بأسلوبنا وصياغتنا):

إن فن الكاريكاتور يمتاز عن باقي الفنون الصحافية، بأنه عالم مفتوح يسمح لأي قارئ الاطلاع على المشهد السياسي القائم، كما يعبّر بعمق عمّا آل إليه المزاج الشعبي تجاه سوء الفهم الناتج عن اختلاط الأمور السياسية بالاقتصاد والاجتماع. ويشكل نوعًا من الخروج على السلطة والمألوف في النقد بين التفسير والشرح.

وعليه فإن وصف الكاريكاتور بأنه نتاج عصر السرعة في الصحافة يكاد يكون الوصف الأقرب إلى الواقع. فهذا الفن يختصر حدثًا سياسيًا أو اجتماعيًا في صورة ناقدة، أو يصور شخصية سياسية في إطار ساخر

بناءً على موقف اتخذته إزاء قضية معينة، ما يعني استبدال الحبر الأزرق بالألوان والكلمات، بالخطوط والرسوم. كما يقدم الكاريكاتور جرعة عالية التركيز من وجبة نقدية ساخرة يسهر عليها الرسام ساعات طويلة باحثًا عن فكرة لامعة حتى يجسدها واقعًا فنيًا قد لا تستطيع المقالات السياسية تناوله.

ويطرح المقال السؤال التالي:

كيف ينظر الشارع اللبناني إلى الكاريكاتور؟

محاولةً الإجابة، تقول «فاطمة»: للأسف في لبنان لا ثقافة كاريكاتورية ربما بسبب افتقادنا للحس التوعوي لقيمة هذا الفن وما يقدمه لنا..

في حين يرى **رسام الكاريكاتور فادي**، أن الرسم الكاريكاتوري يمكن أن يصنع التاريخ. ويذهب إلى الاستشهاد بتأثير وفاعلية الرسوم الكاريكاتورية للفنان الفلسطيني ناجي العلي، الذي دفع حياته ثمنًا لمواقفه السياسية التي كان يبرزها في لوحاته ورسومه الكاريكاتورية.. أما المشكلة التي تواجه رسّام الكاريكاتور السياسي فهي الرقابة داخل المؤسسة الصحافية على الرسم الكاريكاتوري، وهو ما يحد من تلاوين ريشة الفنان وقدرته على الإبداع، فينعكس سلبًا على نقده الساخر الذي من المفترض أن يكون هادفًا.

أما رسام الكاريكاتور «**ستافرو**» فيقول:

> إذا راعى الرسام أحد السياسيين يصبح دجالاً مثلهم. «نحن اليوم نربي السياسيين». هكذا اختصر ستافرو المهمة الملقاة على عاتق الكاريكاتور السياسي،
>
> ويتابع:
>
> للأسف منذ القدم لبنان كما هو، لم يتغير، وكذلك السياسيون الذين يتوارثون السلطة والحكم. لذلك بات ضروريًا أن نعلمهم معنى الحضارة في التعاطي السياسي، بعد أن ضقنا ذرعًا من حفنة

منهم. فهم مجموعة من العملاء للخارج. يعملون على استغلال الشعب اللبناني الجائع لتحقيق مآربهم الشخصية». انطلاقًا من هنا يحدد «ستافرو» المهمة الموكلة بالكاريكاتور.

ويقول بيار صادق:

الكاريكاتور السياسي لم يدخل لعبة تصنيفات الإعلام... وبالتالي: «تقديم رسوم صادقة تتماهى مع الواقع الذي نعيشه، لأن الكاريكاتور يجب أن يكون لسان حال الناس. أما إذا راعى الرسام في نقده أحد السياسيين فسينتهي به المطاف إلى دجّال مثلهم».

ويرى الرسام الكاريكاتوري بيار صادق أن هناك خيطًا رفيعًا بين السياسة والمذهبية التي يجب أن يراعيها رسام الكاريكاتور في الوضع الراهن المشتعل الذي يعيشه لبنان، وهو ما يقيّد ريشته.

وهنا تكمن الخطورة «لأن الفنان عندما يمارس رقابة ذاتية على نفسه لدرجة تصل إلى حد الخوف من أن تكون صورته سببًا في إشعال فتنة ستتقلص مساحة حريته الإبداعية».

وعلى أية حال، فإن بيار صادق وستافرو لا يتوانيان عن نقد أي سياسي بعنف رغم رنين الهاتف الذي لا ينقطع محذرًا تارة، ومهددًا تارة أخرى.

الكاريكاتور «سلاح ذو حدين»

قبل الخوض في مضمار هذا العنوان، لا بد من الإشارة إلى أن أول ظهور لفن الكاريكاتور على الجرائد العربية كان عام 1877 على يد الصحافي والمسرحي والرسام «يعقوب صنوع»[1] وصحيفة «أبو نظارة». أما المطبوعة الثانية التي نهضت بالكاريكاتور فهي مجلة الصياد، التي استقطبت عددًا من مبدعي هذا الفن ومنهم:

«عبد الله الشهال» و«خليل الأشقر»، و«جان مشعلاني» والمُشار إليهما «بيار صادق» و«ستافرو». . .

والكاريكاتور سلاح ذو حدين فيقول فيه الرسام أرمان حمصي إن الكاريكاتور فن يرصد الحياة الاجتماعية، والسياسية، والثقافية. يسلّط الضوء على مكامن الخطأ، ولا يضع حلولاً، بل يتجه أحيانًا نحو التحريض ضد ظاهرة ما مثل الاحتلال والاستبداد. «فالسخرية سلاح ذو حدين حيث تحمل أثرًا نفسيًا جيدًا لمن يمارسه وعلى من يمارسه».

إلّا أن السؤال الهام الذي يُطرح: من هو جمهور الكاريكاتور السياسي؟ وهل يشبه جماهير الشاشات التلفزيونية والصحف التي فرزت طائفيًا وسياسيًا في لبنان؟. . .

وعن جمهور الكاريكاتور يرى «أرمان حمصي» أن لفن الكاريكاتور السياسي أوسع قاعدة جماهيرية بين الفنون التشكيلية، بما يتمتع به من خفة دم، وطريقة رسم محببة للجمهور لأنه لا يحتاج إلى الكثير من الثقافة لاستيعابه.

ولا بد من التذكير (الإشارة) هنا إلى أن الصورة أكثر قدرة على رسم الحدث السياسي. وأكثر تمكنًا وتمترسًا في الذاكرة. . (وهذه مسألة سيكولوجية). ويبقى السؤال:

هل امتد عبق السياسة الضاغط إلى فن الإضحاك الساخر فحوّله من أداة انتقاد إلى وسيلة للتحريض في لبنان؟. . .

بالعودة إلى السياسة بالكاريكاتور نجد أن مهمة الفن الكاريكاتوري ليست إعلامية بقدر ما هي تهكمية وتحريضية ونقدية بلسان أو بريشة هزلية.

وإذا وسّعنا دائرة بحثنا في ميدان الصحافة الكاريكاتورية في العالم العربي وجدناها تمتاز بجرأتها، فما يعجز عن قوله أي محرر مهما بلغت جرأته، نقرأه بين الصور والرموز المنتشرة في الساحة المخصصة.

فما يطاله قانون المطبوعات لجهة الكلمة يصعب إثباته من خلال الصورة. إذ ينجح الصحافي عادة في التملص من القانون بطريقة هادئة،

إلّا إذا تمادى في جرأته أو «وقاحته» وأرفق الصورة بتعليق خارج عن المألوف أو يتنافى مع الذوق العام.

وبقدر ما تكون الصورة أكثر تعبيرًا، والتعليق أكثر اختصارًا، بقدر ما يكون الكاريكاتور ناجحًا، والصورة المعبِّرة التي تُنشر دون تعليق كثيرًا ما تصيب من الهدف مقتلاً. وتبقى حديث الناس إلى وقت طويل.

■ إشارة إلى أن الإنسان القديم عرف الرسم الكاريكاتوري قبل أن يهتدي إلى العملية الكلامية، كما يقول الرسام اللبناني ملحم العماد: فالإنسان وقبل أن يعتمد اللغة أداة للتخاطب، لجأ إلى رسم الهيئات المقصودة، فكانت هذه الصورة تأتي ممسوخة ومحجمة دون قصد[2].

أما البداية العملية لهذا الفن، في رأي **ملحم العماد** فقد بدأت مع ولادة الصحف المقروءة، أي من منتصف القرن الماضي، بحيث نجده في كل صحيفة عربية جديّة كانت أم هزلية.

وقد ازدهر فن الكاريكاتور في الصحف العربية وخاصة المصرية واللبنانية منذ بداية القرن، لا سيما فترة بين الحربين العالميتين. ففي مصر تسابقت الصحف وخاصة الأسبوعية منها على إظهار براعتها في هذا الفن، حيث بدأت بمجلة «الفكاهة» التي كانت تعتمد غلافًا «كاريكاتوريًا»، ثم «الاثنين»، و«المصور»، و«آخر ساعة»... إلخ.

حتى أن «الاثنين» اعتمدت عدة صفحات في كل عدد تحت عنوان «اضحك مع السياسة»، كانت تختصر أحداث البلد، وهموم الناس بالصورة المرحة، والتعليق الطريف.

■ أما في لبنان فمن «الأحرار المصورة» التي أصدرها جبران تويني في العشرينيات إلى «دبور» آل مكرزل و«صياد» سعيد فريحة في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. (أشرنا بالتفصيل لصحافة لبنان الكاريكاتورية ومؤسسيها في سياق هذا الكتاب).. إلى يومنا هذا مع «النهار» و«الديار» و«الكفاح العربي» و«الأنوار» و«نداء الوطن»... إلخ، ازدهر الفن الكاريكاتوري، وازداد تطورًا كما سنرى. ويتابع ملحم العماد قائلاً:

إن الفن الكاريكاتوري هو بحق أحد أرقى الفنون الجميلة، وقد تطور هذا الفن تطورًا ملحوظًا في الصحافة والكتب والملصقات، وانتقل بعضه إلى الإعلام المرئي والمسموع، وأبرزه التلفزيون، وبلغ مع تطور التكنولوجيا حدّاً جعله في مصاف الوسائل الأكثر إقناعًا وطرافة في الحرب النفسية، والدعاية السياسية. وأصبح لهذا الفن جمهوره الخاص، الذي يبتسم أو يضحك لقراءته أو سماعه أو رؤيته ومن ثم يتندر بمغزاه ومعانيه.

وقد أخبرني أحدهم أن ما كان يلفته في صحيفة «النهار» البيروتية بالإضافة إلى العناوين، صفحة الكاريكاتور التي اشتهر بها الفنان بيار صادق كونها، والتعبير للرجل عينه، تختصر الواقع السياسي برمته.

والمثل ينطبق على المرئي والمسموع (الـ LBC، والـ NTV، والـ FTV، والـ MTV المقفلة منذ مدة).

■ أما في فرنسا فلنا في رسّام افتتاحيات صحيفة «لوفيغارو» الفرنسية جاك فيزان الذي كان رسمه اليومي يعادل بفكرته الافتتاحية التي يكتبها المحرر السياسي بل ويتفوق عليها ـ خير مثال.

أيضًا في فرنسا يعتبر برنامج «بابت شو» الذي يصوّر حكام الجمهورية الخامسة بشكل حيوانات برية وأليفة، منها الأسد، ومنها الأرنب من أنجح البرامج التلفزيونية وأكثرها استقطابًا للجمهور، وأشدّها تأثيراً لدى الرأي العام. وقد حمَّل أحد السياسيين الاشتراكيين هذا البرنامج مسؤولية كبيرة في إسقاط الحزب الاشتراكي الفرنسي في الانتخابات التشريعية عام 1993، لأنه وضع معايب النظام تحت المجهر، وكان شأنه شأن غيره من البرامج التلفزيونية يدخل كل البيوت الفرنسية دون طلب أو استئذان.

وعن الهدف من الكاريكاتور يقول:

ليس الهدف من الكاريكاتور الإضحاك بالضرورة، فهو أحيانًا يجسد

مأساة ما بصورة وتعليق موجز، أو حتى دون تعليق.

■ فكاريكاتور الفنان الفلسطيني الراحل **ناجي العلي** الذي دأبت جريدة **السفير** اللبنانية على نشره يوميًا ولسنوات عدة، كان بمجمله حزينًا قاتمًا يجسد الهمّ العربي وألم المواطن العربي من «الخليج الثائر إلى المحيط الهادر». أما عن سمات هذا الفن الهزلي، فأستعير هنا خلاصة ما كتبه الباحث اللبناني هلال ناتوت(3):

«يصف البعض العمل الفني الكاريكاتوري بمرتبة «الرسم التحويري» السريع، مع إضافة عنصر صرفي خاص إلى الموضوع. وإن هذا الفن يتطور باعتماد الخيال والإبداع فضلاً عن التصميم، حتى يصبح رشيقًا في سخريته، متحركًا في تعبيره، مختصرًا في أسلوبه في آن معًا. وليحتل بالتالي مكانه المرموق في الصحافة الكاريكاتورية المتخصصة التي تمثل على صفحات الجرائد «الخبز اليومي» ـ أو عبر الزاوية المتخصصة للكاريكاتور ـ للقراء والمشاهدين، واستنتاجًا فإن «الصورة النموذج» هي العنصر الأساسي الذي يجب «خلقه» ولا يتوفر ذلك إلّا عند القلّة النادرة من المبدعين أو الموهوبين المميزين من أهل فن الرسم أو الفكاهة.

وربما كانت هذه الحقيقة هي السبب الأساس بكون الكتّاب والفنانين في سائر الميادين يستحيل عليهم النجاح في عالم هذا الفن الهزلي الكاريكاتوري إبداعًا وتصويرًا، إذ غالبًا ما يأتي الإلهام بالخلوة الهادئة في مشغل الرسم حيث يعمل الفنان بمفرده، وربما باستخدام المساعدات المرئية والصوتية... إلخ.

إن الفن الكاريكاتوري كنوع من الرسم المتخصص تتطلب صوره جرعة أكبر من شكل الصور العادية، بل جرعة أكبر من الشكل الفني المتجدد... وإنها تفرض نفسها عليها في أغلب الأحيان بغية الإثارة والصدمة أحيانًا، وفقًا لمقتضيات الجمال وألوان الفن، والإخراج الإبداعي الصارخ، لهذا جاءت الصحف الفنية الكاريكاتورية على مختلف مشاربها أكثر جرأة في كسر القوالب الفنية العادية في طرائق

إخراج وأساليب الصحف المتخصصة الأخرى إضافة إلى «تحرك» الشكل أو النموذج الفني فيها، إلى تغيّر لفت النظر في الصحافة الأخرى السيارة عمومًا، إلى أهمية عنصر الإخراج بالذات في الصحيفة بوجه عام.

من هنا جاءت ميزة فضل الشكل (الصورة) الفني في الصحافة الكاريكاتورية المتخصصة على أنواع نظيراتها أسلوبًا وإخراجًا وربما إعلانًا بهدف التجدد والإثارة والانجذاب. فهذا الفن الهزلي هو عدواني على موضوعاته خاصة. وقد يكون صديقًا حقيقيًا لكنه مشاكس مع «نماذجه»، صديق لا يؤمن جانبه لأن مهمته تبشيرية بالأمل... بالثورة... بالتغيير... بولادة إنسان جديد[4].

يسعى الكاريكاتور إلى معايشة العامة والخاصة على السواء، الإنسان العادي و«المثقف» على حد سواء، فتصل «الصورة ـ الفكرة» بكل أبعادها وصدقيتها إلى الهدف المرجو توعيته أو تعريته لقضايا الساعة، فلا غرو إذا اتخذ الرسم الفني معنى تحريضيًا أحيانًا، ولهذا يعتبر فن الكاريكاتور فنًا إصلاحيًا ناقدًا، وربما هو أبلغ من أي مقال صحافي أو أي مانشيت مثيرة، إذ ينوب عنهما بجرأة منقطعة النظير، وبكل وضوح تراه يصل إلى قلوب الجماهير قبل عقولها متخطيًا الرقابة الصحافية التي تستطيع اقتطاع أو حذف مقال، لكنها لا تستطيع ذلك مع الكاريكاتور.

وبالحديث عن الكاريكاتور، يتبادر إلى الذهن **أول ما يتبادر ذكر الصحافة المصرية**، فقد ذكرنا في الباب السابق الصحف الهزلية التي قامت على الكاريكاتور أصلاً، وتنقلت سخريتها بين الصورة الكاريكاتورية والمقال الكاريكاتوري، بحيث أمسى مرآة المجتمع المصري، فكان «السبع أفندي» بصورة رجل هزيل وذليل، وزوجته «رفيعة هانم» السمينة كشجرة الجميز، يمثلان الحاكم المتسلط على الشعب، بينما هو أمام زوجته حقير ذليل. وفي فترة ما اعتبر المصريون أن رفيعة هانم ما هي إلّا السيدة «أصيلة هانم» زوجة مصطفى النحاس

باشا رئيس الوزراء وزعيم حزب الوفد، الذي حلَّ مكانه في الصورة «السبع أفندي» الآنف الذكر.

وكما ابتكر سعيد فريحة في لبنان شخصية «أبو خليل» الذي يرمز إلى المواطن اللبناني، و«أبو درويش» الذي يمثل المواطن السوري، وابتكر «آل مكرزل» من قبله شخصية «أبو طنوس» في مجلتهم «الدبور»، فقد استنبط محمد التابعي عام 1932 شخصية «المصري أفندي» للمواطن المصري، و«جون بول» للحاكم الإنكليزي رسمها الفنان الكبير اسكندر صاروخان بأمانة ودقة. ومن أبرز رسامي الكاريكاتور المصري بالإضافة إلى «صاروخان» كان هناك صلاح جاهين وجورج بجوري وعبد المنعم رضا.. وهذا الأخير اشتهر بشخصية «حمار أفندي» وهي صورة حمار أقحمه في ميدان السياسة، وقد رسمه عبد المنعم رضا مرة مع النحاس باشا، الذي يشير بإصبعه إلى الحمار قائلاً: «لا شبه بيني وبينه إلّا بطريقة تفكيرنا». وتندر المصريون بهذه الصورة طويلاً.

وبلغ من تأثير هذه الشخصيات الكاريكاتورية لدى المصريين أن اسم «المصري أفندي» أُطلق على عدد كبير من المطاعم والمحلات التجارية، اجتذابًا للجمهور الذي أحب هذه الشخصية وتندَّر بها.

ولم ينجُ رسامو الكاريكاتور من ملاحقة السلطة لمعرفتها بمدى تأثير رسومهم على الناس، فقد جنت على عبد المنعم رضا رسومه الهزلية التهكمية، وانتهت به إلى السجن، حيث مكث ما يزيد على العام[5].

أما في لبنان فيقول الكاتب هلال ناتوت[6]:

إن الصحافة الكاريكاتورية لم تنطلق فنيًا، ولم تكرّس في الدوريات البيروتية في بُعديها الفني والسياسي إلّا في الأربعينيات من خلال تجارب مجلات «الدبور» و«الصحافي التائه» و«الصياد»، وذلك رغم رواج بعض التجارب القليلة السابقة في العشرينيات مع مجلتي «هبَّت» و«المضحك المبكي»، ويمكن اعتبار الأولى ـ هبَّت ـ بمثابة أول جريدة استعملت الكاريكاتور في ابتكارها «أول نموذج فني» أو الشخصية

الشعبية الكاريكاتورية، وأطلقت عليها اسم «أبو خليل» وهو رجل عجوز يحمل عصا، ويرمز إلى ابن الشعب الذكي المتفطن لكل الأحداث، والعنيد في سخريته وثورته، وقد أضفت مجلة «الصياد» لاحقًا سمات المواطنية على النموذج الشكل «فلبننته» كليًا حتى غدا معروفًا من النظرة الأولى في الرسوم الكاريكاتورية اللبنانية، فإذا به بمثابة وجهة نظر، وسيد موقف، في الحياة السياسية بالوطن، وهدفه الأول والأخير الوصول إلى بلاغة العبارة الشعبية المجبولة بحب الأرض والوطن والحياة، فهو يختصر في حد ذاته كل المواقف والتصريحات والكتابات والصور والملصقات والتقارير والاستعراضات والمهرجانات والإضرابات والطبل والزمر في الساحات وعلى أبواب القصور. . . !

وأبرز رسامي الكاريكاتور في لبنان كان **عبد الله الشهال ـ أبو خليل الأشقر في الثلاثينات وجان مشعلاني في الأربعينيات والخمسينيات**، إلى أن برز **بيار صادق** في جريدة النهار في النصف الثاني من الستينيات في عهد رئيس الجمهورية شارل حلو الذي كان يصوِّره دائمًا برداء الراهب اليسوعي الشهير بلطفه، وتهذيبه، وخبثه. .

وعلى سيرة اليسوعيين، أخبرني ميشال إده[7] مرة، أن أحدهم سأل راهبًا يسوعيًا:

لماذا أنتم اليسوعيين تجيبون دائمًا على السؤال بسؤال آخر؟
فأجابه الراهب: لماذا لا؟ (Pour quoi pas?)

وليس الكاريكاتور من صنع الرسام وحده، فكثيرًا ما تكون الفكرة، فكرة رئيس التحرير، أو حتى مجلس التحرير بأسره، إلّا أن ذلك لا ينفي الدور الأول للرسام في فسحته، فعندما يظهر الكلام والتعليق بكثرة يكون «لرئيس التحرير أو المسؤول» الدور الأكبر في ذلك، فهذا الأخير يرى الرسوم من خلال المقالات الافتتاحية والزوايا. فيحاول الربط بين الأحداث والمشهد[8].

إلّا أن هذا الفن وكما ذكرنا يفترض به أن يكون معبرًا بالرسم أكثر من الكلام، أي أن يدع الصورة تتكلم.

■ والكاريكاتور يقسم إلى قسمين: المحلي، والعالمي. ورغم أن المحلي هو أكثر إضحاكًا والتصاقًا بهموم الناس، فإنه أقل انتشارًا، فإذا رسم رسّام لبناني «الرئيس كلينتون» بصورة معبِّرة يمكن أن تتناقلها الصحف الأجنبية باهتمام بالغ ويترجم تعليقها. وقليلًا ما يستأثر السياسيون اللبنانيون باهتمام غير اللبنانيين.

إلّا أن الكاريكاتور المحلي تبقى له نكهة مميزة يجهلها الغير،فالرئيس السنيورة مثلاً هو واحد من أبطال الرسوم الكاريكاتورية (اللبنانية) ـ يجهله الغرب، والعرب ـ وبالتالي لن يفهم محور المشاهد[9].

أما النعمة التي يتمتع بها الفنان اللبناني، فتكمن في كونه يتمتع بقدر وافر من الحرية، وهذا ما يدفعه لاحتلال المرتبة الأولى بين فناني الكاريكاتور العرب، وخصوصًا في المجال السياسي المحلي.

أما عن غياب المرأة عن رسوم الكاريكاتور فيقول ملحم العماد:

«إن الفترة القياسية التي نعيشها اليوم لا تحتمل تشويه المرأة، لذلك نجد الريشة تعجز عن تشويه هذا المخلوق الذي هو أقرب للوداعة منه إلى الأشكال الممسوخة».

ويبقى السؤال: هل يؤدي الكاريكاتور في هذه الأيام دوره كاملاً؟

يجيب عن هذا السؤال جان مشعلاني رسام الكاريكاتور في «دار الصياد» إذ يقول: «لا أعتقد. لأن الحرية المطلقة غير موجودة سوى في أوهامنا. فمؤسستنا توزع مطبوعاتها على الدول العربية، وفي حال لم نراعِ حساسيات هذه الدول، يعيدون إلينا أعدادنا»[10].

وعن رأيه بالكاريكاتور الصامت أي «دون تعليق» يقول جان مشعلاني:

الكاريكاتور الصامت لا أعتقد أنه يناسب جميع المستويات، فهناك عقول لا تصلها الرموز، وما لم تشاهد حدثًا واضحًا فإنها ستجده سخيفًا، وبالتالي تستخف بقيمة الرسم.

أما الفنان نبيل قدوح فيقول:

«إن الكاريكاتور هو أهم ما في الجريدة لأنه يلخص الحدث السياسي بطريقة سهلة التلقي». ويتابع قدوح بأن رسومه مستقاة من الشارع اللبناني «فالاختلاط مع العامة يأتي بالنواة الأولى».

وعن الصعوبات التي تعترضه قال:

«شرط عدم تجاوز الخط الأحمر» لأن بعض الشخصيات التي قد أتناولها لا تتقبل الفكرة الكاريكاتورية باعتبارها تمسيخًا لشخصهم وإنجازاتهم، وهذا ما دفع بعض السياسيين، ورجال الدين إلى رفع دعاوى عليَّ وصل عددها إلى سبع والحبل على الجرار. ولكن هذه الدعاوى كما يقول قدوح «ليست مؤلمة لأن من حسنات هذا الفن أنه يترك الباب مفتوحًا أمام التأويلات، والرسم الواحد يجمع أكثر من شخصية وأكثر من معنى».
ويتابع قدوح قائلاً.. صحيح أن الكاريكاتور بغموضه أحيانًا وبرموزه حينًا، يتيح للفنان أو للصحيفة حرية الهرب من المأزق والدعاوى القضائية، إلّا أنه يسبب في بعض الأحيان الموت لصاحبه.

«فناجي العلي» الرسام الفلسطيني الشهير، الذي عرف خلال السبعينيات والثمانينات بسخريته السوداء اللاذعة من خلال رسومه في جريدة السفير اللبنانية، دفع حياته ثمنًا لرسومه. فقد اغتيل في لندن في

تشرين الثاني/ نوفمبر 1987، واتهم أهله ورفاقه ياسر عرفات باغتياله، أما أبو عمار فقد ترحم عليه، واعتبره «شهيدًا» كالعادة ـ واتهم بدوره الموساد الإسرائيلي باغتياله.

ناجي العلي:

«هو فلسطيني اغتصبت الصهيونية والضمير العالمي أرضه وإنسانيته. نشر أول رسومه في الستينيات في صحيفة «الحرية» الناطقة بلسان القوميين العرب، بتشجيع من الروائي الفلسطيني (الشهيد) غسان كنفاني. ويبدو أن هذه البداية طبعت خياره السياسي المتناغم قطعًا مع تصوراته السياسية، كانت رسومه تتصف دائمًا بمعارضة لتوجهات منظمة التحرير الفلسطينية، لأنه اعتبرها تهادن إسرائيل وتساومها على الحق التاريخي للشعب الفلسطيني». هذا فلسطينيًا ـ أما عربيًا ودوليًا فكانت رسومه تنتقد سياسات الدول النفطية. في السبعينيات، حتى جاءت كارثة الاجتياح الإسرائيلي للبنان، واحتلال بيروت، حيث عاش الفنان تلك المرحلة الأليمة، ثم انتقل بعدها إلى الكويت ليعمل في صحيفة «القبس» حيث أصبحت رسومه حزينة ورومانتيكية حول الخروج الفلسطيني من بيروت مع زيادة حدّتها ونقدها الساخر.

هذا عن ناجي العلي، أما «حنظلة» بطل رسومه فقد ظل خلال عقدين من الزمن يمثل المواطن العربي الساخر من مصائب الأمة حينًا، والمواطن الفلسطيني الذي يهزأ بألم من قرارات قادته أحيانًا. و«حنظلة» هو اسم ذلك الصبي الأصلع المتفرج دائمًا على الحدث أو الحوار، واضعًا يديه وراء ظهره الذي يديره لنا بحيث لم نرَ يومًا وجهه.

■ في مصر، تراجعت مرتبة الكاريكاتور في الصحف في العقود الأخيرة، لتحلّ مكانها النكات اللاذعة على ألسنة الناس، ربما لغياب

«صاروخان» و«رضا عبد المنعم رضا»، أو ربما لانتقال الصحف في زمن الثورة إلى القطاع العام حيث لا تستسيغ الأجهزة السخرية من الحاكم، أو سخريتها المفتعلة تأتي «بائخة».

■ وفي سوريا برز في الثمانينيات رسام يدعى «فرزات» راح ينشر صوره الساخرة في صحيفة «البعث» وأحيانًا في صحيفة «الثورة» وكان يحرص قدر الإمكان على جعلها صامتة ـ أي دون تعليق ـ لتأتي على درجة كبيرة من التعبير، وهي ترمز إلى ما آل إليه العرب من مصير في هذا الزمن الرديء.

أخيرًا، ومن باب إنصاف هؤلاء المبدعين نقول.. إذا كان نبيل قدوح يخشى الدعاوى القضائية، وجان مشعلاني الذي يعتبر من أبرز رسامي الكاريكاتور في لبنان يلتزم بسياسة صحف دار الصياد المحافظة، فإن ملحم العماد أمسى في السنتين الأخيرتين أكثر رسامي هذا الفن جرأة حيث يبرز له أكثر من رسم في صحيفة «الكفاح العربي» اللبنانية ـ وحيث بدأ منذ أوائل عام 1997 يركز على رئيس الحكومة رفيق الحريري، بينما يركّز زميله «غانم» في نفس الصحيفة على وزير المال فؤاد السنيورة. وعند ذكر رسامي الكاريكاتور في لبنان فإنه لا يمكننا إغفال اسم «ستافرو جبرا» الذي يرسم حاليًا في الصفحة الأخيرة من جريدة «نداء الوطن» رسومًا ملونة معبِّرة رغم أن حدّة السخرية بها أخف قليلاً من غيرها.

أما على الصعيد العربي فقد تميّز «محمود كحيل» ـ وهو من الأساتذة في هذا الفن ـ برسوم رائعة، وعلى درجة كبيرة من التعبير، فبعد أن كانت رسوم «كحيل» لبنانية من خلال عمله في الستينيات والسبعينيات في صحيفة «الأسبوع العربي»، وصحف أخرى لبنانية، انتقل بعد حرب السنتين إلى لندن حيث عمل في صحف «الشرق الأوسط» و«المجلة» والمطبوعات التابعة للمؤسسة السعودية للنشر. وقد تميَّز «كحيل» برسومه الصامتة إلّا بعض الاستثناءات وهذه لعمري تتطلب فنًا رفيعًا وجهدًا كبيرًا. ونسأل: متى سيجود الزمان «بناجي العلي» آخر؟.

والساسة أيضًا يضحكون ويُضحكون

رغم أن الدكتور الرئيس سليم الحص تولّى رئاسة الحكومة اللبنانية عدة مرات وعلى مدى سنوات فإن معظم اللبنانيين يجهلون أنه من السياسيين اللبنانيين المحبين للطرفة، والطرافة، والنكتة والراوي لها. ويذكر كاتب هذه السطور الذي تربطه وشائج مودة واحترام كبير مع الرئيس الحص، منذ نهاية السبيعينيات من القرن الماضي أنه رافقه مرة بالطائرة من باريس إلى بيروت عام 1992، وسمع منه عشرات الطرائف وعندما كان يسمع نكتة من محدثه كان الرئيس يضحك من قلبه وكالطفل أحيانًا. ولم يتميّز الرئيس سليم الحص بكونه خير مستمع وخير راو للنكتة بل إنه خير صانع لها إذ إنه يتمتع بسرعة بديهية، وتعليقات ظريفة يرويها دون أن يضحك لها. وقد زرته مرة على غير موعد، وعلمت أنه في اجتماع لندوة العمل الوطني التي يترأسها، فحاولت أن أعود أدراجي، إلاّ أنه أصر على انضمامي إلى الاجتماع الذي قارب إلى نهايته، فالتقيت بمجموعة من النخبة الذين أعرف معظمهم، ومنهم على ما أذكر الدكتور حيّان حيدر والدكتور كامل مهنا. . . وعند سؤالي عن أحوالهم، علمت أن الأول مصاب بالديسك، والثاني «لمباغو» والثالث ألم في أعلى الظهر. . . فإذا بالرئيس الحص يقول لي: «أرأيت هولي إلّي شادد ظهري فيهن».

■ ومن النكات التي يضحك لها سليم الحص ويرويها، حكاية أبو العبد[11] عندما دعي للاستقبال الذي أقيم في بيروت لقداسة البابا أواخر التسعينيات، وكيف روى أبو العبد لأتباعه وأقرانه حكاية هذا الاستقبال لاحقًا في المقهى. وحيث سأله أحد الحضور مين هيدا البابا يا أبو عبد؟ وشو صار معك؟ فاستوى أبو العبد وهو ينفث دخان نرجيلته (تسمى بالعامية أركيلة وجمعها أراكيل) وقال: يا إخوان هذا البابا زعيم المسيحية. . . والمسيحيين إخواننا، دعونا ولبينا الدعوة. . . بس قعدنا

في كراسي ما في طاولات[12]، طيب ماشي... بعدين شفنا نارة رايحة ونارة جاية[13]، بس وين الأراكيل؟ ماشي، عمل البابا خطاب وصفقنا له!.

وهنا سكت أبو العبد وغضب عاتبًا، فسأله الحضور ماذا جرى يا أبا العبد؟ فأجاب ببساطته: والله ما قلنا له شي، نحن نصفق وهو يعمل لنا بأيديه هيك[14].

■ والرئيس الشهيد الراحل رشيد كرامي كان من أسياد إطلاق التعليق الظريف والنكتة الذكية، وقد روى لي مرة دون أن يضحك حكاية الوزير الصديق ميشال إده مع الرئيس شارل حلو في مجلس الوزراء الذي كان رئيسه رشيد كرامي رحمه الله.

المعروف عن الوزير ميشال إده، أنه محدث لبق، إلاّ أنه إذا بدأ الحديث لا يتوقف، وقد طلب الإذن بالكلام في أحد اجتماعات مجلس الوزراء الأسبوعية برئاسة رئيس الجمهورية الراحل شارل حلو، فلم يعطه الإذن، وعند احتجاجه، أجابه الرئيس الراحل بكل جدية: معالي الوزير لقد أعطيتك إياه الأسبوع الماضي ولم ترجعه بعد.

■ أما الرئيس الشهيد الراحل رفيق الحريري، فلم أسمعه يومًا يروي نكتة، إنما علمت أنه يروي الكثير منها في مجالسه الخاصة، كما كان يطرب لسماع نكات صديقه السفير جوني عبدو، المعروف بذكائه وظرفه، وهذا ما زاد التقارب والمودة بينهما.

■ أما الرئيس الراحل الياس الهراوي فكان يحب النكتة ويرويها وخاصة الجريئة منها وذات الطابع «البورنوغرافي». وكونه من مدينة زحلة، كان لا يجد غضاضة من استعمال العبارات التي يسميها بعض المحافظين «بذيئة» بينما لا يجدها غيرهم كذلك، وأنا منهم.

ويُروى عنه أنه استقبل الرئيس الفرنسي جاك شيراك في القصر الجمهوري في ربيع 1998 وعند عودة شيراك إلى فرنسا سُئل عن إقامته في لبنان؟

فروى بالفرنسية ما نحاول ترجمته إلى العربية، ما يلي: «الإقامة في لبنان كانت رائعة، خاصة في المساء في القصر الجمهوري، حيث غابات الصنوبر القريبة والمناخ الممتاز، إنما ما يحيرني حتى الآن، أن النوافذ كانت مفتوحة والهواء عليل، إنما الرئيس الهراوي كان يتمشى ويصرخ بمساعديه Aierez[15] ولا أعرف لماذا ضرورة التهوية؟؟

■ وفي تاريخ لبنان الكثيرون من الساسة الظرفاء، ومن أبرزهم الرئيس الراحل الحاج حسين العويني، الذي يروي الكثير من «قفشاته» نكاته ونكات الصديق عبد الرحمن الشيخة الذي كان سكرتيرًا لمجلس الوزراء... ومنها على سبيل المثال لا الحصر، حكايته مع «غولدا مائير» وكانت في الستينيات رئيسة لحكومة إسرائيل، وكان الحاج حسين رئيسًا للحكومة اللبنانية، وقد أطلقت «مائير» سلسلة تهديدات ضد لبنان ورئيس حكومته، فلم يصدر أي تصريح أو بيان للرد عليها، فلما سئل الحاج عن عدم رده، أجاب باقتضاب وبجدية: حدن بيرد على امرأة؟

وأيضًا تروى حكايته عندما حوكم مجرم من بيروت يسمى «التكميل»، لقتله أبرياء على أثر أحداث 1958، وحيث كانت تزوره والدة المتهم فكان في كل مرة يقول لها: قولي الله... فحُكم الرجل بالإعدام، وزارته الأم مستنكرة عدم وساطته: فقال لها: قلت لك قولي الله... ثم بعد عدة أيام، استفاقت الأم وقد أُعدم ولدها المجرم، وذهبت للحاج حسين مستنكرة غاضبة وهي تقول: «ضليت تقلي قولي الله، قولي الله... حتى أعدموه» فأجابها هادئًا مواسيًا: «اليوم قولي الله... يرحمه».

هكذا تولد النكتة أحيانًا من المأساة.

ويمكن القول وحسب تجربتي أن معظم السياسيين اللبنانيين يتمتعون بروح الدعابة باستثناء القليل القليل منهم.

■ وحكاية الوزير جان عبيد الذي كان عام 1980 في حضرة الرئيس الياس سركيس، عندما دخل عليه رئيس المخابرات العقيد جوني عبدو، ليبلغه بأن عبوة ناسفة انفجرت وكانت تستهدف النائب عبد الله الراسي،

فعلق جان عبيد بسرعة متسائلاً: انفجرت؟ أم ستنفجر؟ بما فيه الكثير من المعنى والغمز.

■ وحكاية الوزير السابق ميشال إده خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان في حزيران/ يونيو عام 1982، يعرفها الكثير من السياسيين اللبنانيين. وخلاصتها أن الوزير إده المغرم بالطعام الشهي الذي يشرف شخصيًا على إعداده، كان قد طلب من الطاهي في منزله أن يحضر وجبة «ملوخية» بالدجاج وعدم وضع الدجاجة في القدر إلاّ عندما يأمره بذلك، وكونه كان في السيارة يتواصل مع الطاهي بواسطة الجهاز اللاسلكي يسأله عن مراحل تحضير «العملية» قائلاً «لا تسقطها» إلى أن قال له: هل كل شيء جاهز...؟ الآن «أسقطها». وهنا اعتقدت أجهزة المخابرات اللبنانية والإسرائيلية التي كانت ترصد المكالمة أن الموضوع يتعلق بتفجير قنبلة أو إسقاط صاروخ... وذلك خلال أكثر من ساعتين إلى أن تبين أن الموضوع هو إسقاط دجاجة في القدر.

أما في سوريا، فمن الساسة الذين يستسيغون النكتة ويروونها، **العماد مصطفى طلاس** وزير الدفاع السابق. وقد سألته مرة في مكتبه في دمشق عن النكتة السياسية وهل هي مسموح بها في سوريا؟ أجاب نعم وبكل تأكيد!! شرط أن لا تتناول سيادة الرئيس أو الحزب[16]، فقلت إن لدي حكاية ولكنني لن أرويها، فلما أصرّ، قلت إن للرئيس علاقة بها، ولكنها لا تتناوله، فطلب سماعها بإلحاح.

والحكاية أن المغفور له الرئيس حافظ الأسد، أراد في ليلة ما التجول في دمشق دون مرافقين، فقاد السيارة بنفسه وأجلس السائق على يمينه... فأوقفه حاجز للجيش، ولما تمعن الجندي به، أدى التحية مرارًا ومرتعبًا وهو ينظر بحشرية إلى من يجلس قربه، وبعد ذهابه سأله الضابط: من الذي في السيارة؟ أجاب الجندي: شخص مهم جدًا سيدي... سأله الضابط إذاً كان رئيس الأركان؟ فقال أهم بكثير. هل هو وزير الدفاع؟ أجاب أهم بكثير سيدي، فقال الضابط... هل هو سيادة الرئيس؟ فأجاب الجندي أهم بكثير سيدي، هنا صرخ به الضابط:

هل هناك أهم من سيادة الرئيس في سوريا؟ فأجاب الجندي مرتبكًا: والله ما بعرف سيدي... ما دام سيادة الرئيس «مشوفر له» (أي يقود سيارته).

فضحك العماد طلاس وقال الحمد الله، ليس بها ما ينال الرئيس.

■ ومن النكات السورية التي سمعتها في دمشق أنه في الثمانينيات وأيام ملاحقة الإخوان المسلمين، في ليلة مُنع بها التجول قُبض على شخص حمصي كان يفتش على «داية» لتولد له زوجته... فتلعثم أمام الضابط وقال له إنه يفتش عن امرأة... فاتهم على الفور بأنه «قواد» فقال له الضابط «أنت عرصة» وأصعده بسيارة الجيب التي وجد بها معتقلاً آخر. وسمع الضابط يتحدث باللاسلكي مع رئيسه قبل انطلاق السيارة قائلاً: سيدي قبضنا على اثنين واحد إخوان وواحد قواد... وسمع الجواب: خذهم إلى المزّة، الإخوان إعدام والقواد خازوق. فأخذ الحمصي يربت على كتف الضابط، الذي سأله ناهرًا إياه: شو بدك ولاه؟ أجاب الرجل بثقة وهدوء: سيدي حتى لا يحصل سوء تفاهم أنا القواد مو هو!

■ وعن الإخوة السوريين أيضًا... أن رئيسًا أفريقيًا زار دمشق زيارة رسمية، واستعد الجنود لإطلاق 21 طلقة تحية له... فإذا بجندي يسأل الضابط: سيدي ماذا لو أصبناه من الطلقة الأولى؟! وهذه رواها لنا العماد طلاس.

وهذا غيض من فيض، ولكل نكتة مغزاها ومعناها.

هوامش

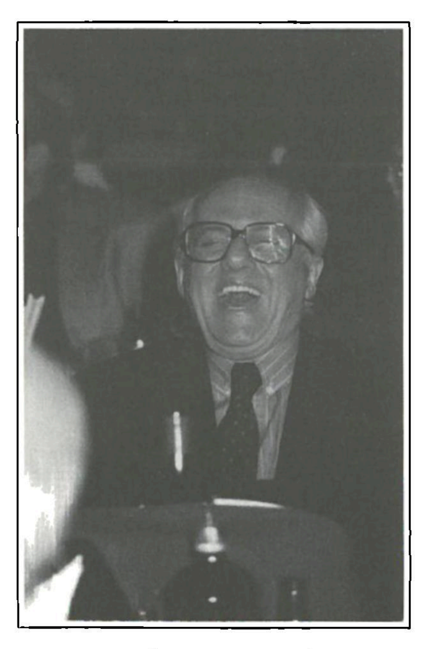
1 ـ سبق وقرأت في بعض المراجع أنه يهودي مصري.
2 ـ ملحم العماد، جريدة الكفاح العربي، 7/ 11/ 1979 بيروت.
3 ـ ناتوت، هلال، «الصحافة المتخصصة في لبنان» ص 226.
4 ـ ناتوت، هلال، المرجع السابق، ص 227.
5 ـ القشطيني خالد، المرجع السابق، ص 96.
6 ـ ناتوت هلال، «الصحافة المتخصصة في لبنان»، ص 229.
7 ـ ميشال إده ـ شخصية لبنانية سياسية شغلت مناصب وزارية عدّة.
8 ـ ملحم العماد، الكفاح العربي، بيروت 7/ 11/ 1997.
9 ـ المصدر نفسه.
10 ـ جان مشعلاني، الكفاح العربي، 7/ 11/ 1997.
11 ـ أبو العبد: يمثل البيروتي الطيب القلب والشجاع.
12 ـ اعتقد أبو العبد أنه مدعو إلى وليمة.
13 ـ حاملات البخور وهي تشبه حاملات نيران النرجيلة.
14 ـ كان البابا يبارك الحضور فاعتقد أبو العبد أنه يشير له بإصبعه الأوسط.
15 ـ هذه الكلمة تعني بالفرنسية «تهوية» بلهجة الأمر.
16 ـ حزب البعث الحاكم.

والسياسيون أيضاً يضحكون
كاريكاتورات ساخرة

والسياسيون أيضاً يضحكون



الأمير فاروق أبي اللمع



الدكتور جميل اسكندر



الوزير السابق الياس الخازن



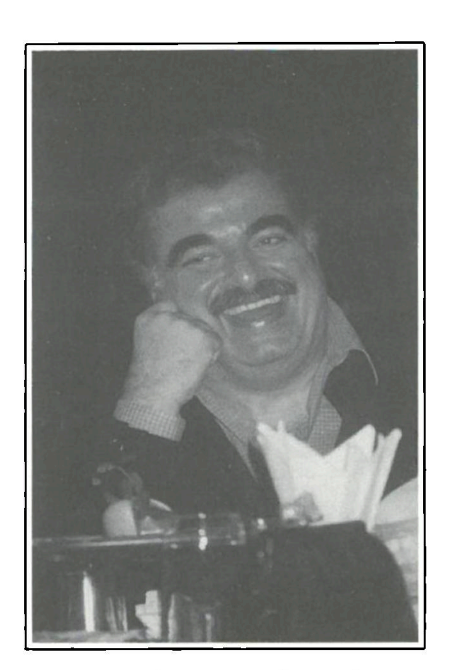
الوزير السابق ياسين جابر



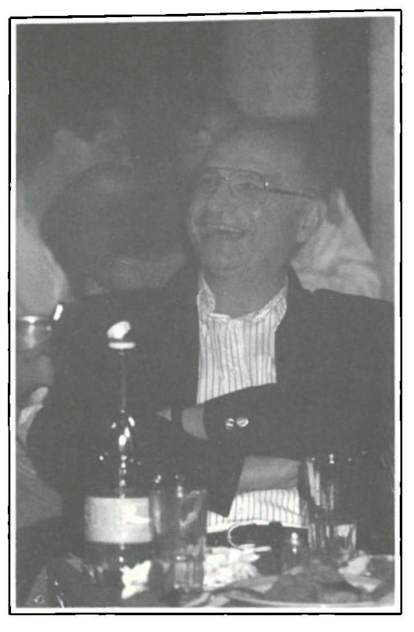
الوزير الراحل جورج سعادة



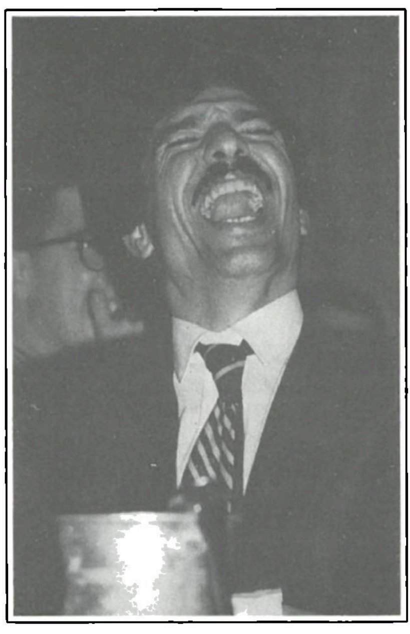
المدير العام السابق سميح الصلح



الرئيس الراحل رفيق الحريري



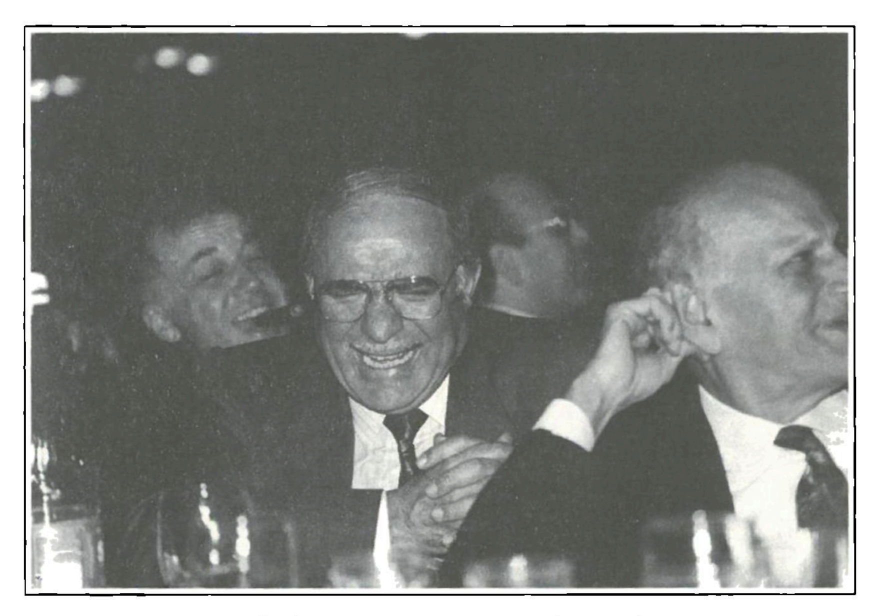
الوزير السابق بهيج طبارة



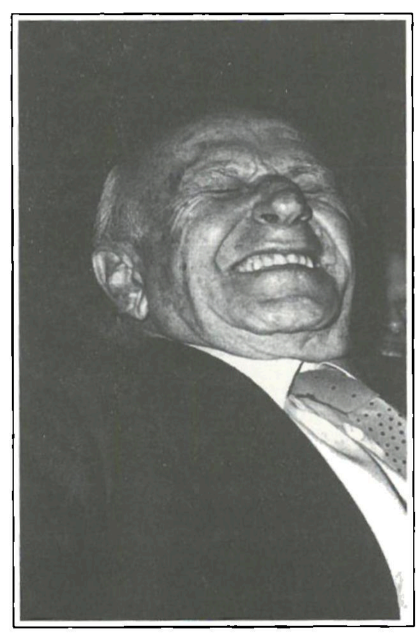
الأمير محمد بن بدر آل سعود



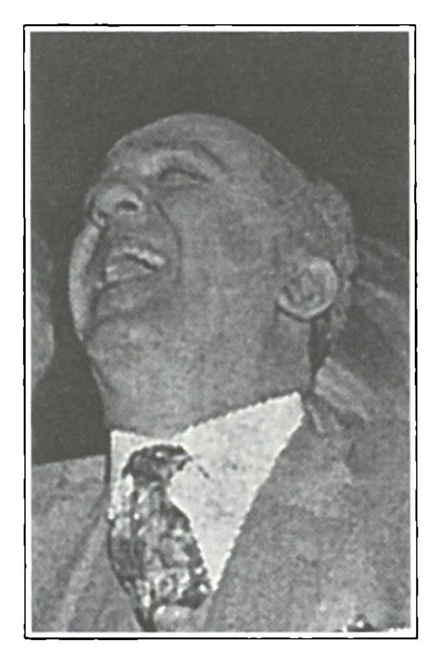
النائب السابق شفيق بدر



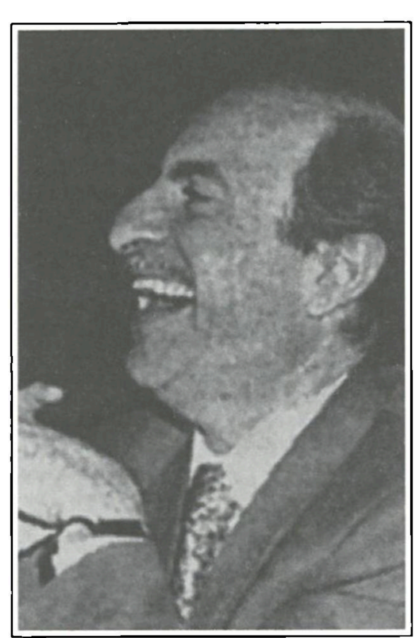
الوزيران السابقان رضا وحيد وسامي الخطيب



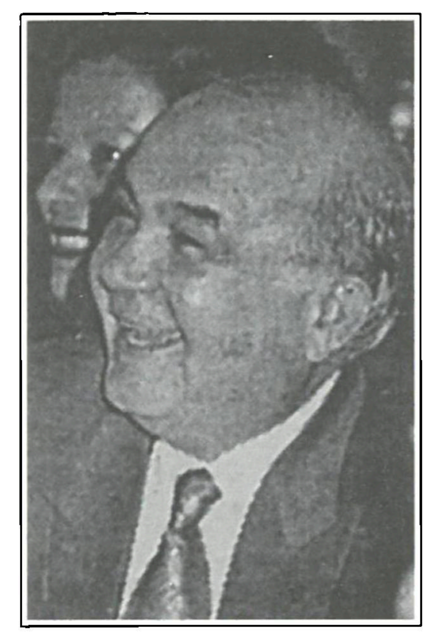
الوزير الراحل كاظم الخليل



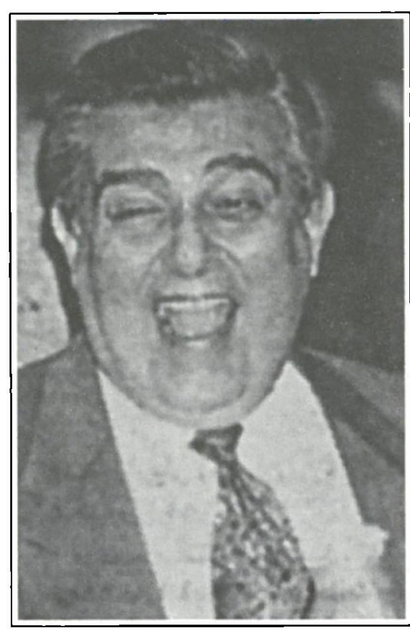
الوزير السابق سمير مقبل



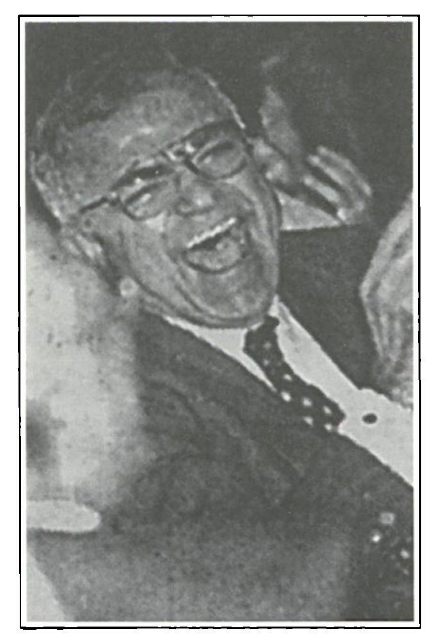
الوزير السابق أنور الخليل



الوزير السابق جورج افرام

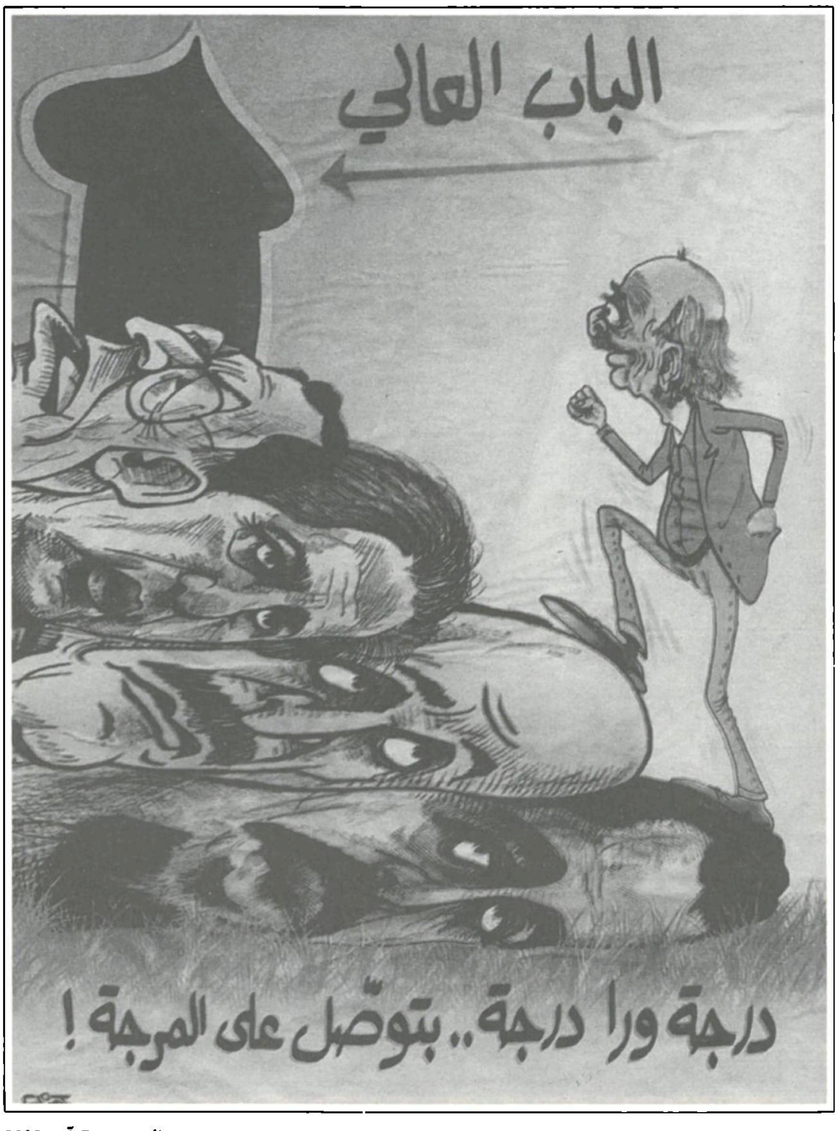


الوزير السابق مصطفى درنيقة

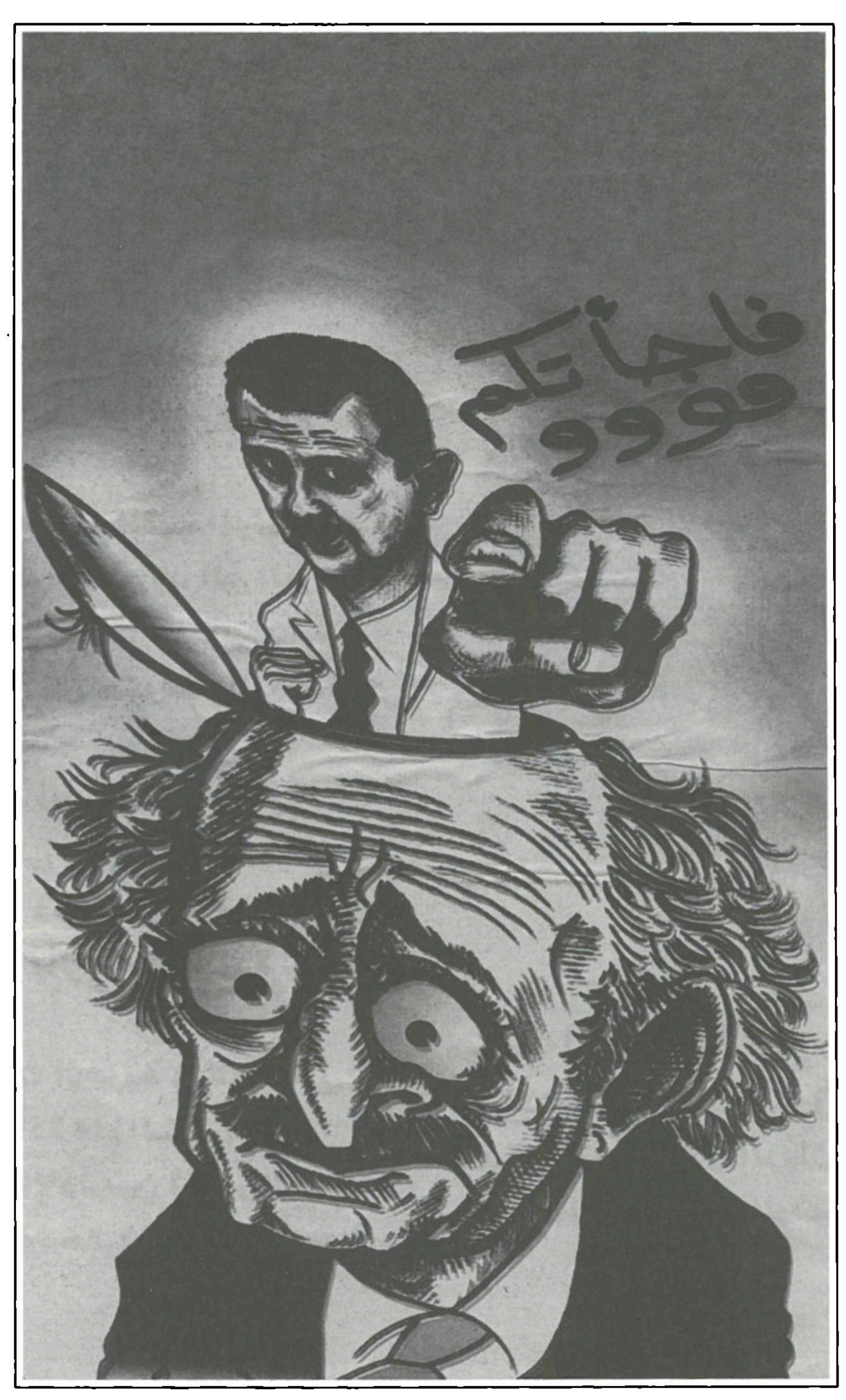


السفير رياض طبارة

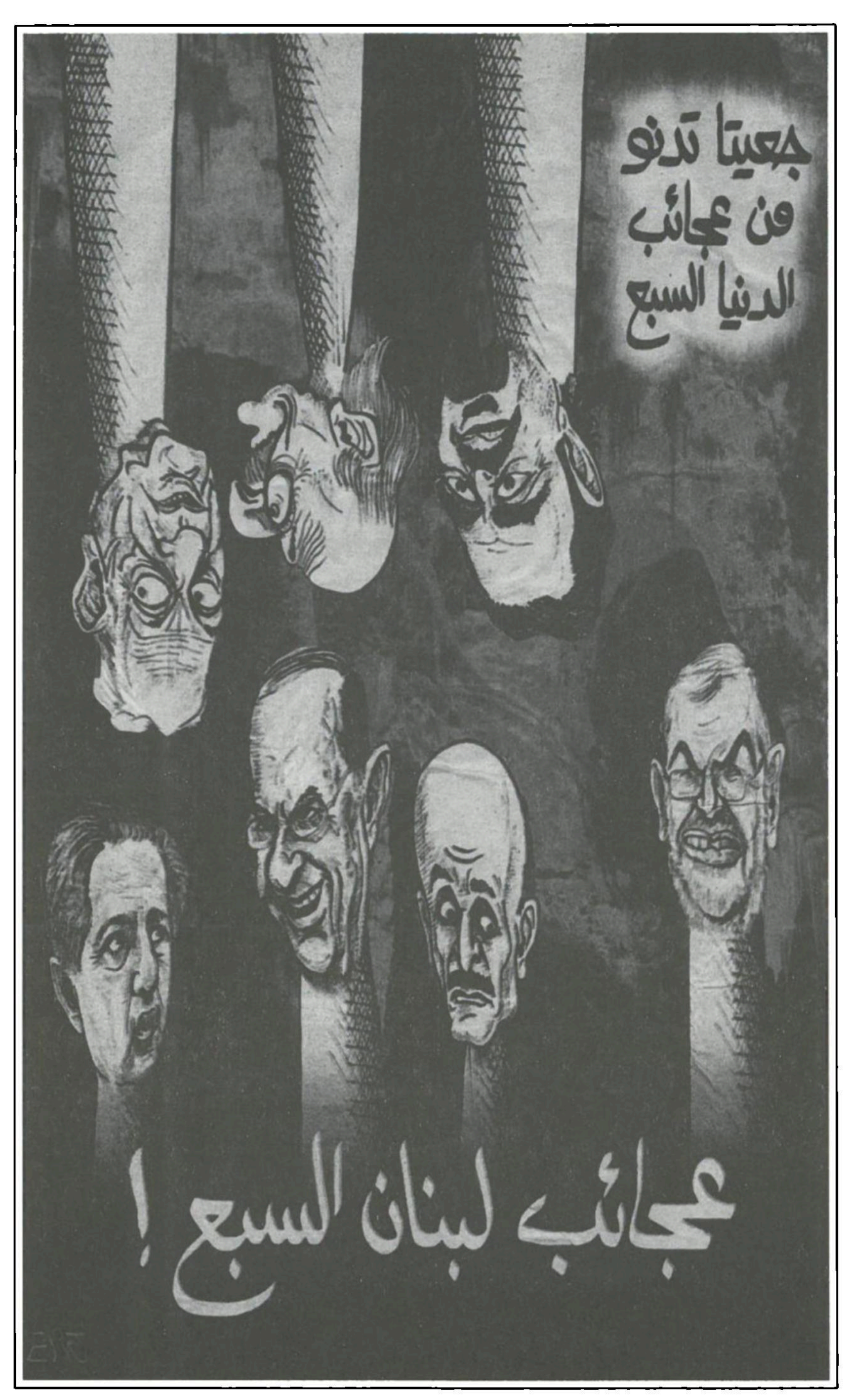
كاريكاتورات ساخرة



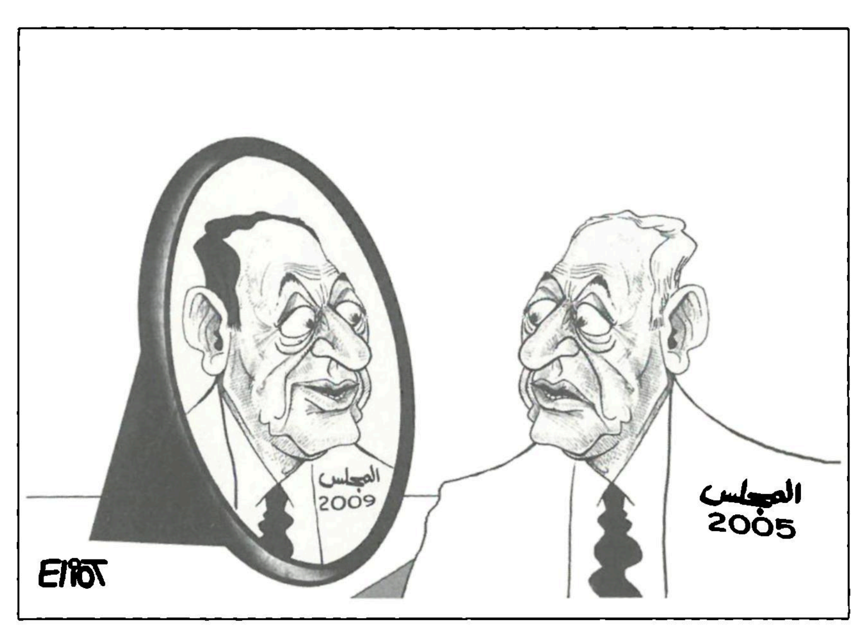
«الدبور»، 7 آب 2009



«الدبور»، 7 آب 2009



«الدبور»، 24 تموز 2009



«الدبور»، 12 حزيران 2009

«الدبور»، 19 حزيران 2009



«الدبور»، 12 حزيران 2009



«الدبور»، 5 حزيران 2009



«الدبور»، 12 حزيران 2009

«الدبور»، 9 كانون الثاني 2009

«الدبور»، 9 كانون الثاني 2009



«الدبور»، 9 كانون الثاني 2009



«الدبور»، 9 كانون الثاني 2009



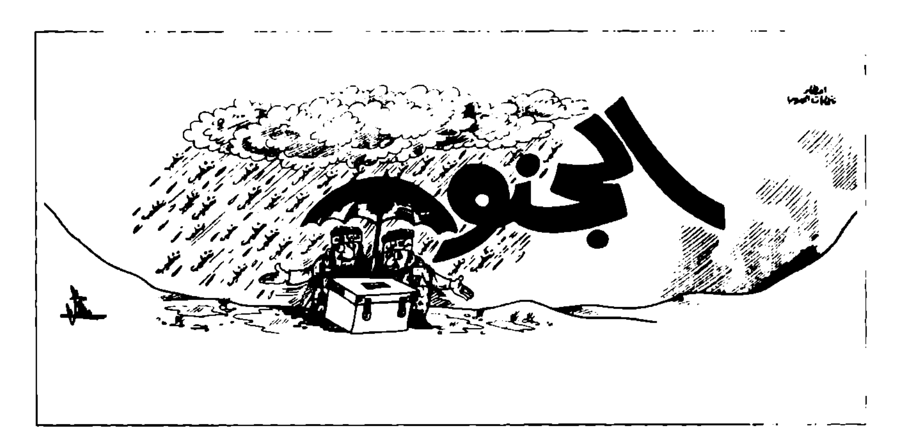
«النهار»، 17 حزيران 1997



«النهار»، 2 نيسان 1997



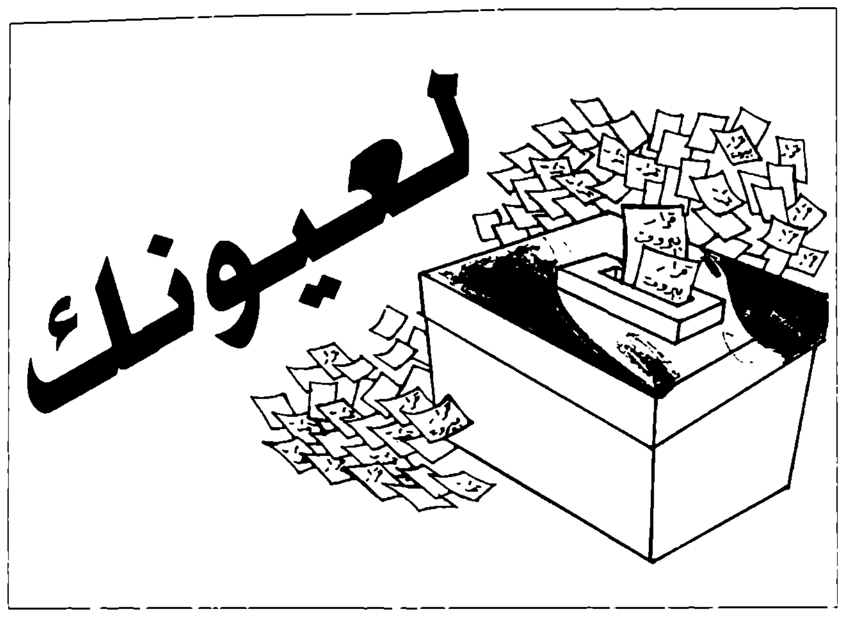
«الديار»، 15 كانون الثاني 1997



«الديار»، 8 أيلول 1996



«الديار»، 7 أيلول 1996



«الشرق»، 31 آب 1996

الرئيس الحريري يزور دمشق اليوم

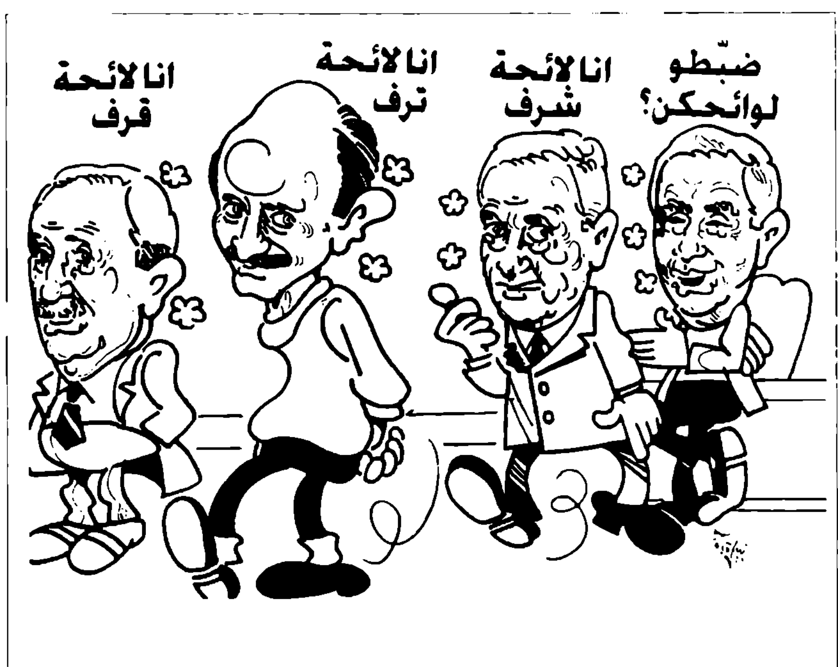
بتوصي شي؟

جيب لنا شوية برازق

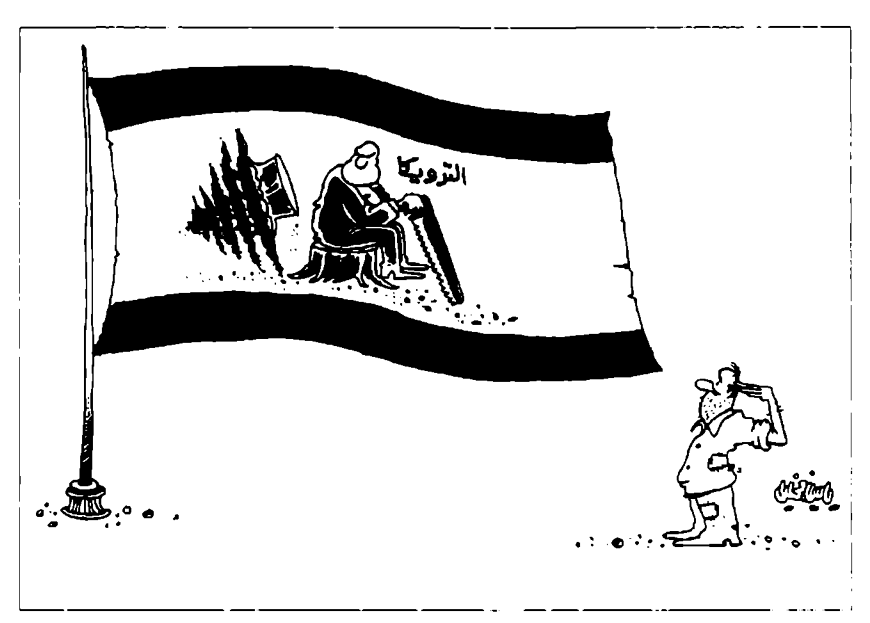
«الشرق»، 15 آب 1996



«السفير»، 14 آب 1996



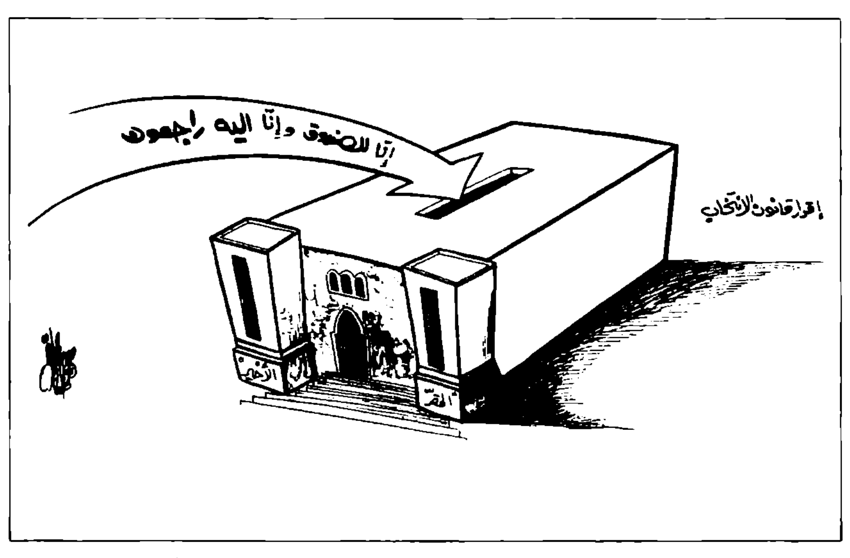
«الشرق»، 24 تموز 1996



«السفير»، 19 تموز 1996

«السفير»، 19 تموز 1996

«الشرق»، 19 تموز 1996



«النهار»، 12 تموز 1996



«الديار»، 12 تموز 1996

اطلع الرئيس الحريري الرئيس الهراوي على نتائج محادثاته مع الرئيس شيراك

سألته عن
الانتخابات؟

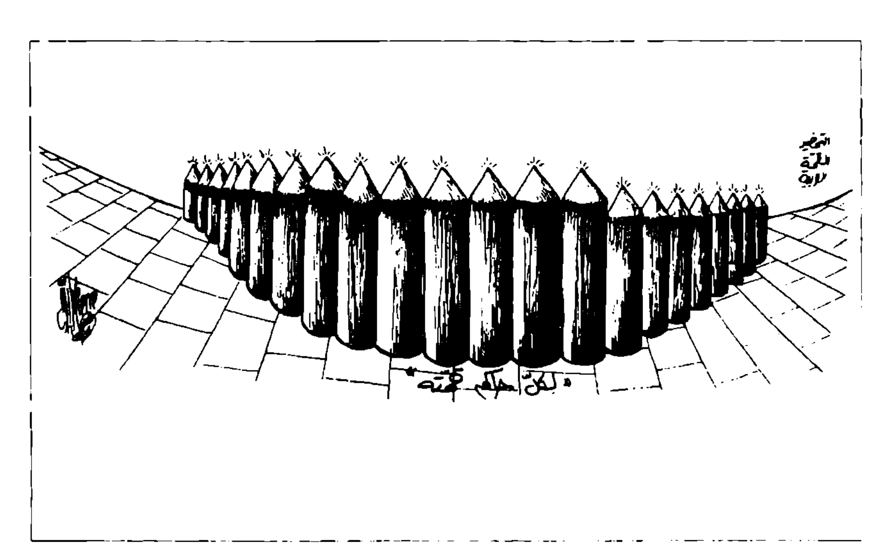
هوّي
سألني

«الشرق»، 8 تموز 1996

اوساط مقربة من رئيس الجمهورية ابدت استياءها من بيان مجلس المطارنة

دقّ الميّ... وهيّ ميّ

«الشرق»، 5 تموز 1996



«النهار»، 21 حزيران 1996

مرشح

نقبل حتى الأصوات المبحوحة

«السفير»، 21 حزيران 1996



«النهار»، 20حزيران 1996

قانون الإنتخاب: أربع محافظات والجبل على اساس القضاء

الله بحفظكم

انا مع القضاء والقدر

انا مع القدر

انا مع القضاء

«الشرق»، 14 حزيران 1996



«النهار»، 26 آب 1994



في بيروت!

سامي الصلح : انا راعي الحصان ، انا فاتح البرلمان...
الناخب افندي : ملّق وقت فتح البرلمان ولا فتح الجزدان يا بك ؟!!

«الصياد»، 1 أيار 1947

تعطيل الصحف بين المفوضية والحكومة

قصر الحرية

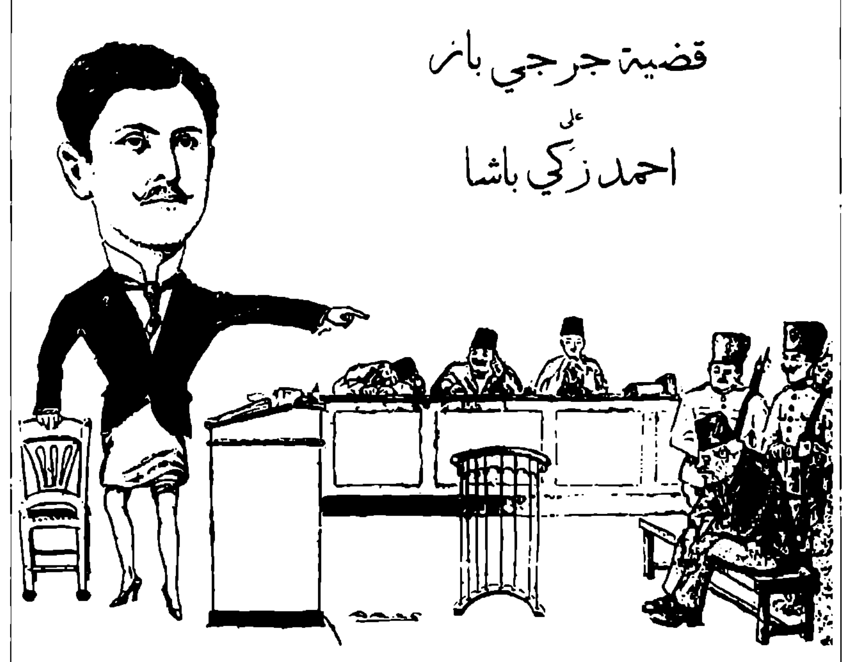
حيرتونا مين راح يدخلنا القفص . بين حانا ومانا ضاعت لحانا

«الأحرار المصورة»



(اعلن دولة رئيس الوزراء افتتاح المعركة الانتخابية في مهرجان الزيدانية)
خليل لاركان قائمة بيروت : من جهتي وجهة رياض بك حملنا اللي علينا ... بدي كل واحد منكم يعمل اللي عليه !!

«الأحرار المصورة»



جرجي باز – بما اني قوام على السيدات ، نصير لنهضة المرأة فانا اقيم الدعوى على العلامة احمد زكي باشا لانه اهان السيدات يوم قال « يوجد عدوان للكتب هما البنت والعت » فانا اطلب معاقبته على هذه التهمة الشنيعة ، بموجب عريضة الدعوى (وقدنشرناها في العدد الماضي)

زكي باشا – (بين يدي الجنود) – يا خي ، ألبس قبلًا لبس راجل وبعدين تكلم . مش تبق نصفك بثياب ست ، وعلى الموضة ، ونصفك بثياب راجل ، وترفع دعاوي زور

= اقرأ دفاع زكي باشا عن نفسه في الصفحة الخامسة من هذا العدد

جايبالك السرير وبرضه نايم على
الأرض زى ولاد الشوارع ؟!!

«الأهرام»



«الأهرام»

ارتباط اسكندرون وانطاكية بالمفوضية رأساً

اسكندرون
انطاكيه
حلب
بيروت

احد الزوار – يا لله ياصبحي بك . لرفع ايدك بالعصاية . هيه ، يا لله . . . وامسك الحبل وشد ، حتى نربط اسكندرون وانطاكيه بحلب . . .
صبحي بك – جانم مش قادر . . . الحبل عالي كتير ، وخايف انشقلب كان مرة . . . كفايه مرة واحدة . .

«الأحرار المصورة»

في الطريق الى انقره

ميدان اكبس
اسكندرونة
انطاكيه

طنبرة

المسيو دو جوفنل – ما رأيك يا عزيزي رينه ؟ وماذا نقول لحراس الجمارك على الحدود التركية ، اذا سألونا عن هذه الطرود ؟ هل ندفع الرسم الجمركي عليها لم نعتبرها من البريد السياسي ؟
المسيو رينه فرنسري – خليها بضاعة « ترانسيت » نظرا لا نحتاج الى استعمالها في مفاوضاتنا فنخرجها بدون دفع الرسم . . .

«الأحرار المصورة»



«الأحرار المصورة»



الشيخ تاج الدين – ماذا يفعل المسيو دي جوفنل يا مسيو أليب ؟
المسيو أليب – انه يطبخ السلام بما تراه من العقاقير ...
الشيخ تاج الدين – ولكني اراه قد ترك كل العقاقير واكتفى بقارورة فيها « الانتخابات والانفصال » .
فهل كل الدواء في هذه القارورة فقط ؟ ...

«الأحرار المصورة»

بعد حرب 1973 توقفت الدول العربية عن إمداد الولايات المتحدة الأميركية ودول أوروبا الغربية بالنفط، كوسيلة لإجبارها على الضغط على إسرائيل..

شوية بنزين..
لوجه الله...

«الصياد»، 15 آذار 1974



[تعمل هيئة « الاعانة والتعمير »
لترحيل يهود أوربا إلى فلسطين]
— عجيبة ! . . لما هي هيئة « تعمير » امال عايزين يخربوا بيوتنا ليه ؟ ! . .

الذين سينجحون
في الإنتخابات
أصوات
الحزب
مجلس
النواب
أصوات
الطائفة
أصوات
$
أصوات
الجيران

«السفير»

«السفير»

«طرائف بلا حدود» - الرئيس سليم الحص

... وفي الآونة الأخيرة، مع اشتداد الأجواء الفئوية، الطائفية والمذهبية في لبنان، كثرت النكت المتداولة حول آفة العصبية الفئوية. وإنك إذ تسمع هذه الطرائف تشعر وكأن راويها يريد الانتقاد من دون الإساءة.
كتاب العميد الركن الدكتور هشام جابر متميّز في طرافته كما في تعبيره عن واقع قائم في بلادنا التي تفتقر إلى الديمقراطية الحقيقية إلى حد بعيد.

«ساخرة وصادمة» - ألبير خوري

يحترف هشام جابر لغة كاريكاتورية خاصة جداً، طريفة ومسلية. هادفة ترسم بسمة على الوجوه. تخترق الأحاسيس ويرميها حروفاً لاذعة، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. سخرية مُرّة، تخترق الحدود والمزاجات العربية، لتصبح ضحكة من التاريخ، لحاضر يضحك على ذاته. يحاول جاهداً امتصاص مآسيه، لعل المستقبل يعطي حروفاً حرة. تضحك لأصحابها بالنكتة العفوية حيناً، وأحياناً بلسعة منبّهة ومحذّرة، إنما صادمة في كل حين.

يضيف هذا الكتاب جديداً إلى المكتبة العربية موضوعاً وأسلوباً. فقد يطالع القارئ طرفة مدونة نطق بها أحد الظرفاء، أو يقرأ مقالاً ساخراً، أو يرى تعليقاً ناقداً متلفزاً. وقد يقرأ هجاءً مرّاً أو يرى كاريكاتوراً، ويشاهد مسرحية مضحكة. هذا الكتاب يجمع كل ذلك بين دفتيه. سارداً ومؤرشفاً ومعلقاً.
العميد الركن الدكتور هشام جابر في كتابه هذا، راوٍ وكاتب ساخر وباحث نقّب في الكتب والصحافة وقرأ الآلاف منها، ومعلق رصين.





الشركة العالمية للكتاب
WWW.WBPBOOKS.COM
بيروت - لبنان